

موسوعة

الإعجاز العلمي

في الحديث النبوي

أ.د. أحمد شوقي إبراهيم

الجزء الأول

موسوعة الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى

«الجزء الأول»
«النبى صلى الله عليه وسلم»

طبعة منفلة ومزودة

للدكتور أحمد شوقى إبراهيم

زميل كلية الأطباء الملكية بلندن

رئيس مجلس إدارة المجمع العلمى لبحوث القرآن والسنة

رئيس مجلس إدارة جمعية الإعجاز العلمى للقرآن والسنة

عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

عضو اللجنة الوطنية للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو»



اسم الكتاب: موسوعة الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى - الجزء الأول «النبى ﷺ».

المؤلف: أ. د. أحمد شوقى إبراهيم.

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم.

تاريخ النشر: الطبعة الرابعة - يناير 2006م.

رقم الإيداع: 2003 / 2670

الترقيم الدولى: ISBN 977-14-2074-7

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة
ت: (02) 3466434 - (02) 3472864 فاكس: (02) 3462576 ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: (02) 8330287 - (02) 8330289 - فاكس: (02) 8330296
البريد الإلكتروني للمطابع: Press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسى: 18 ش كامل صدقى - الفجالة -
القاهرة - ص.ب: 96 الفجالة - القاهرة.
ت: (02) 5909827 - (02) 5908895 - فاكس: (02) 5903395

مركز خدمة العملاء: الرقم المجانى: 08002226222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: Sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: (03) 5462090
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: (050) 2259675

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

احصل على أى من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب/CD)
وتتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أى جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابى صريح من الناشر.

تقديم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله ، أما بعد :

فإن الحديث النبوي الشريف هو وحى صريح من الله تعالى لرسوله ﷺ إذا كان الحديث يتعلق بالعقيدة والمعاملات والعبادات ، وهو من إلهام النبوة التي خص الله تعالى به الرسول ﷺ دون سائر البشر وفطره عليه ، إذا كان الحديث الشريف فى أمر من أمور الدنيا . . إلا أننا لو تدبرنا هذا الأمر لوجدنا أن كل أمر من أمور الدنيا لا يخرج قط عن الدين ، فوجب أن يكون الحديث الشريف كله وحياً من الله تعالى لرسوله ، إما وحياً صريحاً ومباشراً وإما إلهاماً له من ربه عز وجل ، وقالت السيدة عائشة رضى الله عنها عن الرسول ﷺ (كانت حياته الدين وكان خلقه القرآن) . . ومن هنا لابد أن ندرك أن الرسول ﷺ لا يجوز عليه خطأ ، لأنه أرسل معلماً للأمة ، وإذا اجتهد فى رأى فلا يكون رأيه إلا صواباً .

وقد يقال إن الوحي كان ينزل أحياناً يعاتب الرسول ويصحح له ما أخطأ فيه ، فنقول إن الرسول لا يقول إلا صواباً ، وإذا نزل الوحي فى بعض المواقف بما يخالفه ، فإنه يكون قد نزل بالأصوب ، ولم يعدل حكم رسول الله ﷺ لأنه كان صواباً والأصواب لا يكون خطأ . وكما أن فى القرآن الكريم الكثير من الإعجاز العلمى ، فكذلك فى الحديث النبوي الشريف الكثير من الإعجاز العلمى ، ذلك أن القرآن والسنة النبوية من قبس واحد ومن نور واحد .

وسنة رسول الله ﷺ ليست لعصر من العصور ، أو لشعب من الشعوب ، وإنما هى تشريع لكل أمة ولكل زمان ومكان وإلى يوم القيامة ، وكأن رسول الله ﷺ قائم فى كل عصر ومكان يدعو الناس إلى الدين القيم ، ويتلو عليهم آيات القرآن ، ويعلمهم ويزكيهم ويعلمهم بما لم يكونوا يعلمون .

إن أساس التشريع الإسلامى مستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة ، وليس من القرآن فحسب ، ومن قال بذلك يكون قد خرج عن الإسلام . لقد أوجب الله تعالى طاعة رسوله محمد ﷺ طاعة تامة ، أثناء حياته ، وبعد التحاقه بالرفيق الأعلى .

وفى هذا يقول الله عز وجل : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء : ٦٥) .

ويقول تعالى : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ (النساء : ٨٠) .

ويقول أيضاً : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الحشر : ٧) .

وقال الأئمة أصحاب السنن إن رسول الله ﷺ قال : « يوشك رجل متكئ على أريكته يحدث بحديث من حديثى فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل ، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمانه . ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله » .

ومناسك العبادات كلها من السنة النبوية . قال ﷺ : « خذوا عني مناسككم » . وكذلك أنصبة الزكاة سكت عنها القرآن وفسرتها السنة النبوية . وقال الإمام أحمد إن السنة النبوية تفسر القرآن وتبينه وفيها توضيح لما سكت عنه القرآن الكريم .

وقال النبي ﷺ : «تركتم فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه» . أخرج الإمام مالك في الموطأ . وفي رواية الحاكم قال رسول الله ﷺ : «تركتم فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتي» . وأخرج البخاري والحاكم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى» . قالوا : يا رسول الله ، ومن يأبى؟ قال : «من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى» .

فأساس التشريع الإسلامى القرآن والسنة النبوية معاً .

وسنحاول إن شاء الله أن نصدر موسوعة فى الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى ، وسنضع التقدم العلمى فى خدمة تفسير الحديث النبوى الشريف ، متبعين المنهج العلمى الصحيح فى بيان أوجه الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة .

وستصدر هذه الموسوعة - إن شاء الله تعالى - فى أجزاء . وهذا هو الجزء الأول منها . وقد قسمنا الموضوعات إلى ثلاثة أبواب :

الباب الأول:

فيه ما يخص سيدنا رسول الله ﷺ والسنة النبوية المشرفة ، وقد وجدنا أنه من الأوفق أن نبدأ بتعريف للسنة النبوية ، ثم الحديث بعد ذلك عن المنهج العلمى فى بيان أوجه الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة . ثم ذكرنا بعد ذلك أمثلة من الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى وفصاحة الرسول ﷺ . ولما كان «الحمد لله» تسبيحاً لله تعالى فقد ذكرنا لمحة قصيرة عنه .

ويحتوى هذا الباب أيضاً على موضوعات أخر تتصل اتصالاً مباشراً بسيدنا رسول الله ﷺ مثل معجزة الإسراء والمعراج ، وموضوع وجود النبى ﷺ فى كل عصر من العصور ، وموضوع النور النبوى ، ثم ذكرنا بعد ذلك عن عظمة الرسول وأنه سيد البشر ، والأدلة على صدق نبوته .

واحتوى الباب الأول على موضوع الصلاة والسلام على النبى ﷺ ، وأن الرسول لا ينطق عن الهوى ، ثم اختتم الباب الأول بحقيقة عصمة الرسول واجتهاده فى أمور الدنيا ، وهو موضوع اختلف فيه العلماء مثل حادث تأبير النخل ، وحديث العدوى ، وحادث أبار بدر ، وأسرى بدر ، وابن أم مكتوم ، وإذن رسول الله ﷺ لبعض الناس فى التخلف عن القتال ، ودعاء الرسول فى أحد .

الباب الثانى:

كان عن الخلق الأول ، وكيف بدأ الخلق ، وعلم ما فى الأرحام ، وقصة آدم وحواء ، ولماذا لم يسجد إبليس لآدم إذ أمره ربه .

الباب الثالث:

يحتوى هذا الباب على الأحاديث النبوية التى تخص حياة المرأة وصحتها ، وأمور أخرى تخصها ، وكان الحديث عن الإعجاز العلمى فى تلك الأحاديث النبوية المشرفة . . أما ما يخص المرأة من أمور ، فهو موضوع نقصان عقل المرأة ونقصان دينها ، وأصحاب الجنة ، وأهل النار ، وخفض البنات ، وكيف أن حواء خلقت من ضلع أعوج . ثم كان الحديث عن أمور تخص المرأة أيضاً كالحيض والحائض ، وأذى الحيض ، والرحم المستأجر ، وزواج الأقارب ، ومعجزة ولادة مريم عليها السلام .

واختتم هذا الباب بموضوع الرضاعة ، واللبن كغذاء للأطفال ، وموضوع الأخوة فى الرضاع .

وحاولنا أن نتناول هذه الأمور بأسلوب سهل وبعرض مبسط ، ليسهل فهمه على كل من العامة والخاصة ، لتعم الفائدة إن شاء الله .

أدعو الله تعالى أن يتقبل منى هذا العمل ، وأن يوفقنى فيه ، وما توفيقى إلا بالله .

المؤلف

الدكتور/ أحمد شوقى إبراهيم



السنة النبوية المشرفة



السنة النبوية المشرفة

السنة النبوية المشرفة:

والسنة النبوية المشرفة هي كل ما أثر عن النبي محمد ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خلقية . ومثال ذلك الأحاديث النبوية وما نقل عن أفعال النبي ﷺ في العبادات ، وما أقره من أفعال صدرت عن بعض الصحابة .

وعنى علماء الحديث بنقل كل ما يتصل بالرسول ﷺ من سيرة وخلق وأقوال وأفعال . أما علماء الأصول فبحثوا في كل ما يتصل بالرسول ﷺ من تشريع وأحكام وقواعد شرعية . أما علماء الفقه فبحثوا في أفعال الرسول وأقواله التي تدل بالتالي على أحكام شرعية ، وهم يبحثون عن حكم الشرع على أفعال العباد ، وجوباً أو حرمة أو إباحة^(١) .

وكان الصحابة يرجعون إلى الرسول ﷺ ليفسر لهم أحكام القرآن ويبين لهم معانيه ، ويعلمهم كل أمور حياتهم الدنيا ، وحكم الشرع في كل ما ينشأ من منازعات ومشكلات وخصومات .

وكان الصحابة يطيعون الرسول ﷺ طاعة مطلقة ، ويتبعونه في أعماله وأقواله وأوامره ونواهيه اتباعاً كاملاً . ويطبقون كل ما يبين لهم من العبادات وكيفية أدائها كما قال ﷺ : «صلوا كما رأيتموني أصلي» . أخرجه البخاري عن مالك بن الحويرث . وقوله ﷺ : «خذوا عني مناسككم» . أخرجه مسلم عن جابر . وكان المسلمون يقتدون برسول الله ﷺ ؛ يفعلون ما يفعل ، ويتركون ما يترك ، ويأخذون ما يأخذ بغير سؤال عن سبب ذلك وحكمته ، إنما هي الطاعة المطلقة لرسول الله ﷺ . وكانوا يسألونه فيما أشكل عليهم فهمه ، فيعلمهم ما لم يكونوا يعلمون .

وما كان الصحابة يبدون رأيهم في أمر من الأمور ، إلا إذا أحسوا أن الرسول ﷺ يقبل منهم ذلك . . وما كان رأيهم إلا لمعرفة الحكمة فيما فعل النبي ﷺ أو فيما قال . . ومثال ذلك عندما استأذن الحباب بن المنذر في أن يبدى رأيه في مكان النزول في أبار بدر . . وعندما أبدى عمر رأيه في صلح الحديبية ، وعندما أبدى رأيه في أسرى بدر ، وعندما سأل عمر رسول الله ﷺ عندما كلم قتلى بدر . وكان كل ذلك في نطاق الطاعة المطلقة والتسليم التام والاتباع الكامل لأوامر رسول الله ﷺ ونواهيه وأقواله وأفعاله .

وأوجب الله تعالى طاعة رسوله ﷺ في حياته وبعد مماته أيضاً . قال تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (آل عمران : ٣٢) . وقال تعالى أيضاً : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء : ٦٥) .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴾ (النساء : ٨٠) .

وقال تعالى أيضاً :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الحشر : ٧) .

(١) منهاج الصالحين (عز الدين بليق) .

وقال الله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء : ٥٩) .

والرد إلى الله هو الرد إلى القرآن . والرد إلى الرسول هو الرد إلى السنة النبوية . من هنا يبدو واضحاً أن أساس التشريع الإسلامى : القرآن والسنة النبوية معاً . والأحاديث النبوية وحى من الله عز وجل لأن الرسول ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى من الله إليه يوحى . . وبعض الأحاديث النبوية هى من إلهام النبوة الذى خصه الله تعالى به ولا يتعرض إلهام النبوة لخطأ .

ومن صفات معانى القرآن التجدد والتعدد فى المعنى ، وكذلك من صفات الأحاديث النبوية التجدد والتعدد فى المعنى . . ويقول مصطفى صادق الرافعى فى «وحى القلم» عن الأحاديث النبوية المشرفة : «إنه كلام كلما زدته فكراً زادك معنى» .

وتنقسم الأحاديث النبوية إلى قسمين رئيسيين :

١ - قسم توقيفى : وهى وحى صريح من الله تعالى لرسوله فى كل ما يتعلق بالعقيدة والعبادات والمعاملات ، فيبلغه الرسول ﷺ للناس بكلامه هو ، وهى أحاديث مشرفة من وحى الله تعالى له . وكذلك الأحاديث القدسية عن الله عز وجل هى منزلة على الرسول بمعناها فقط ولم تنزل بلفظها .

٢ - قسم توفيقى : هو من إلهام النبوة وما علمه الله تعالى لرسوله . وهذه الأحاديث المشرفة توجيهية وتعليمية وتربوية للأمة ، والرسول معصوم فيها من الخطأ . . وكان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ بالأصوب ، ولكن لم يبلغ أى حكم نطق به رسول الله ﷺ لأنه كان دائماً ينطق بالصواب ، وإن كان الوحي ينزل أحياناً له بالأصوب ، كما حدث فى حادث أسرى بدر وحادث الأعمى .

وأخرج الإمام مسلم أن النبى ﷺ قال : «إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوه ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر» . لم يقل : أخطئ وأصيب . لأنه معصوم من الخطأ . . وإنما كلامه تجوز عليه الشورى ؛ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران : ١٥٩) .

وأخرج الشيخان عن ابن أم سلمى أن رسول الله ﷺ قال : «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ ، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع . فمن قضيت له فى حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار» . قوله ﷺ : «إنما أنا بشر : أى لا أعلم الغيب . . ألحن : أى أبلغ فى الكلام وأقوى فى الحجة .

ومن الأحاديث التوفيقية تلك الأحاديث التى يعلم بها رسول الله الناس المنهج العلمى الصحيح فى الفكر الإنسانى ، مثل حديث تأبير النخل . . كما أن من أهداف الأحاديث التوفيقية تأكيد بشرية الرسول ﷺ الذى يأمر بالشورى . . ويقبل رأى الآخر ، كما جاء فى حادث أبار بدر ، وما أشار به الحباب بن المنذر ووافق الرسول عليه وقال له : «لقد أشرت بالرأى» .

ومن الأحاديث التوفيقية ما جاء فى حادث الإفك الذى أرجف فيه المرجفون وطال الوقت ولم ينزل الوحي بالحكم لحكمة يعلمها الله تعالى ، فقال رسول الله ﷺ لعائشة : «يا عائشة أما إنه بلغنى كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله عز وجل ، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفرى الله» . وهذا حديث توفيقى يدل بوضوح على أن الأحاديث التوفيقية ليست بوحي صريح من الله عز وجل ، وإنما هى بإلهام النبوة الذى خصّ الله تعالى به رسوله دون سائر البشر .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (النحل : ٤٤) .
 وقال تعالى أيضا : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (الحشر : ٧) .
 وقال تعالى أيضا :

﴿ وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِ وَلَا الْمُؤْمِنَةِ إِذَا قُضِيَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (الأحزاب : ٣٦) .
 وأخرج الإمامان أحمد وأبو داود عن المقدم بن معديكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ألا إنى قد أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه . ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى ولا كل ذى ناب من السبع ولا لقطة معاهد ، إلا أن يستغنى عنها صاحبها ، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقرؤه فإن لم يقرؤه فله أن يعقبهم بمثل قراه » . (ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه) أى أذن له أن يبين ما فى الكتاب ، فيعم ويخص ، ويزيد عليه ، ويشرع ما فى الكتاب فيكون فى وجوب العمل به ولزوم اتباعه كالمثل من القرآن .
 وفى الحديث الشريف الدليل على أنه لا حاجة بالحديث النبوى إلى أن يُعرض على القرآن . . فالذى يثبت عن رسول الله ﷺ يكون تشريعا . . أما ما رواه بعضهم أنه قال : (إذا جاءكم الحديث فأعرضوه على كتاب الله ، فإن وافقه فخذوه وإن لم يوافقه فردوه) . فإنه حديث موضوع وباطل ولا أصل له * .
 وأخرج الإمام ابن ماجه والدارمى عن المقدم بن معديكرب الكندى أن رسول الله ﷺ قال : « يوشك الرجل متكئا على أريكته يُحدث بحديث من حديثى فيقول : بينا وبينكم كتاب الله عز وجل ، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرّمناه . ألا وإن ما حرّم رسول الله ﷺ مثل ما حرّم الله » .

وأخرج البخارى حديث رسول الله ﷺ : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » . و : « خذوا عني مناسككم » .
 وقال عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال لرجل : أتجد الظهر فى كتاب الله أربعاً لا يُجهر فيها بالقراءة ؟ . . ثم عدّد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا ، ثم قال : أتجد هذا فى كتاب الله مُفسّراً ؟ إن كتاب الله أبهم هذا ، وإن السنة تفسر هذا .

وروى سعيد بن منصور ، عن ابن يونس ، عن الأوزاعى ، عن مكحول قال : القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن . وسئل الإمام أحمد بن حنبل عن هذا الحديث فقال : ما أجسر على هذا أن أقوله ، ولكنى أقول إن السنة تفسر القرآن وتبينه .



القرآن الكريم معجزة الدهر وهو مُنَزَّه عن أى خطأ وهو معصوم عن أى زلل ، ومن إعجازه أنه منقول بألفاظ الوحي الإلهي ، ويقول الله عز وجل ، وبلغه الرسول إلى الأمة كما تلقاه وحياً من الله له ، فلم يتغير فيه لفظ أو يختل فيه معنى ، وحفظه الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) .
فهو كلام الله المنزل وليس كلام البشر ، وفي ذلك يختلف عن الحديث النبوي الذي هو وحي من الله لرسوله ، فقال الرسول بكلامه هو وليس بكلام الله عز وجل .

أما غير القرآن من الكتب المقدسة فهي محفوظة بحفظ معانيها ، وإن تغيرت ألفاظها ، فالتوراة أوحى الله تعالى معانيها إلى النبي موسى عليه السلام فذكرها بلفظه هو وعبر عنها بكلامه هو وليس بكلمات الله عز وجل ، أما الإنجيل فهو ما أخبر به النبي عيسى عليه السلام عن ربه وعن نفسه ، فجمعه تلاميذه بألفاظهم وكلماتهم وجعلوه كتاباً متلوّاً .

معنى العجز والإعجاز اصطلاحاً

العجز في اللغة هو عدم المقدرة ، وأعجزت فلاناً أى جعلته عاجزاً ، والإعجاز مصدر أعجز ، ومنه اشتقت كلمة معجزة ، والشئ المتصف بالإعجاز يدل على أنه شئ خارق للعادة مقرون بالتحدي ، سالم من المعارضة كما قال علماء الكلام ، ولم يرد في القرآن الكريم لفظ معجزة أو إعجاز ، وإنما وردت كلمة آية وكلمة برهان ، وهذه الكلمات لا تشمل معنى الإعجاز المفهوم منها .

أما كلمة معجزة فتدل على أمر خارق للعادة يكون دليلاً على النبوة ، أو برهاناً على شئ يعجز أحد من الخلق عن الإتيان به . وأول كتاب عنون باسم «إعجاز القرآن» كان كتاب محمد بن يزيد الواسطي المتوفى سنة ٣٠٦ هـ ، ووردت فيه كلمة «معجزة» . وصار واضحاً أن المراد من قولنا «إعجاز القرآن» أنه أمر خارق للعادة لم يستطع أحد معارضته برغم تصدى الناس له .

وفي القرن الرابع الهجري فحص الباقلاني كلام من تقدمه من المؤلفين في الإعجاز القرآني ، ويعتبر الحلقة الوسطى الذي انتهى إليه من سبقوه ، وابتدأ منه من جاءوا بعده . وفي نهاية القرن الرابع الهجري أخذت أكثر نظريات الإعجاز في علم الكلام شكلها النهائي ، ولم يغير من جاء من علماء الكلام شيئاً ولم يأتوا بجديد ، وأهم براهين علم الكلام عن الإعجاز القرآني : البلاغة والنظم البديع والمعاني الرائعة والإخبار عن الغيب ، وبهذا الأسلوب في دراسة الإعجاز القرآني راح المتكلمون يردون على انتقاد أعداء الإسلام ، ألف «الهمذاني» سنة ٤١٥ هـ كتاباً للرد على تلك الانتقادات سماه «تنزيه القرآن عن المطاعن» ، ولم يصلنا من الكتب التي ألفت في القرن الثاني إلا أسماؤها . وكانت بداية المعرفة بما كتب عن الإعجاز القرآني نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجري ، وأكثر كلام المتحدثين في الإعجاز في تلك العصور كان في بيان التحدي القرآني في الآيتين (٢٣ ، ٢٤) من سورة البقرة : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ .

وكان من أشهر من تكلموا في ذلك ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ في تفسيره ، ولم يكن من المتكلمين ولكن كان مفسراً فقط . ومن المفسرين الأولين حسن بن محمد القمي سنة ٣٧٨ هـ الذي جمع بين علم الكلام والتفسير ، أى إنه شرح أفكاره وحججه الخاصة التي لم يذكرها القرآن إلى جانب علم التفسير ، فهو متكلم ومفسر .

ومن أشهر المفسرين الذين تكلموا في الإعجاز القرآني بعد الطبري والقمي : الراغب الأصفهاني (٥٠٢ هـ)

والزمخشري (٥٣٨هـ) في كتابه الكشف ، وابن عطية (٥٤٢هـ) ، وفخر الدين الرازي (٦٠٦هـ) في تفسيره ، وبدر الدين الزركشي (٧٩٤هـ) في كتابه «البرهان في علوم القرآن» وجلال الدين السيوطي (٩١١هـ) في كتابه «الإتقان في علوم القرآن» والألوسي (١٢٧٠هـ) في تفسيره «روح المعاني» .

وبما لاشك فيه أن فكرة الإعجاز العلمي كانت من أقوى البواعث في نشأة علم البلاغة . وانقسم القائلون بالإعجاز إلى فريقين : فريق يقول بأن الإعجاز القرآني راجع إلى بلاغته وحسن نظمه وأسلوبه ، وفريق لا يرى إعجازه في ذلك ويلتمس أسباباً أخرى ، إلا أن الفريق الأول كان الأقوى . وكان الجاحظ أول المؤلفين في علم البلاغة ، ألف كتابه «نظم القرآن» وقال إن إعجاز القرآن الكريم في حسن نظمه ، كما ألف كتاب «البيان والتبيين» . وربما يكون الجرجاني أول من ألف في علم البلاغة ، فقد ألف كتاب «أسرار البلاغة» وكتاب «دلائل الإعجاز» . وفي الكتابين الدليل على أن علم البلاغة نشأ من فكرة الإعجاز القرآني . وجاء الفخر الرازي (٦٠٦هـ) فاختصر كتابي الجرجاني وأعاد تنظيمهما في كتابه «نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز» .

وبعد ذلك صار العلماء يطلقون كلمة الإعجاز على علم البلاغة «أي الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم» . وفي القرن السادس الهجري ظهرت النظرة العلمية في بيان الإعجاز القرآني لأول مرة ، وكان أول من تحدث بذلك الإمام أبو حامد الغزالي ثم القاضي عياض ثم ابن رشد .

وفي القرن الثامن الهجري ظهر أول المعترضين على بيان الإعجاز العلمي في القرآن ، فقد أنكر الشاطبي احتواء القرآن على جميع العلوم ، وأيده طائفة من العلمانيين . وكان كلامه خاطئاً ، لأن كل ما وصل إليه العلماء من علوم هو نتيجة تدبرهم في فطرة الخلق ، والقرآن الكريم كتاب الله تعالى فاطر الفطرة فلا غرو أن تكون كل حقيقة علمية هي في أصلها حقيقة قرآنية ، لذلك يخطئ من لا يدرك أن القرآن العظيم فيه كل قضايا العلوم وأنه لم يغادر منها شيئاً ، وصدق الله تعالى إذ قال : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام : ٣٨) .

أما الزركشي فقال : إن هناك وجوهاً من الإعجاز العلمي لم يتطرق إليها العلماء بعد . وفي القرن العاشر الهجري ظهر السيوطي الذي قال بالإعجاز العلمي والإعجاز البياني والإعجاز التاريخي ، وألف في ذلك كتاب «الإتقان في علوم القرآن» . وفي القرن الرابع عشر الهجري نصبت قضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ، وذلك نتيجة الاكتشافات العلمية الحديثة . وكثر الكتاب والمؤلفون في بيان الإعجاز العلمي ، وكان منهم من لم يكن عالماً موسوعياً مؤهلاً للكلام في هذا الموضوع فأخطأ ، ومنهم من كان عالماً مؤهلاً للكتابة في هذا الموضوع إلا أنه نزع إلى المبالغة والاستنتاج وتحميل النص القرآني ما لا يحمله ، مثل طنطاوي جوهرى في كتابه «الجواهر» .

ومنهم من التزم بالاعتدال مثل محمد جاد المولى من علماء المسلمين ، وموريس بوكاي من العلماء غير المسلمين الذي توصل إلى أن الاكتشافات العلمية الحديثة تتطابق مع ما جاء بالقرآن ، بما يؤكد أن القرآن الكريم لم يحدث فيه أي تغيير أو تبديل ، وأنه يحمل من الأدلة العلمية على أنه منزل من عند الله عز وجل ، وأن رسالة النبي محمد رسالة الحق . وانتهى إلى أن القرآن صحيح ما جاء بالتوراة من أخطاء علمية ولم يأخذ منها ، وأنه ذكر الكثير من الحقائق العلمية التي لم تذكر في الكتب الدينية السابقة عليه . وظهر الإمام محمد عبده ، وبعد ذلك ظهر الكثير من العلماء مثل الدكتور محمد الغمراوي ، وسيد قطب ، والرافعي ، واتخذ كل منهم طريقاً في البحث في أوجه الإعجاز العلمي في القرآن الكريم .

المنهج العلمي في بيان الإعجاز العلمي في القرآن والسنة

إن كل ما يكتشفه العلماء من حقائق علمية ثابتة في مختلف فروع العلم في أي عصر من العصور ، هو نتاج دراستهم وتدبرهم لفطرة الخلق ، والقرآن والسنة وحى فاطر الفطرة - وهو الله تعالى - لرسوله ، فلا غرو أن نجد كل

ما يكتشفه العلماء من حقائق علمية مذكورًا من قبل في القرآن أو الحديث النبوي أو هما معًا ، والذي يتدبر المعطيات العلمية في القرآن والسنة في مختلف فروع العلم ، يجد أنها أوجه متعددة ومتنوعة لحقيقة واحدة كبرى ، هي سنة الله في خلقه وتقديره في ملكوته ، وليس في حقائق العلوم شيء إلا له في القرآن العظيم أصل ، وله في السنة المشرفة أساس ، كما قال تعالى : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام : ٣٨) .

وقال الإمام الشافعي رحمه الله : (جميع ما يقوله البشر من حق تفسير للسنة النبوية المشرفة ، وجميع ما تقوله السنة النبوية المشرفة تفسير لما هو موجود في القرآن الكريم) . من هنا نفهم أن كل حقيقة علمية هي في الأصل حقيقة قرآنية . ويسر الوحي الإلهي في القرآن والسنة تفسير الظواهر الكونية والعلمية لاجتهاد المتخصصين من العلماء على مر العصور . ففي كل عصر يجد الناس علمًا جديدًا لم يكن فهمه متاحًا لمن سبقهم من الناس في عصور مضت . وسيظل القرآن والسنة رسالة متجددة للناس جميعًا على مر العصور وإلى يوم القيامة .

ويختص البحث في الإعجاز العلمي ، بالإشارات العلمية التي ذكرت في أكثر من ألفي آية قرآنية إما تصريحًا وإما تلميحًا ، وفي العديد من الأحاديث النبوية ، فضلاً عن الإعجاز اللغوي والبياني والتاريخي .

أما الأمور الشرعية ، فقد وضع الحق فيها تمامًا في عهد رسول الله ﷺ قبل التحاقه بالرفيق الأعلى ؛ مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (المائدة : ٣) . لذلك فهي خارج مجال البحث العلمي إلا فيما يخص الإعجاز في أسلوب التشريع وتطبيقه ، والإبداع العلمي في العبادات والمعاملات ، وقال ابن عطية في «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» : إن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علمًا ، وأحاط بالكلام كله علمًا ، فإذا ترتبت اللفظة في القرآن الكريم ، علم الله أي لفظة تصلح أن تلي الأولى ، وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره .

والذي يتدبر القرآن الكريم يجد كل سورة مرتبطة بالسورة التي بعدها وبالسورة التي سبقتها ، كما أن آخر سورة في القرآن الكريم مرتبطة بالسورة التي قبلها وبأول سورة في القرآن الكريم ، فالقرآن الكريم متصل ببعضه اتصالاً وثيقاً ، لذلك إذا تحدث أحد عن الإعجاز العلمي في آية قرآنية فلا بد أن يتحدث عن الارتباط في المعنى بين كل كلماتها وليس في كلمة أو اثنتين . وهذا من بديهيات المنهج العلمي في بيان الإعجاز العلمي في القرآن الكريم .

ومثال على ذلك من يحاول أن يبين وجه الإعجاز العلمي في قوله تعالى في سورة (الحديد : ٢٥) : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ . ويركز كل حديثه على هاتين الكلمتين ويؤكد أن الحديد نزل من السماء بواسطة النيازك التي تسقط على سطح الأرض بالملايين كل يوم . . ويقول علماء آخرون : إن معنى الآية : «وخلقنا الحديد» . لأن الإنزال يعني الخلق والإيجاد . . وحتى نفهم المعنى الصحيح لقوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ . ينبغي أن نفهم أن الهمزة في اللغة تفيد معنى التعدى . ومثال ذلك : فهم وأفهم ، رآه وأراه ، بلغ وأبلغ ، نزل وأنزل .

كلمة أنزل تدل على نقل شيء غير معروف للإنسان إلى مجال معرفته وفهمه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ (يوسف : ٢) أي أنزله الله تعالى من اللوح المحفوظ في علم الله المكنون - ولم يكن بلغة من لغات خلقه - إلى بيت العزة في السماء دفعة واحدة ، وجعله بلغة من لغات خلقه ، ليصير في مجال معرفتهم وفهمهم .

أما كلمة نزل : فهي تدل على عملية النقل من السماء إلى الأرض .

وروى ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر . ثم نُزل بعد ذلك منجّماً » .

ولا يقال (أنزل القرآن على النبي) إلا ذكر بعده كلمة (عليك) أو (إليك) كقوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ (الكهف : ١) . وقوله : ﴿ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ (النساء : ١٠٥) . فالإنزال : خَلَقَ وإيجاد ، أى خَلَقَ الله الشيء وعلم الإنسان كيف يفهمه .

أما التنزيل : فهو تنزيل الشيء من السماء إلى الأرض .

وذكر الإنزال - أى الخلق والإيجاد - من السماء لعشرة أشياء : المن والسلوى ، الماء ، القرآن ، الأنعام ، اللباس ، العذاب ، السكينة ، الأمن ، الرزق ، والحديد .

كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ (الزمر : ٦) .

﴿ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ﴾ (الأعراف : ٢٦) .

﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ قال سعيد بن جبیر : أى خلقنا الحديد .

وقال ﷺ : « ما أنزل الله من داء إلا وأنزل له شفاء » .

إن قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ كلمتان اثنتان فقط ، والآية مكونة من ثمان وعشرين كلمة ، كلها مترابطة

المعنى ، وصدر الآية مرتبط بما عقت به من حقيقة إيمانية ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ

الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ

بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحديد : ٢٥) . فإذا أراد عالم من العلماء أن يبين الإعجاز العلمى فى الآية الكريمة

فيجب أن يلاحظ ارتباطات هذه الآية فى المعاني بما سبقها من الآيات مثل قوله تعالى ﴿ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (الحديد : ٧) . فالمال مال الله والإنسان

مستخلف فى هذا المال فى الدنيا ، وعليه أن ينفذ أوامر صاحب المال فيه ، وبعد ذلك تضع الآية الكريمة الأسس

الصحيحة فى الاقتصاد الإسلامى والتنمية فى المجتمع الإسلامى ، وذلك فى الآية الكريمة من سورة الحديد (٢٥)

التي استهلّت بالقول ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ . فالإقتصاد الإسلامى إنما يقوم على أساس من شريعة الله عز

وجل وأن المال مال الله ، وليس مال الأفراد ، مثل المجتمعات الرأسمالية ، وليس مال الدولة ، كما هو الحال فى

المجتمعات الاشتراكية . وليست القضية فى الآية الكريمة أن الحديد نزل من السماء أو خلق فى الأرض ، ولكن

القضية أن الله تعالى جعله فى متناول يد الإنسان وهده إلى طرق الانتفاع به وقال : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ

لِلنَّاسِ ﴾ . فمن الحديد تقوم صناعات الحديد والصلب وصناعة السلاح . ويجب أن يستعمل الإنسان نعمة

الحديد على الأسس التي قررّها الله تعالى فى صدر الآية الكريمة . وإذا اجتمع المال والسلاح فى يد إنسان فإن

ذلك قد يعطيه شعورًا زائفًا بالقوة والعزة ، لذلك تعقب الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ . فيجب ألا ينسى

الإنسان أن الله هو القوى ولا قوى غيره ، وهو العزيز ولا عزيز سواه . فالإعجاز العلمى فى الآية الكريمة له أوجه

كثيرة : وجه فى الإعجاز الاقتصادى ، ووجه فى خلق الحديد نعمة للإنسان ، ووجه فيما اكتشف حديثًا من

البأس الشديد فى الحديد والمنافع الكثيرة فيه ، وكلها أوجه مرتبطة ببعضها ارتباطًا وثيقًا . وما وجه المناسبة بين

الكتاب والميزان والحديد؟ هذا وجه آخر من أوجه الإعجاز العلمى فى الآية ، فالكتاب هو القوة الإيمانية ، والميزان هو القوة العملية ، والحديد هو النعمة الفعلية من الله فى الآية للإنسان . والمعاملة إما مع الله وطريقها الكتاب ، وإما مع الناس وطريقها الميزان . فالذى يركز الإعجاز العلمى على كلمتين فى الآية الكريمة يكون قد خرج عن المنهج العلمى الصحيح لبيان الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ويكون قد جانبه الصواب .

أما الأسلوب البلاغى فى الوحي الإلهى فهو أسلوب بلاغى معجز ، يعجز عن أن يأتى بمثله البشر ، ويجد علماء اللغة فيه أوجهاً لا حصر لها من الإعجاز البلاغى ، وهذا باب آخر من أبواب الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة . ومن إعجاز القرآن والسنة أنه جاء بكلّيات العلوم مجتمعة فى كلماته ، وترك تفصيلاتها لفكر الإنسان فى كل عصر من العصور بقدر ما آتاه الله من علم . ومن أهم الأمور فى منهج الإعجاز العلمى عدم فصل الحقائق العلمية المذكورة فى الآية الكريمة عن الهداية الدينية فيها ، والتى هى لخير الإنسان فى الدنيا والآخرة .

والدارس للوحي الإلهى يجد أن الحقائق العلمية قد صيغت فى أسلوب بلاغى معجز ، فهم الناس منه فى كل عصر من العصور السابقة على قدر علمهم ، فلم ينكروا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية شيئاً ، إلا أن الوحي الإلهى لم يوافق الناس على خطأ معتقداتهم العلمية القديمة ، فذكر فى القرآن والسنة الحقائق العلمية الصحيحة ، ولم يغادر منها شيئاً ، حتى إذا جاءت عصور العلم وجد الناس أن ما اكتشفوه من الحقائق العلمية مذكور فى القرآن والسنة ، فلم ينكروا من القرآن والسنة شيئاً ، وهذا الأسلوب البلاغى فى صياغة الحقائق العلمية فى القرآن والحديث النبوى من أعجب أوجه الإعجاز العلمى والبلاغى .

ومن أمثلة ذلك عندما أشار رسول الله ﷺ إلى نجم فى السماء وقال : «أتدرون ما بينكم وبين هذا النجم؟» . قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : «بينكم وبينه خمسمائة عام» . فهم الناس قديماً من الحديث الشريف أن المسافة بين الأرض وذلك النجم قدر ما يسير راكب الدابة خمسمائة عام . حتى إذا جاءت عصور العلم علم الناس أنها خمسمائة سنة ضوئية . ولقد أشار الحديث الشريف إلى ذلك تلميحاً ، إذ يستحيل الوصول إلى نجم فى السماء على ظهر دابة . ومن أمثلة ذلك أيضاً قول الله عز وجل : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ . فهم الناس من الآية الكريمة الحركة الظاهرية للشمس فهى تجرى أمامهم فى السماء من المشرق إلى المغرب كل يوم ، فلم ينكروا من الآية الكريمة شيئاً ، حتى إذا جاءت عصور العلم واكتشف جرى الشمس الحقيقى فى السماء ، وجدوا أن الآية الكريمة تذكره تصريحاً ، فلم ينكروا من الآية الكريمة شيئاً .

وما ذكرت الحقائق العلمية فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، لمجرد السرد العلمى ، وإنما ليستدل بها قارئ الآية أو الحديث النبوى على حقيقة غيبية أشارت إليها الآية أو الحديث تدل على قدرة الله تعالى فى خلقه أو على رحمته بعباده ، أو تدل على حقيقة وجود الله تعالى ووحدانيته ، أو يتخذ الإنسان منها ، بطريق القياس والاستنباط ، الدليل على حقيقة البعث بعد الموت ، كما فى قول الله عز وجل : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (الروم : ١٩) . الآية الكريمة تلفت نظرنا إلى حقيقة دورة الموت والحياة التى تحدث أمامنا فى الدنيا ، فى إخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى فى عالم النبات وعالم الأحياء جميعاً ، وفى إحياء الأرض بعد موتها بنزول المطر عليها ، فيسهل علينا بطريقة الاستدلال العلمى تعرف حقيقة الحياة بعد الموت يوم القيامة ، واستقرار الإيمان بها فى القلب عن طريق العقل ، وهذا أفضل الإيمان . . فالذى صدق معنا فيما نرى ونعلم فى الدنيا ، صادق معنا فيما لا نرى ولا نعلم فى الآخرة ، ومن ذلك نفهم يقيناً أن بيان الإعجاز العلمى فى أى آية قرآنية أو حديث نبوى لا نربطه بالهداية الدينية التى تعقب بها الآية أو الحديث ، يكون بياناً منا ناقصاً أو بحثاً غير مكتمل .

ومثل آخر : فى سورة الأنعام نقرأ أربع آيات . . فى كل آية منها حقيقة علمية تستعرضها الآية ونراها نحن فى حياتنا الدنيا ، وتعقب على كل منها بحقيقة كونية وهداية دينية ، يقول الله عز وجل فى سورة الأنعام (٩٥ - ٩٨) :

١ - ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَمُخْرِجُ الْمَمِيتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنْتِ تُؤْفَكُونَ ﴾ . إنها

صور من دورات الموت والحياة تحدث أمام أعيننا فى الدنيا هى من قدرة الله تعالى .

٢ - ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ . فكل ما تراه من تعاقب الليل وحركات الشمس والقمر ليست من تلقاء نفسها كما يفهم الوجوديون ، ولكن ذلك تقدير العزيز العليم ، إنها حقيقة كبرى يجب ألا ينساها العلماء .

٣ - ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ .

٤ - ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ . نجد أن كل حقيقة علمية كونية تستعرضها الآية الكريمة ؛ تعقب عليها بحقيقة غيبية .

وفى الحديث النبوى الشريف آلاف الأمثلة التى تذكر حقائق علمية كونية ليتخذ العلماء منها دليلاً عن طريق الاستدلال العلمى على قدرة الله عز وجل ووحدانيته ، كما فى قوله ﷺ : «أتدرون أين تذهب الشمس؟» . قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : «إن هذه تجرى حتى تستقر ساجدة تحت العرش» . إلى آخر الحديث الشريف . . وهو تفسير لقول الله عز وجل فى سورة يس : ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ . فالحديث النبوى تفسيرا للقرآن الكريم وامتداد له ، لأن كليهما وحى من الله تعالى لرسوله .

وكان الاعتقاد من قبل أن الشمس ثابتة فى الفضاء ، إلى أن اكتشف علماء الفلك فى عصر العلم الحالى أن الشمس تجرى فى الفضاء بسرعة أكثر من ألف ميل فى الدقيقة الواحدة . فإذا ما تكلم العلماء فى الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة فى ذكر حقيقة علمية كونية لم تعرف إلا حديثاً جديداً ، فينبغى عليهم أن يردوا ذلك ليس إلى قوانين طبيعية من تلقاء نفسها ، ولكن إلى قوانين ونظم كونية هى من تقدير العزيز العليم ، وأن الشمس أينما ذهبت ، شأنها شأن أى خلق فى السماوات والأرض ، إنما هى ساجدة عابدة لله عز وجل تحت العرش ؛ لأن السماوات والأرض جميعاً تحت العرش ، والله تعالى يقول فى سورة الحج (١٨) : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدُّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ .

الاستدلال العلمى؛

إننا إذا أجبنا على السؤال : ما هذا الذى أرى أمامى من سنن الله الكونية؟ فهذا يؤدى بالباحث إلى معرفة الحقيقة العلمية ، وهذا ما تشير إليه الحقائق العلمية المذكورة فى القرآن والسنة ، كما قال الله تعالى : ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (سورة يونس : ١٠١) .

أما الهداية الدينية فيها فهى إشارة إلى سؤال آخر هو : كيف حدث هذا الذى أرى؟ والإجابة على هذا السؤال تؤدى بالباحث إلى معرفة الخالق تعالى والإيمان به ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (العنكبوت : ٢٠) . وقال تعالى : ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية : ١٧ - ٢٠) .

فالبحث فى الإعجاز العلمى ينبغى أن يكون على مرحلتين وليس على مرحلة واحدة .

المرحلة الأولى : النظر فى الكون «ما هذا الذى أرى؟» وباستعمال الاستدلال الاستقرائى أصلي إلى معرفة الحقيقة العلمية والقوانين التى تحكمها «وهذه هى العلوم الظاهرة» ، وعند هذه الدرجة توقف العلماء غير المؤمنين ، وفيهم يقول الله عز وجل : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم : ٧) . أى هم عن العلم بالآخرة والعمل لها غافلون ، «هم» الثانية تفيد أن الغفلة منهم هم وإلا فأسباب التذكر حاصلة فى الآيات والأحاديث ولكنهم هم غافلون ، فهم قد شغلوا بالوسيلة وغفلوا عن الغاية ؛ ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ .

المرحلة الثانية : التفكير فى الإجابة على السؤال : «كيف حدث هذا الذى أرى؟» . وبواسطة الاستدلال القياسى يصل الباحث إلى معرفة خالق هذه الحقيقة . . أى يصل إلى الإيمان بالله تعالى ، من هنا نفهم أنه لا يجب مطلقاً الفصل بين الحقائق العلمية المذكورة فى الآية أو الحديث والهداية الدينية فيهما ، وإلا كان البحث ناقصاً والتفسير غير مكتمل .

الإشارة إلى المنهج العلمى فى الإعجاز العلمى

فى أول سورة نزلت فى القرآن الكريم:

قال تعالى فى سورة العلق : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق : ١ - ٥) . أول أمر كان بالقراءة . أمر بالقراءة مرتين وذكر العلم ثلاث مرات ، وبين القراءة والعلم كان الخلق ، إشارة إلى أن الخلق إنما كان على علم . . وكان ذكر القراءة الأولى أمراً بالقراءة فى كتاب الله المنظور وهو الكون . . وكان ذكر القراءة الثانية أمراً بالقراءة فى كتاب الله المسطور وهو القرآن الكريم . فقرن تدبر حقائق الخلق بقراءة القرآن الذى علم الإنسان ما لم يعلم . . وهذا يشير إلى أنه ينبغى على الإنسان المؤمن أن ينظر فى ملكوت السماوات والأرض وإعجاز خلق الله فيها ، ثم يودى عبادته فى المسجد ؛ صلاة لله تعالى ، ثم يخرج من المسجد إلى صلاة أخرى لله تعالى فى العمل أو المرصد أو المختبر ، فهذه صلاة أخرى لله عز وجل فى محراب العلم ، كما كان يفعل السلف الصالح ، رضوان الله عليهم ، فالتدبر العلمى فى آيات الله تعالى فى خلقه ، يجب أن يكون متصلاً بتدبر آيات الله فى كتابه العزيز . وهذا من أهم أسس المنهج العلمى لبيان الإعجاز فى القرآن والسنة .

اختلاف وجهات النظر فى بيان الإعجاز العلمى:

فى بيان الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة قد يحدث أمر يغيب عن أذهان كثير من الناس ، وهو أن اختلاف وجهات النظر فى بيان الإعجاز العلمى فى آية معينة أو حديث معين - لا يدل على خطأ بعض وجهات النظر ، بل ربما تكون كلها صحيحة ، ذلك أن كلمات الله تعالى ووحىه فى القرآن والحديث النبوى ، تتصف بالإحاطة والشمول ، كما أنها كالجواهر لها أوجه متعددة ، إذا نظر الإنسان إلى أى وجه من أوجهها رأى علماً عظيماً ونوراً مبيناً ، وكلها أوجه متعددة وصحيحة لجوهرة واحدة . ولا يرى إنسان أوجه الجوهرة كلها إذا نظر إليها ، لذلك لا يعلم أوجه الحقائق كلها فى كلمة واحدة فى الوحي الإلهى فى القرآن والسنة ، إلا فريق من العلماء كل منهم يبحث فى وجه واحد منها من وجوه العلم ، ثم إن ما وصلوا إليه جميعاً لا يكون بجانب علم الله المكنون فى الكلمة شيئاً مذكوراً .

الإعجاز العلمى يثبت لغير المسلمين أن القرآن حق:

إن القرآن والسنة كانا ولا يزالان عرضة للهجوم والتشكيك من قبل أعداء الدين فى كل عصر من العصور ، وإن بيان الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة أمر ملح فى عصرنا هذا ، فإن الحقيقة العلمية التى لم تعرفها العلوم الإنسانية إلا فى عصر العلم الحديث ، وجاء ذكرها فى القرآن العظيم أو السنة المشرفة - لا بد أن تقوم دليلاً محسوساً وبرهاناً ساطعاً عند كل ذى عقل ، على أن الذى خلق هذه الحقيقة هو الذى أنزل هذا القرآن على عبده ورسوله ، وليس هناك احتمال آخر . ولو كان القرآن من تأليف بشر لانعكست تلك الأخطاء العلمية التى كانت شائعة فى عصر نزول القرآن - وما أكثرها - على ما جاء فى القرآن الكريم وعلى ما جاء فى الأحاديث النبوية الشريفة ، أما أن يرفضها القرآن والسنة ويأتى بحقائق علمية لم يكتشف العلم الإنسانى إلا جانباً منها فى عصر

العلم الحالى ، فإن ذلك يضع أى متشكك أو ضال أو منكر أمام أحد خيارين : إما أن يؤمن بأن القرآن والسنة وحى من الله تعالى لرسوله ، وإما أن يتخلى عن الفهم السليم .

الإعجاز العلمى بين المؤيدين والمتحفظين:

ينادى بعض المفكرين المسلمين بوجوب الابتعاد عن دراسة التفسير العلمى للقرآن الكريم ، حتى إن بعضهم اعتبر ذلك بدعة ، وكانت حججهم فى ذلك أنه لا ينبغى أن نفسر الإشارات العلمية فى كلمات القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، فى ضوء العلم الحديث ، لأن القرآن والحديث النبوى أسمى من كل علومنا ، ولأن علومنا مهما تقدمت فستظل قاصرة عن فهم ما فى كلمات الوحي الإلهى من حقائق علمية ، لأنه لا يحيط بها إلا الله تعالى . . وقالوا : قد تفسر آية تفسيراً علمياً بنظرية علمية ، ثم يأتى العلم بعد ذلك ويثبت خطأ تلك النظرية ، فنكون بذلك قد فسرنا القرآن تفسيراً خاطئاً ، أو حملنا كلمات الله تعالى ومعانيها أخطاءنا وجهلنا ، وأسأنا بذلك إلى القرآن الكريم ، وقالوا إنه بناء على ذلك يجب غلق باب الحديث عن الإعجاز العلمى حتى يظل القرآن الكريم فى موضعه من القدسية وتظل علومنا بعيدة عنه تتأرجح بين الخطأ والصواب .

وأغلب الظن أن هذا رأى ينبع من قلب غيور على القرآن والسنة يخشى أن تكثر التفاسير وتختلف الآراء فيكثر الخطأ فى الفهم ، وبذلك نحمل القرآن والحديث النبوى ما هما بريئان منه ، وهذا رأى له وجهاته ويجب أن يوضع فى الاعتبار ، وهو رأى مفيد لنا نحن رجال الإعجاز العلمى للقرآن والسنة ، لأن هذا يحتم علينا أن ننتبه جيداً إلى أنه لا ينبغى أن يدخل ميدان الإعجاز العلمى للقرآن والسنة إلا العالم المؤهل له ، أما الذى لم يصل إلى مستوى يؤهله لذلك ، فيجب أن يكف عما هو فيه ، ويعكف على مزيد من الدراسة حتى يصل مستقبلاً إلى المستوى المطلوب ، فيتكلم كلاماً صحيحاً ومفيداً .

إن المعارضين لبيان الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة لهم وجهة نظرهم التى ذكرناها ، إلا أن المسألة ليست بهذه البساطة والسطحية ، لأننا إذا تعمقنا فى التفكير قليلاً لوجدنا أن دعوة هؤلاء تخدم أعداء القرآن أكثر مما تخدم القرآن نفسه ، ويصدق فيهم المثل الذى يقول : (عدو عاقل خير من صديق جاهل) . إن دعوى هؤلاء لم تظهر إلا فى عصر العلم الحالى ، ولذلك أسباب ما كان يجب أن تخفى على أحد ، ومن العجيب أن تلك الأسباب - وقد خفيت عن بعض المفكرين المسلمين - لم تخف عن بعض المفكرين غير المسلمين ، فهذا الدكتور موريس بوكاي المتوفى سنة ١٩٤٤ ألف كتاباً عنوانه «دراسة الكتب السماوية فى ضوء المعارف الحديثة» ، واستعرض فيه ما جاء بالكتب الدينية «القرآن والإنجيل والتوراة» ، وناقشها مناقشة علمية موضوعية ، وبما قال فى كتابه : «إن تطور العلم كشف للمفكرين - يقصد المفكرين فى العالم الغربى - عن وجود تعارض بين ما جاء فى نصوص العهد القديم - يقصد تراجم التوراة - وبين حقائق العلم المكتشفة حديثاً ، ولقد خلق ذلك وضعاً خطيراً للغاية جعل مفسرى العهد القديم يناصبون التفسير العلمى للقرآن الكريم وبيان الإعجاز العلمى فيه - العداء ، إذ لا يمكنهم أن يقبلوا أن يعلن للجميع أن كتبهم تنص على أخطاء علمية فى الوقت الذى ظهر فيه أن القرآن ذكر حقائق علمية كثيرة جداً خلافاً لقلتها فى التوراة - يقصد ترجمة التوراة - ومع ذلك لم يحدث قط أى تناقض بين ما جاء بالقرآن وبين الحقائق العلمية الثابتة المكتشفة حديثاً» .

هذا ما قرره عالم غير مسلم وشرح فيه أبعاد المشكلة ، فماذا فعل أعداء الإسلام لإخفاء نور العلم فى القرآن الكريم ، ولصرف أنظار الناس فى عصر العلم الحالى عن الأخطاء العلمية فى كتبهم؟ لما كان الخطر يأتى على كتبهم من باب دراسة الإعجاز العلمى أو التفسير العلمى فقد وجدوا أنه لا بد من قفل هذا الباب نهائياً ، فماذا فعلوا؟ إنهم أوعزوا للمفكرين المسلمين بدعوى ظاهرها البراءة وباطنها الخبث والخداع ، ألا وهى : أن القرآن كتاب مقدس ولا يجب أن تتناول عليه علوم البشر ونظريات علومهم التى تخطئ فى كثير من الأحوال ، وأن القرآن والكتب الدينية جميعاً

شئ وعلوم البشر شئ آخر ، ولكل مجاله . وبذلك ضربوا عصفورين بحجر واحد ، للأسف خدع بعض المفكرين المسلمين بهذه الدعوى ، وانطلت عليهم الحيلة ، وكأن علوم البشر كلها نظريات ، خالية من الحقائق العلمية الثابتة ، واقتنعوا بهذه الآراء الضالة وراحوا يدعون إليها ظناً منهم أنهم يدافعون عن القرآن ، وما علموا أنهم بذلك يخدمون أعداء القرآن ويخفون نور القرآن العظيم ، ويصدق فيهم كما سبق أن قلنا عنهم «عدو عاقل خير من صديق جاهل» . إن ما توصل إليه د . موريس بوكاي وهو غير مسلم من دراسته المتعمقة هو خير دفاع عن القرآن ، وخير برهان على أن الإسلام هو الدين الحق ، وهو خير ألف مرة في خدمة القرآن من جهود المعترضين على بيان الإعجاز العلمي للقرآن والسنة . . إن الأدلة الإيمانية على صدق الرسالة والرسول أدلة لا يقتنع بها إلا المسلمون . . أما غير المسلمين فهم يهزأون منها ويسخرون ، فهي سلاح مفلول ، وسيف من خشب ، في حرب ضروس لا قيمة لها في مجال الدفاع عن القرآن أمام غير المسلمين . ولن نتغلب على هجومهم على الرسالة والرسول إلا ببيان الإعجاز العلمي الذي يخاطب العقل بأدلة علمية ثابتة ، لا يملك المخاطب بها إلا أن يسلم بها .

الإعجاز العلمي لغة العصر

إن بيان الإعجاز العلمي هو اللغة الوحيدة التي يفهمها ويقتنع بها غير المسلمين ، لذلك فإن دعوى الابتعاد عن التفسير العلمي لبعض ما جاء بالقرآن والسنة اعتماداً على حقائق العلم الثابتة والمكتشفة حديثاً دعوى يطرب لها أعداء الإسلام وتنزل على قلوب الملحددين برداً وسلاماً .

إن الإمام محمد عبده ، وهو من أكبر علماء الدين في القرن العشرين ، قد فسر بعض الإشارات العلمية القرآنية تفسيراً علمياً يعتمد على الحقائق العلمية الثابتة المكتشفة حديثاً . فمثلاً فسر قول الله عز وجل : ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ (سورة الشمس : ٥) - بناء على القوانين العلمية في الجاذبية العامة التي اكتشفها نيوتن . وكذلك المفكر الإسلامي وحيد الدين خان قدم دراسة علمية لبعض الإشارات العلمية القرآنية ، اعتماداً على الحقائق العلمية التي اكتشفت حديثاً في كتابه «الإسلام يتحدى» ، ويتضح من عنوان الكتاب أن الهدف كان التفسير العلمي وبيان الإعجاز العلمي لبعض الآيات القرآنية ، مما يعد تحدياً لأعداء الإسلام ولم يستطع أحد منهم أن يدخل معه في جدال .

والشيخ أبو الأعلى المودودي ، وهو عالم من أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحالي ، دخل ميدان التفسير العلمي لبعض آيات القرآن الكريم ، وأبلى في ذلك بلاء حسناً ، والدكتور محمد الغمراوي وكان أستاذاً في الصيدلة إلا أنه كان عالماً موسوعياً ، وكان من رواد بيان الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ، وصال فيه وجال على أساس المنهج العلمي الصحيح ، ونجد ذلك في مقالاته في كتاب «الإسلام في عصر العلم» .

إن أعداء القرآن ظلوا يهاجمونه ، من نزوله على سيدنا رسول الله ﷺ وحتى يومنا هذا ، يريدون أن يطفئوا نور القرآن بأفواههم ، ويزعمون أن القرآن ليس من عند الله وأن النبي محمداً ﷺ قد كتبه نقلاً عن الكتب الدينية السابقة ، ونقلاً عما كان يتناقله أحبار اليهود ، وفي ذلك يقول الله عز وجل : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً﴾ * وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (الفرقان : ٤ - ٦) .

وما كان أحد من علماء المسلمين يستطيع الرد على هذه الدعاوى الباطلة ردًا مفحّمًا قبل عصر العلم الحالى ، إلى أن أظهر الله تعالى لنا وأرانا آياته فى الأفاق وفى أنفسنا . وباستخدام التقدم العلمى فى مختلف فروع العلم ووضعها فى خدمة التفسير ، ثبت بالدليل العلمى القاطع أن ما جاء به الوحي الإلهى فى القرآن والسنة هو الحق ، وأن ما جاء فى تراجم كتبهم لم يكن حقًا ، هنالك سكّت أعداء الإسلام وصمتوا فقد أفحمتهم الحجة العلمية وأسكتهم الدليل العلمى الثابت ، وراحوا ينفثون سمومهم الفكرية فى عقول بعض علماء المسلمين بوجوب الابتعاد عن الإعجاز العلمى للقرآن والسنة ، وحدث أن استجاب لهم بعض علماء المسلمين وراحوا يرددون ذلك ، كما يردد البغاء الذى عقله فى أذنيه .

إن الإعجاز العلمى هو السلاح الوحيد الذى يدافع به المسلمون عن القرآن والسنة أمام غير المسلمين ، وهو اللغة الوحيدة التى يمكن أن يقتنع بها من فى قلبه شك ، وهى اللغة الوحيدة التى فهمها الناس فى العالم الغربى اليوم من أهل العقائد الأخرى ، فابتدأوا يدخلون الإسلام زرافات ووحدانًا .

ومن هنا نفهم أن بيان الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة قضية ملحة فى عصرنا الحالى . ونقول كما قال الدكتور محمد الغمراوى رحمه الله : «إن بيان الإعجاز العلمى فى القرآن يعجز الإلحاد أن يجد موضعًا للتشكيك فى القرآن إلا أن يتبرأ من العقل ، فإن الحقيقة العلمية والتى لم تكتشف إلا حديثًا والتى جاء ذكرها فى القرآن لا بد أن تقوم عند كل ذى عقل دليلاً محسوسًا على أن خالق هذه الحقيقة الكونية هو منزل هذا القرآن على عبده ورسوله» .

قواعد وضوابط المنهج الصحيح لدراسة الإعجاز العلمى :

ما من شك فى أن كثيرًا من المفكرين دخلوا ميدان الإعجاز العلمى فى عصرنا الحاضر وأوغلوا فيه ، ولا ننكر على المؤهلين منهم أن يفعلوا ذلك ، ولكننا ننكره على الكثيرين منهم الذين ليسوا على علم يؤهلهم للاجتهاد فى هذا المجال ، فالكثيرون منهم لم يفهموا بعد أبجديات المنهج العلمى للبحث فى الإعجاز العلمى كما أنهم ليسوا على مستوى من العلم يعينهم على ذلك ، وما من شك فى أن هذه النسبة الغالبة ممن يتحدثون أو يكتبون فى الإعجاز العلمى بجهل وإسراف هم من الأسباب الرئيسية التى دفعت بعض المفكرين المسلمين إلى القول بالكف عن الحديث فى الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة .

إن هناك شروطاً وضوابط لا بد من توافرها حتى تكون الدراسة فى مجال الإعجاز العلمى دراسة علمية مقبولة وهى كالتالى :

١- التفسير القرآنى للقرآن :

من المعلوم لدى العلماء أن القرآن يفسر بعضه بعضًا ، فما أجمل فى موضع ، فصل فى موضع آخر ، وما نزل من الآيات متأخرًا مبنى فى معناه على ما نزل منها متقدمًا ، وبالتالي يجب ألا يتعارض التفسير العلمى لنص قرآنى مع مضمون نص قرآنى آخر .

٢- الرجوع إلى المأثور عن الرسول :

يقول رسول الله ﷺ فى حديثه الصحيح : «لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته يأتيه الأمر من أمرى ، مما أمرت به أو نهيت عنه ، فيقول : لا ندرى ، ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه» . ورواية أخرى : «يوشك أحدكم أن يكذبنى وهو متكئ على أريكته يحدث بحديثى فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من

حلال استحلالناه وما وجدنا فيه من حرام حرمانه ، ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله . وهو ترهيب شديد لمن يتركون الصحيح من حديث رسول الله ﷺ دون الاستعانة به فى تفسير القرآن ، أو معالجة كلماته أو شرح معانيه وتوسيع مدلولات آياته . . فإذا كان القرآن مجملًا فى مسألة فالسنة مفصلة فيها ، وإذا كان القرآن موجزًا فى أمر من الأمور فالسنة شرح له ، ومن هنا وجب على الباحث فى الإعجاز العلمى لآيات القرآن الكونية أن يأخذ بصحيح المنقول عن النبى ﷺ ، ثم يرجع بعده إلى الأقوال المأثورة عن الصحابة رضوان الله عليهم ، لأن أقوالهم بمنزلة المرفوع إلى رسوله ، وخصوصًا الأقوال الموثقة . وبعد ذلك يأخذ الباحث بالمفهوم والتأويل والاجتهاد بالرأى ، ويشترط للرأى هنا أصل معتمد من قواعد الشرع ، لأن الرسول ﷺ يقول : «من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار» .

٣. الاستئناس بالتفسير المعتمدة؛

ينبغى على الباحث فى الإعجاز العلمى أن يرجع رجوعًا متأنيًا إلى كتب التفسير المعتمدة ، على أن يتخير منها ما أجمع العلماء أو يكادون يجمعون على قوته ، وخلوه من الإسرائيليات والموضوعات والمدسوسات والخرافات التى أدخلت فى بعض التفاسير .

٤. الإلمام بعلوم مساعدة؛

لابد للذى يتحدث فى الإعجاز العلمى للقرآن الكريم أن يكون أولاً متمكنًا من العلم «أو العلوم» الذى يتحدث فيه ، ثم يكون ثانيًا ملماً بعلوم اللغة العربية ، حتى يمكنه فهم معانى الكلمات القرآنية التى يبحث فى دلالاتها العلمية ، ولا يتأتى له هذا إلا إذا تسلم بعلوم النحو والصرف والاشتقاق والبلاغة من معان وبيان وبديع ، وأن يكون ملماً بالقدر الضرورى من علوم القرآن الأخرى .

٥. التثبت من حقائق المعطيات العلمية بالتفسير العلمى؛

لا ينبغى لأى عالم من علماء الدين أو من علماء اللغة بكل فروعها أن يحاول التحدث فى الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة ، إذا لم يكن دارسًا للعلوم التجريبية ، والمنهج العلمى للبحث فى الإعجاز العلمى ، كما لا ينبغى له أن يدخل ميدان الإعجاز العلمى إذا لم يكن دارسًا لعلوم اللغة وعلوم القرآن والسنة والتفسير . . إلخ ، كما لا ينبغى أن يقحم فيه بمناسبة وبغير مناسبة بعض الآيات القرآنية دون مناقشتها لغويًا ودون البحث فى علاقتها الوثيقة بالحقائق العلمية موضوع البحث .

وبما سبق يتضح للعلماء أنه لا ينبغى أن يدخل ميدان الإعجاز العلمى إلا من كان من أهل الاختصاص ، الذى بلغ مستوى جيدًا فى العلوم القرآنية والعلوم اللغوية وعلوم السنة والتفسير والعلوم التجريبية فى فروع العلم المتعددة ، بمعنى أن يكون عالمًا موسوعيًا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، وإذا لم يكن كذلك فأحرى به ألا يدخل ميدانًا يكون فيه كالأمى الذى يصر على أن يلقى محاضرة فى مدرسة .

٦. مراعاة تعدد اللفظة القرآنية؛

ينبغى أن يخضع الباحث فى بيان الإعجاز العلمى لدلالات اللغة العربية وقواعدها ، إذ إن من أهم سمات اللغة العربية - وهى لغة القرآن - ثراءها فى الألفاظ والمترادفات وفنون البيان والبديع والبلاغة ، ومن خصائصها تعدد مدلولات اللفظ الواحد وكثرة معانيه ، ولهذا فإذا أخذ أحد من علماء السلف بمعنى معين ، فلا ضير على أحد من

العلماء المحدثين أن يأخذ بمعنى آخر ، يقصد به تعميق مفهوم اللفظ ، وبالتالي الآية التي ذكر بها ، كما يراعى أن تكون لغويات الآية محل الدراسة وفقاً للمعجم اللغوي للعربية وقت تنزيل القرآن ، وليس وفقاً لما طرأ على معانى الألفاظ من تغيير عند الناس بمرور الزمان ، وبعبارة أخرى يجب أن يكون معنى اللفظة القرآنية من المعانى الأصلية لها .

٧. محدودية علوم البشر في جميع العصور:

ينبغي على الباحثين ألا يعتقدوا سباقاً بين آيات القرآن والأحاديث النبوية وبين علوم البشر وكشفهم العلمية ، ذلك لأن ما ذكره القرآن والحديث النبوي إنما هو حقائق كلية مطلقة ، وأما علوم البشر وكشفهم فلا تعدو أن تكون لمحات يسيرة من علم الله الشامل الكامل ، ولقد بعث رسول الله ﷺ لهداية البشر جميعهم ، ويقوم بهذه المهمة من بعده ورثته من العلماء الأجلاء على مر الزمان ، ولكن تبقى مهمة إظهار الجوانب العلمية للآيات الكونية مسئولية أولى العزم من العلماء المسلمين ، ويجب تأكيد أن التفسير اجتهاد بشري ، وأن المفسرين بشر ولذلك فهم عرضة للخطأ والصواب . كما يجب تأكيد ألا يكون كل استشهاد بالعلوم الحديثة أو الاستعانة بها بصيغة الجزم أو الحصر ، إلا ما وافق القرآن وصحيح الحديث النبوي من حق ويقين ، وفيما عدا ذلك ينبغي أن يكون بصيغة الاحتمال أو الاستنباط أو الترجيح ، وذلك لأنه لا يعلم مراد الله في كلامه على الوجه الحقيقي إلا الله عز وجل . ولذا ينبغي عدم محاولة إخضاع النص القرآني لمعطيات العلوم الحديثة ، أو لى أعناق الآيات لتتوافق مع هذه المعطيات العلمية ، وأخرى بأى عالم مهما بلغ علمه ، وهو يحاول أن يتفهم بعض المعانى فى آية أو حديث ، أن يسكت فيما لا علم له به ، لأن الوحي الإلهي فى القرآن والسنة كما نزل يخاطب العصور القديمة وعصرنا الحاضر ، فإنه يخاطب العصور المستقبلية أيضاً بما يفهمون ، وقد لا نكون نحن كعلماء على مستوى فهم الخطاب القرآني أو النبوي للعصور المستقبلية وإلى يوم القيامة ، ونذكر قول الله عز وجل فى سورة المائدة (١٠١) : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدِّلَكُمْ تَسْؤُكُمْ ﴾ .

٨. مراعاة ارتباط كلمات الآية جميعاً فى المعنى وارتباط الآيات ببعضها البعض وتعدد مواضع الإشارة العلمية فى العديد من الآيات القرآنية:

كلمات الآية القرآنية مترابطة المعانى ترابطاً تاماً ، فلا بد من الانتباه إلى ذلك ، ومن الخطأ الجسيم أن ننتزع من الآية كلمتين أو ثلاثاً أو أكثر ، ونتحدث عما فيها من إعجاز علمي ، ونتجاهل باقى كلمات الآية المرتبطة بها ترابطاً تاماً فى المعنى ، ومثال ذلك آية سورة الحديد (٢٥) التى سبق ذكرها فى هذا البحث ، وآية سورة الأنبياء (٤٤) ، ينتزع بعض الكلمات من الآية ﴿ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ ، ولا ينتبه إلى ترابط المعنى فى كلمات الآية ككل ، لذلك يقع الكثيرون فى خطأ فادح فى بيان الإعجاز العلمى فى الآية ، إذ يتحدثون عن قياسات أقطار الكرة الأرضية طولاً وعرضاً ، ويؤكدون اختلافها ، وهو كلام لا صلة له بمعنى كلمات الآية الكريمة كلها من قريب أو من بعيد .

٩. التزام شروط التأويل:

ذكرت الحقائق العلمية لمختلف فروع العلم فى القرآن الكريم ، على الحقيقة تارة وعلى المجاز تارة أخرى ، ولذلك يجب أن يفسر اللفظ فى النص القرآني على ظاهره ما لم يكن فى النص قرينة تدل على المجاز ، أو كان المعنى

يستعصى فهمه على ظاهر اللفظ ، ومخالفة هذه القاعدة أو عدم الانتباه لها يؤدي إلى الوقوع فى كثير من الأخطاء فى الفهم والتفسير ، كما يجب مراعاة أسماء العهد وأسماء الجنس التى تذكر فى الآية القرآنية أو الحديث النبوى .

اسم العهد : هو اسم للشئ الذى نعهد ونعرفه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ . والشمس والقمر فى الآية أسماء عهد ، فهى للشمس التى نعدها ونعرفها ، ولقمر الأرض الذى نعده .

اسم الجنس : فهو اسم لشئ من جنس الشئ الذى نعده ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ . القمر والشمس اسما جنس ، وتعنى الأقمار الكثيرة والشموس العديدة فى السماوات السبع ، والتى هى من جنس القمر والشمس اللذين نعدهما ونعرفهما فى الأرض .

ولماذا ذكرت أسماء الجنس؟ قد يكون ذلك لأن الناس قديماً اعتقدوا أن فى السماء قمراً واحداً وشمساً واحدة ، ولو أخبرهم بوجود أقمار كثيرة أخرى وشموس عديدة فى السماوات ما صدقوا ، ولأثر عدم تصديقهم لذلك على تصديق الرسالة ككل .

١٠ . الموضوعية :

ينبغى أن يتحاشى القائم بالتفسير العلمى للآية القرآنية أو للحديث النبوى العموميات ، وعليه الالتزام بالدقة العلمية والدخول إلى لب التفسير مباشرة ودون حشو أو إطناب ، وبأسلوب واضح وفى إيجاز لا يخل بجلال الإشارة وأهميتها ، وبأسلوب سهل على المتلقى أن يفهمه دون عناء ، كما يجب عدم حشد الآيات القرآنية فى مواضع مختلفة من أحد الموضوعات العلمية ، دون شرح مفصل لكلماتها ودون مناقشة الارتباط بين كلمات الآية الكريمة بالحقيقة العلمية الواردة بها ، وهذا خطأ شائع يجب تجنبه .

١١ . هيمنة القرآن الكريم :

القرآن الكريم مهيمن على الكتب السابقة ، ولا يجوز الاعتماد فى تفسيره على ما ورد فى تراجم العهد القديم أو أسفار السابقين .

فى كلمات القرآن الكريم والحديث النبوى أعماق علمية لا يصل إلى فهم ملامحها فهماً صحيحاً إلا فريق متكامل من العلماء المتخصصين ، فإن بيان الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة ليس بالأمر السهل الذى يظنه البعض ، وكلما ازداد العلماء تعمقاً فى محاولة فهم النص القرآنى أو النص النبوى وصلوا إلى نور جديد ، ولن يصل العلماء إلى كل ما فى النص من علم ، لأن علم الله تعالى لا يحيط به سواه . . فإن علم الله تعالى فى كلمة واحدة من كلماته أكبر من علوم الناس جميعاً فى مختلف فروع العلم كلها ، وبغير حدود ، إلا أن الله تعالى وعد عباده بأن يبين لهم من الآيات الكونية ما يشاء أن يبينه لهم ، ويعطيهم شيئاً من العلم فيها ، قال الله تعالى فى سورة القيامة (١٨ ، ١٩) : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ . وقال الله تعالى أيضاً فى سورة فصلت (٥٣) : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ .

الحديث النبوي وحى الله تعالى لرسوله الذى قاله بكلام النبوة الذى خصه الله تعالى به ، كما قال ﷺ : «أوتيت جوامع الكلم» . وفى رواية : «أعطيت» . وقوله ﷺ «إلا إني أوتيت القرآن ومثله معه» . . وكلام النبوة الذى خصّ الله تعالى به رسوله ليس مثل كلام باقى البشر . ولقد بالغ العرب فى إجادتهم للغة العربية بما فطروا عليه من فصاحة وبلاغة ، فكان منهم أبلغ الشعراء وأفصح الأدباء ، إلا أن إجادتهم للغة لم تكن تسلم من بعض العيوب حيناً ، أو تخلو من بعض الأخطاء حيناً آخر ، وكان لا يخلو كلام الكثيرين منهم من كلمات كان غيرها أبلغ منها وأنسب ، أو المبالغة فى تزيين الكلام أو تنميق القول .

وكان ذلك لا يقلل من فصاحتهم بين الناس . فكلام الناس مهما علا فى البلاغة والفصاحة لا يخلو من خطأ ، ولا يسلم من عيب . والعرب كانوا من أفصح الأمم لساناً ، ومن أقدر الشعوب إجادة للغة . وبعث الله تعالى النبى محمداً رسوله للعالمين ، وكان من أمة العرب ، أفصح الأمم ، فآلهم الله تعالى رسوله ، الكلام الذى هو فى قمة الفصاحة ، وأعلى درجات البلاغة ، والذى كان خالياً من أى خطأ ، سليماً من أى عيب بما يعجز عن أن يأتى بمثله أفصح فصحاء العرب .

فلا يوجد فى الأحاديث النبوية إطناب فى موضع يكون فيه الإيجاز أفضل ، أو إيجاز فى موضع يكون فيه الإطناب أبلغ . كما لا نجد فى الأحاديث النبوية تكلفاً فى الكلام أو حشوً يزيد عن القدر المناسب لتصوير المعنى المراد . فهو فى قول محكم يعلو على كلام غيره من الناس ولا يُعلى عليه .

والدارس للحديث النبوي يجد أنه مبنى على ثلاثة أسس : الخلوص والقصد والاستيفاء .

الخلوص : أعلى درجات البلاغة وأتم درجات الفصاحة التى انفرد بها رسول الله ﷺ دون فصحاء العرب جميعاً ، فكان أعلمهم جميعاً بأسرار اللغة وضعاً وتركيباً ، وأعلم بلهجات العرب ، وأعرفهم بالغريب من الكلمات والمهجور منها ، ولم يلحق بكلامه أى نقص ، ولم يوجد فى أسلوبه أى زلل . بل كان فى قمة الفصاحة والبلاغة والبيان ، ولم يبلغ هذه الدرجة أحد من الفصحاء .

القصد : هو الإيجاز بغير نقص فى تصوير المعنى .

الاستيفاء : وهو خروج اللفظ مبسوط المعنى بغير نقص ، وتركيب الألفاظ قليلة العدد على وجه تقتضيه طبيعة المعنى ، بدون زيادة وبدون نقصان .

وقد جمع الحديث النبوي كل هذه الأسس ، فكان مبرراً من التعقيد ، ومنزهاً عن الخطأ . لذلك نجد جوامع الكلم فى الحديث النبوي والإعجاز فى التركيب البياني .

وقد صيغ الأسلوب اللغوي فى الحديث النبوي صياغة معجزة ، تجعل الناس فى كل عصر من العصور يفهمون منه جانباً من العلم يكفيهم . وكلما تقدم العلم البشرى وجد الناس فى الأحاديث النبوية جوانب أخرى من العلم لم يدركها الذين سبقوا . ويظل الحديث النبوي ثابتاً فى كلماته ، معطاءً فى معانيه ، كالبحر الزاخر لا تنتهى معانيه ولا تنفذ مقاصده ، ولا ينقطع عطاؤه . . فهو رسالة من النبى ﷺ للناس جميعاً منذ بعث وإلى أن تنتهى الأرض وما عليها .

ولاشك أن فصاحة النبى ﷺ كانت توفيقاً من الله تعالى له وتوقيفاً . . ومن المعروف أنه ﷺ لم تُتح له فرصة التعلم عن أحياء العرب ، أو تلقين الفصاحة عن قبائلهم ، أو تعرّف لهجاتهم . . ولم يكن يعرف القراءة والكتابة . . ومع ذلك كان أعلى الناس فصاحة ، وأكبرهم بلاغة ، وأكثرهم علماً ، وأعلمهم بلهجات العرب فى

شتى ربوع الجزيرة العربية ، مما يؤكد أن أحاديث النبی كانت وحياً من الله تعالى له ، أو إلهاماً خصه الله تعالى به دون سائر البشر .

ويختلف أسلوب كل إنسان في كلامه ، باختلاف حالته النفسية والصحية ، فحديث إنسان هادئ النفس ، غير حديثه هو نفسه وهو منفعل وغضبان ، وأسلوبه وهو حزين غير أسلوبه هو نفسه وهو فرح ، وأسلوبه وهو مريض البدن غير أسلوبه وهو صحيح البدن ، فالأسلوب في كلام أى إنسان يختلف باختلاف حالته الصحية والنفسية . ولكن أحاديث رسول الله ﷺ لا تختلف أبداً ولا يتباين مستواها البلاغى فى الصحة والمرض ، وأثناء الرضا والغضب ، ولقد كان رسول الله ﷺ بشراً يتعرض بدنه الشريف للصحة والمرض ، ونفسيته للرضا والغضب ، والفرح والحزن ، وكان فى جميع هذه الأحوال فى قمة البلاغة والفصاحة ، يخرج من شفتيه الشريفتين كلامه رصيناً منسقاً ، محبوبك اللفظ ، جيد السبك ، ثابت الرصانة .

وإذا قارنا بين بلاغة الحديث النبوى ومثلها من القرآن لرأيت الفرق بينهما واضحاً . . فبلاغة الحديث النبوى بلاغة بشرية ، تخرج منخرج فصحاء العرب ، إلا أنه أفصحهم جميعاً بحيث لا يجاريه فى فصاحته أحد ، إلا أننا نحس أنه صادر من بشر ، أما الأسلوب البلاغى فى القرآن فنحس أنه إعجاز إلهى لا يقدر عليه البشر .

ونضرب أمثلة قليلة من كلام رسول الله ﷺ الذى يتصف بكل ما ذكرنا : قال ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى» . وقوله ﷺ : «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابها» . وقوله ﷺ : «كل مسكر خمر وكل خمر حرام» . وقوله لسيدنا حمزة - رضى الله عنه - لما سأله : اجعلنى على شىء أعيش به . قال له ﷺ : «يا حمزة نفس تحيها أحب إليك أم نفس تميتها؟» . قال حمزة : بل نفس أحييها . قال ﷺ : «عليك بنفسك» .

وأخرج الإمام أحمد فى المسند عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ قال :

«إماطتك الأذى عن الطريق صدقة ، وتسليمك على الناس صدقة ، وأمرك بالمعروف صدقة ، ونهيك عن المنكر صدقة ، ومباضعتك أهلك صدقة» . قال : قلنا : يا رسول الله ، أيقضى الرجل شهوته وتكون له صدقة؟ قال : «نعم ، رأييت لو جعل تلك الشهوة فيما حرم الله عليه ، ألم يكن عليه وزر؟» . قال : قلنا : بلى . قال : «فإنه إن وضعها فيما أحل الله له فهى صدقة» . وأتاه رجل من الأعراب وقال : يا رسول الله ، علمنى كلمات أعيش بهن ولا تكثر على فأنسى . فقال رسول الله ﷺ «لا تغضب» . . ففكر الرجل ساعة فوجد أن الغضب يجمع الشر كله .

وأمر رسول الله ﷺ المسلمين بالسلام على إخوانهم ، وأن يردوا عليهم : (وعليكم السلام ورحمة الله) . فكان اليهود يرون على المسلمين ويقولون لهم : السام عليكم (والسام أى السخط والعذاب) . فأخبروا رسول الله ﷺ بذلك وسألوه بماذا يردون عليهم قال : «إذا قالوا (السام عليكم) فقولوا لهم (وعليكم)» . وأخرج الإمام أحمد عن أبى بردة عن أبيه : أن اليهود كانوا يتعاطسون (أى يتظاهرون بالعطاس) عند رسول الله ﷺ رجاء أن يقول لهم (يرحمكم الله) فكان يقول لهم (يهديكم الله ويصلح بالكم) .

وكان النبى ﷺ يكره الإطالة فى الكلام بما يزيد عن مقدار القصد به . وقد تكلم رجل عنده فأطال ، فقال له : «كم دون لسانك من حجاب؟» . قال : شفتاى وأسنانى . فقال ﷺ : «إن الله يكره الإطالة فى الكلام ، فنضر الله وجه رجل أوجز فى كلامه واقتصر على حاجته» .

ولم يعرف لغير رسول الله ﷺ اجتماع الكلام وقلة الألفاظ ، مع اتساع معناه ، وإحكام أسلوبه ، من غير تعقيد ولا تكلف ، ولقد انفرد بكل هذه الخصائص دون الفصحاء والبلغاء ، وذهب بحاسنها فى العرب جميعاً ، وكأنا ملك زمام اللغة ، فكانت اللغة تكاشفه بأسرارها ، وتبادره بحقائقها وبلاغتها وبيانها .

وكان ﷺ طويل السكوت ، ولا يتكلم فى غير حاجة ، وإذا تكلم لا يسرد سرداً كسرد غيره من الناس ، بل إحكاماً وتفصيلاً وبياناً ، وجمع خصال إحكام الأداء ، حتى لو عدّ العادّ كلماته لأحصاها .

وقال رسول الله ﷺ : « لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحبني أكثر مما يحب نفسه وماله وأهله جميعاً » . فقال أبو بكر : « أشهد يا رسول الله إنى أحببك أكثر من حبنى لنفسى ومالى وأهلى جميعاً » ، فقال : « تم إيمانك يا أبا بكر » . وجاء عمر فقال يا رسول الله ، والله إنى أحببك أكثر مما أحب مالى وأهلى جميعاً ، أما أكثر من نفسى فهذا أمر لا أستطيعه . . فلم يرد عليه رسول الله ﷺ ، وفى اليوم التالى عاد عمر وقال فى مجلس رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، أشهد أنى أحببك أكثر من حبنى لنفسى ومالى وأهلى جميعاً . فقال النبى ﷺ له : « الآن يا عمر » . . كلمة واحدة جمع فيها من المعانى ما يذكره الناس فى عشرات الكلمات .

وفى كلمات الحديث النبوى إحكام وتفصيل ، نذكر عن ذلك مثلاً الحديث الشريف : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

نلاحظ فى الحديث الشريف إحكام الكلمات وتفصيلها ، قال : « فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم » . لأنه لا تراحم بين الناس بغير ود ، ولا تعاطف بينهم بغير تراحم . ونجد نفس الإحكام والتفصيل فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم : ٢١) .

إنه نفس الترتيب : الود ثم الرحمة فى الحديث النبوى الشريف .

وسئل : أينام أهل الجنة يا رسول الله ؟! . لم يقل : لا ينام أهل الجنة . ولكنه ذكر الحقيقة مدعومة بالدليل الثابت عليها ، وبذلك يقنع السامع بما يعرف السامع ، قال ﷺ : « النوم أخو الموت ، والجنة لا موت فيها » .

ومهما تحدثنا عن بلاغة رسول الله ﷺ فلن نستطيع الكلام إلا كمثّل قطرة من بحر ، إنها بلاغة لا تحد ، لذلك نحس بعجزنا عن الإحاطة به ، ونقف عند هذا الحد . والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ صلاة لا تنتهى حتى تبدأ ، وسلاماً إذا بدأ لا ينتهى .

٥ فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

كان رسول الله ﷺ أفصح العرب قاطبة ، مع أنهم أهل اللغة والفصاحة والبيان ، وقد كانوا يتكلفون القول ويقصدون تزيين الكلام ، أما رسول الله ﷺ فكان لا يتكلف القول ، ولا يقصد تزيين الكلام ولا يزيد به مقدار البلاغ فى المعنى المراد إبلاغه ، حتى أن المستمع له يدرك أن المعانى المقصودة من كلامه هى من إلهام النبوة ، أو قمة الحكمة إن لم يكن وحيّاً صريحاً من الله تعالى إليه .

وقال الجاحظ فى فصاحة رسول الله ﷺ * : كان الكلام فى الحديث النبوى ثقل عدد كلماته ، وتكثر عدد مقاصده ومعانيه ، يتنزه عن التكلف ، ويستعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصود فى موضع القصر ، ولا يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة وشُدّ بالتأييد ، ويُسّر بالتوفيق ، وهو كلام ألقى الله تعالى المحبة عليه ، وجعل فيه القبول ، وهو كلام جمع بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، فهو يبيد الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يستعمل لفظاً غريباً مهجوراً من اللغة ، ولا كلاماً من الهجين السوقى ،

* إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعى .

ولم تسقط له كلمة ولا زالت له قدم ولا أفحمه أحد ، وما قام له خصم ، وكان لا يقنع الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الظفر إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ولا يهمز ولا يلمز ، ولم يسمع الناس كلام إنسان أعم نفعاً ولا أصدق قولاً ، ولا أرق لفظاً ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح عن معناه ولا أبين عن فحواه ، من كلام رسول الله ﷺ .

ومن أمثله ذلك ما أخرجه الإمام مسلم عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ مر بالسوق فمر بجدي ميت ، فأمسك أذنه ثم قال : «أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟» .

فقالوا : ما نحب أنه لنا بشيء . فقال : «أتحبون أنه لكم ؟» .

قالوا : لا . فقال : «فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم» .

وأخرج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

«يقول العبد : مالى مالى . إنما له من ماله ثلاث ؛ ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فأقنى (أى

ادخر لآخرته) ، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركة للناس» .

أخرج ابن ماجه عن سهل بن سعد الساعدي قال :

أتى رسول الله ﷺ رجل فقال : يا رسول الله ، دلنى على عمل إذا عملته أحببني الله وأحبنى الناس .

فقال رسول الله ﷺ : «ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما فى أيدي الناس يحبك الناس» .

وأخرج ابن ماجه عن أبي هريرة ، قال ﷺ : «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس» .

وكانت هذه الفصاحة فى الكلام توفيقاً له ﷺ من الله وتوقيفاً ، وقد بعثه الله تعالى للعرب وللعالمين جميعاً ،

إلا أن العرب كانوا قوم الفصاحة والبلاغة ، ثم إنهم كانوا متفاوتين فى ذلك ، فكان منهم الفصيح والأفصح ،

ومنهم البليغ والأبلغ ، وقد تخصص بعض القبائل بأوضاع وصيغ مقصورة عليهم ، لا يشاركون فيها غيرهم من

العرب ، إلا من خالطهم وأخذ عنهم . والعجيب أن رسول الله ﷺ كان يعلم كل ذلك ، وكأنما أطلعت اللغة على

أسرارها ، وبادرت به بخفاياها ، فكان يخاطب كل قوم بلغتهم ، وبصيغ الكلام المقصورة عليهم ، ثم لا يكون إلا

أفصحهم جميعاً خطاباً ، وأبينهم عبارة ، ولم يُعرف ذلك لغيره من العرب ، ولا يتأتى ذلك إلا لرجل من العرب

بعد تعليم أو تلقين عن أحياء العرب حياً بعد حى ، وجماعة بعد جماعة ، حتى يطلع على لغاتهم ، إلا أن رسول

الله ﷺ لم يتهياً له كل ذلك ، كما لم يتهياً لأحد من قريش ذلك أيضاً .

ولقد كانت قريش أهل تجارة ، وكانوا يضربون فى الأرض ، ولهم رحلة الشتاء والصيف ، وقد كانت تتوافد

إليهم قبائل العرب فى مواسم معينة كل عام ، وتختلط بهم ويختلطون بهم كذلك ، خاصة فى عكاظ ، فلا بد أن

يكون فى ألسنتهم كثير من ألفاظ قبائل العرب المختلفة ، إلا أنهم ما كان فى استطاعتهم أن يخاطبوا كل قوم

بالغريب من لغتهم ، ولكن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك ، وكان أفصح الجميع لساناً ، ولا يمكن أن يكون ما

اختص به النبى ﷺ من ذلك إلا توفيقاً من الله تعالى وإلهاماً ، فقد علمه الله تعالى الكثير الكثير بما لم يكن

يعلم ، حتى جمع من العلم ما فاق به كل قبائل العرب ، فكان لا يعبأ بقوم وردوا عليه ، ولا يجهل شيئاً سألوه

عنه ، وكانت إجاباته لكل سؤال فى فصاحة عالية وبلاغة عظيمة .

أما فى لغة قريش التى هى أفصح لغات العرب وأشهرها ، فقد كان النبى ﷺ أفصح قريش لغة وفصاحة

وبياناً ، وقد نشأ النبى ﷺ فى أفصح القبائل وأعذبها بياناً ، فكان مولده فى بنى هاشم وأخواله فى بنى زهرة ،

ورضاعه فى سعد بن بكر ، منشؤه فى قريش ومعاهدته لبنى أسد ، وهجرته إلى بنى عمرو ، وهم الأوس والخزرج ،

وقال ﷺ : «أنا أفصح العرب ، بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد بن بكر» . ولقد أجمع الرواة على أن

بنى سعد بن بكر خصوا من بين قبائل العرب بالفصاحة وحسن البيان ، وفضلاً عن كل ذلك فإن الله عز وجل تعهد نبيه محمداً وأدبه وأحسن تأديبه ، ولم يكله إلى نفسه طرفة عين .

إحكام منطقه ﷺ

كان النبي ﷺ يستعمل جميع فمه في الكلام ، وكان ذلك يحقق الكمال في مخارج الحروف ، وفخامة الأداء ، ولا تتم فصاحة الكلام إلا بذلك ، إلا أنه ﷺ كان لا يتشدد بالكلام ، ففي الحديث الشريف : «أبغضكم إلى الثرثارون المتفيهقون» (أى المتشدقون) .

وقال قتادة : ما بعث الله نبياً إلا حسن الوجه حسن الصوت . وكان النبي محمد ﷺ حسن الوجه ، حسن الصوت ، وكان ذلك يُجَمِّلُ اللغة ، فاللغة العربية تُجَمِّلُ بجمال الصوت ، لما في كلمات اللغة من أجراس صوتية وأوضاع موسيقية في خفة الوزن ، مما يستلزم حسن الصوت .

وكان منطقه ﷺ على أتم ما يتفق في طبيعة اللغة ، وإتقان الأداء : لفظ مشبع ، ولسان سلس ، وتجديد فخم ، ومنطق عذب ، وفصاحة رائعة . وعن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسر دكم هذا (أى متابعة الكلام والاستعجال به) ، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل ، يحفظه من جلس إليه . وفي رواية أخرى قال : كان رسول الله ﷺ يحدث حديثاً لو عدَّ كلماته العادُّ لأحصاه .

ولا يمتنع أن يكون من فصحاء العرب من كان يشترك مع صفات منطقه ﷺ أو في بعضها ، وإنما انفرد رسول الله ﷺ في أنه منزّه عن النقص الذي يعتري الفصحاء أحياناً ، لأنها طبيعة فيه ، ولأن من ورائها تلك النفس العظيمة الكاملة الملهمة التي لم يصل إلى مستواها إنسان من قبل ولا من بعد .

وهذه خصوصية انفرد بها رسول الله ﷺ عن باقي البشر ، ففي بعض الناس بعض صفات الكمال الإنساني ، إلا أنها مجتمعة مع بعض صفات النقص ، إلا أن رسول الله ﷺ جمع كل صفات الكمال البشري ، وتنزه عن أى نقص بشري ، وهى صفات لم تجتمع في أى إنسان سواه :

وكان النبي ﷺ طويل السكوت ولا يتكلم أبداً في غير حاجة ، وإذا تكلم تكلم بجوامع الكلم ، ولم يسرد سرداً ، بل كان يفصل ويبين ، بحيث تخرج كل كلمة وعليها طابعها من المنطق النبوي ، وبذلك جمع رسول الله ﷺ خصالاً من إحكام الأداء لا يشاركه فيها منطق أحد ، ولا تجتمع في سواه .

اجتماع كلامه ﷺ وقلته :

كان إذا تكلم قل كلامه ، وخرج من شفتيه محيطاً بمعانيه ، حتى إن السامع لا يرى من الكلام ألفاظاً ، ولكن كما عظيماً من المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة ، وكان ﷺ متمكناً من هذه الدرجة العالية من البلاغة في الكلام ، لذلك كان يكره الإطالة في الكلام بما يزيد على المطلوب منه .

ولقد كثرت الكلمات التي انفرد بها رسول الله ﷺ دون سائر العرب ، وكثرت جوامع كلمه ، وخلص أسلوبه ، فلم يَقْصُرْ في شيء ، ولم يبالغ في شيء ، فوصل بذلك إلى كمال الفصاحة والبلاغة ، ما يعجز عنه أكبر فصحاء العرب .

ومن الإعجاز البلاغي في أسلوب الحديث النبوي اجتماع الكلام وقلة ألفاظه ، مع الاتساع في المعنى ، والإحكام في الأسلوب من غير تعقيد أو تكلف ، مع إظهار المعنى بكل أجزائه ، وذلك أسلوب عام في كل حديث نبوي شريف ، انفرد به دون سائر أحاديث البلغاء والفصحاء من العرب .

وكان هذا ما يعجب له أصحابه ، ويروونه قمة الإعجاز البلاغي لم يصل إليها إنسان ، حتى إن أبا بكر رضي

الله عنه قال له مرة : لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم ، فما سمعت أفصح منك ، فمن أدبك «أى علمك»؟ قال : «أدبني ربي فأحسن تأديبي» . وكان أبو بكر رضى الله عنه حجة في علم العرب وأنسابها وأخبارها ولغاتها وآثارها .

وكان ﷺ يعلم الناس الاستقصاء عن رغبة في العلم والحصول على المعرفة ، ومثال ذلك ما روى عن النبي ﷺ ، بينما هو جالس ذات يوم مع أصحابه إذ شاهدوا سحابة فقالوا : يا رسول الله هذه سحابة (ولعلمهم استبشروا بها) . فنظر إلى السحابة كما ينظرون فقال : «كيف ترون قواعدها؟» . (أى أسافلها) . قالوا : ما أحسنها وأشد تمكنها . قال : «وكيف ترون رجاها؟» (أى وسطها) . قالوا : ما أحسنها وأشد استدارتها . قال : «وكيف ترون بواسقها؟» . (أى أعاليها) . قالوا : ما أحسنها وأشد استقامتها . قال : «وكيف ترون برقها؟ أوميضاً أم خفياً أم يشق شقاً؟ (الوميض اللمع الخفى ، وخفياً - بسكون الفاء - أى ضعيفاً) قالوا : بل يشق شقاً (أى قوياً) ، قال : فكيف ترون جوفها؟ (أى سوادها) قالوا : ما أحسنه وما أشد سواده ، فقال ﷺ : «الحياء الحياء» . (والحياء هو المطر) ، وهكذا كان يعلم الناس الاستقصاء عن رغبة في العلم والحصول على المعرفة ، قالوا يا رسول الله : ما رأينا الذى هو أفصح منك . قال : «وما ينعنى من ذلك فإنما أنزل القرآن بلسانى ، لسان عربى مبين» .*

بيد أن رسول الله ﷺ لم يكن مقلداً في الكلام دائماً ، وإنما كان يطيل الكلام إذا استدعى الكلام ذلك ، وكان لا بد من الإطالة للشرح والتوضيح ، فقد روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ خطب بعد العصر فقال : «ألا إن الدنيا حلوة خضرة ، ألا وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، ألا لا ينعن رجلاً مخافة الناس أن يقول الحق إذا علمه» . قال أبو سعيد : ولم يزل يخطب حتى قارب غروب الشمس . بيد أن الإقلال كان الأعم الأغلب في كلامه ﷺ ، حتى أنه أمر بالإيجاز في الخطبة ، روى أبو الحسن قال : تكلم عمار بن ياسر يوماً فأوجز ، ف قيل له : لو زدتنا . قال : أمرنا رسول الله ﷺ بإطالة الصلاة وقصر الخطبة .

وجاء في الحديث النبوى الشريف : «نحن معاشر الأنبياء فينا بُكاء» . أى قلة في الكلام ، من بكأت الناقة أو الشاة إذا قل لبنها ، فقد جعل النبى ﷺ من صفة الأنبياء قلة الكلام ، وليس ذلك عن عجز في الإطالة ، أو قلة في الخواطر ، أو الجهل بمحاسن الألفاظ ، وإنما القليل من كلامهم فيه الكثير من المعانى ، وفيه الكثير من الإعجاز في البلاغة والبيان ، ولو أن أحداً من أعداء النبى ﷺ سمع طرفاً من العجز في التعبير اللغوى في الحديث النبوى لاحتج على الملاء ، ولتناجى به مع الناس ، ولتكلم فيه خطيبهم ، ولأذاع في ذلك شاعرهم ، وعُرف العرب بكثرة خطبائهم وتسرع شعرائهم .

وقال الله تعالى في نبيه ﷺ : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ . ثم قال تعالى في الشعراء (٢٢٥ ، ٢٢٦) : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ . فعمّ ولم يخصص ، وأطلق ولم يعين .

والشعراء يتكلفون الصنعة في الكلام ، ويميلون إلى المباهاة ، ويسعى الواحد منهم إلى أن يشتهر أنه من البلغاء ، ويهدف إلى الفخر والمدح لنفسه ، ولو لم يتحر الصدق فيما يقول ، ودليل ذلك أن معظم الشعراء كانوا يبالغون في مدح من أعطاهم ، ويبالغون في ذم من لم يعطهم ، ومن يفعل ذلك لا يكون بمنأى عن الكذب والزور ، لذلك نزه الله عز وجل رسوله محمداً ﷺ عن كل ذلك ، حتى إنه لم يعلمه القراءة والكتابة ، ولم يحببه في صنعة الكلام ، والتكلف لاستخراج المعانى ، فجعل باله وقلبه في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيل نشر الدعوة ، وكل ذلك في إخلاص تام لا يشوبه رياء ، وفى يقين لا يقاربه شك ، وفى بلاغة لا يلحق بها أبلغ البلغاء ولا أفصح الفصحاء .

* فقالوا : «ما رأينا الذى أفصح منك» تعبيرهم بكلمة «الذى» يدل على الاعتقاد الراسخ لديهم بأنه ليس له فى الفصاحة مثيل ، وأنه ليس فى العرب جميعاً واحد يحق أن يقال عنه «الذى» وأجمع علماء اللغة والبلاغة والبيان على أن النبى ﷺ أفصح من نطق بالعربية .

٦ الحمد لله

أخرج الإمام أحمد ، عن أنس أن النبي ﷺ كان إذا صعد أكمة أو نشراً قال : «اللهم لك الشرف على كل شرف ، ولك الحمد على كل حمد» .

أخرج الإمام أحمد ، عن عمرو بن أنس أن رسول الله ﷺ قال : «أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة وأعطى لواء الحمد .» إلخ الحديث الشريف .

أخرج الإمام أحمد ، عن أبي يحيى بن إسحق ، عن حماد بن سلمة ، عن أبي سنان قال : دفنت ابناً لي ، وإنني لفى القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة فأخرجني فقال : ألا أبشرك؟ قال : قلت : بلى . قال : حدثني الضحاك ، عن ابن عبد الرحمن بن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : «قال الله تعالى : يا ملك الموت قبضت ولد عبدى ، قبضت قرّة عينه وثمره فؤاده؟ قال : نعم . قال : فما قال؟ قال : حمدك واسترجع . قال : ابنوا له بيتاً فى الجنة وسموه بيت الحمد» .

أخرج الإمام أحمد ، عن أبي العلاء ، عن مطرف قال : قال لى عمران : إني لأحدثك بالحديث اليوم لينفعك الله عز وجل به بعد اليوم : اعلم أن خير عباد الله تبارك وتعالى يوم القيامة الحمادون . . إلى آخر الحديث .
أخرج الإمام مسلم ، عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال :
«الطهورُ شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملأان ما بين السماوات والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك . كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» .

أخرج الإمام مسلم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :
«لأن أقول (سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر) أحب إلى مما طلعت عليه الشمس» .
أخرج الإمام مسلم ، عن أبي زرعة ، عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ :
«كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله ويحمده ، سبحان الله العظيم» .

أخرج الإمام مسلم ، عن سَمُرَةَ بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ : «أحب الكلام إلى الله أربع : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، لا يضرك بأيهن بدأت» .
ذكرت جملة «الحمد لله» فى ثلاث عشرة آية فى القرآن الكريم ، واستهلكت بها خمس سور هي : الفاتحة والأنعام والكهف وفاطر وسبأ .

ونتساءل : هل «الشكر لله» أم «الحمد لله» أشمل؟ وما الفرق بين المدح والحمد والشكر؟
المدح أشمل من الحمد ، والحمد أعم من الشكر .
فالمدح يحصل للعاقل وغير العاقل ، كما نمدح بستاناً لجمال أشجاره وأزهاره ، ونمدح عالماً لغزارة علمه . أما الحمد فلا يكون إلا للذى يصدر منه الإنعام والإحسان . فالمدح أشمل من الحمد .
أما الشكر فهو تعبير لتعظيم الذى صدر منه إنعام على الشاكرين .
إذن فالمدح أشمل من الحمد ، والحمد أعم من الشكر .

والحمد فى اللغة : هو الثناء على الله تعالى من غير سَبَقٍ إحسان ، أما الشكر فهو الثناء على الله تعالى بما أعطى من إحسان . لذلك فكل حمد شكر . وليس كل شكر حمداً . لذلك قلنا إن الحمد أعم من الشكر .

وما هي بعض المعانى فى قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ :

الحمد هو الثناء على الله عز وجل ، المحمود لذاته ، ولجميل أفعاله ، ولجمال صفاته .

«الحمد لله» كأن الله تعالى يقول : سبق الحمد منى لنفسى ، قبل أن يحمدنى أحد من خلقى .

فقد سبق في علم الله تعالى عجز عباده عن القيام بواجب الحمد له ، لذلك حمد نفسه بنفسه أولاً .

والحمد هو الثناء على المحمود ، وهو الله تبارك وتعالى ، والعباد تعجز عن ذلك ، لذلك قال رسول الله ﷺ

يناجى ربه : «لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك» . وهذا تفسير لقوله تعالى : (الحمد لله) .

وإذا كان الله تعالى قد حمد نفسه بنفسه فقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ . فماذا نقول نحن؟

نقول أيضاً «الحمد لله» لأن المعنى : أنه حمد من الله عز وجل لنفسه ، ويتضمن أمراً منه لعباده بأن يثنوا عليه

بالحمد ، فينبغى أن نبتدئ كل كلام بالحمد لله نقول : «الحمد لله» . وفى حديث الدعاء نجد القول : «سبحانك

اللهم وبحمدك» ، أى أبتدئ بالحمد لك وبحمدك أسبح .

وجاء فى الأثر أن أول كلمة قالها آدم عليه السلام «الحمد لله» . وهذا أول ما ينطق أهل الجنة به ، كما قال الله

عز وجل عن أصحاب الجنة : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾

(الزمر : ٧٤) ، و«الحمد لله» آخر كلام فى دعاء أصحاب الجنة ، كما قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (يونس : ١٠) .

وما الفرق بين أن أقول : «الحمد لله» و«أحمد الله»؟

الفرق كبير . . ينبغى على العبد أن يقول «الحمد لله» ولا يقول «أحمد الله» .

١ - لأنه لو قال «أحمد الله» لدل هذا على أنه قادر على القيام بواجب الحمد لله تعالى . وهذا عليه محال . فأى

حمد من العبد لله تعالى أقل كثيراً مما يستحق الله تعالى وبغير حدود .

والأصح أن نقول «الحمد لله» لأننا بذلك نعتز بأن الحمد حق لله تعالى ، ونعترف باستحقاقه الكامل

له ، وبذلك نكون من الحامدين ، الذين يؤمنون بأن الله عز وجل محمود أولاً قبل حمد الحامدين ، وقبل

شكر الشاكرين .

٢ - الحمد لله : قول يدل على أن الله تعالى غنى عن حمد عباده لله . ولكن العباد ليسوا فى غنى عن حمدهم

لربهم تبارك وتعالى ، قدر استطاعتهم . فالذى يقول «الحمد لله» يكون قد فهم الحقيقة ، أما الذى يقول

«أحمد الله» فلا يكون فاهماً لها . . لماذا؟ لأنه بقوله «أحمد الله» قد كلف نفسه بما لا طاقة له بالقيام به ،

لأنه دخل ميداناً سيكون فيه مقصراً . فهو عاجز عن القيام بالحمد الذى يليق بالله عز وجل ، فلماذا يُحمل

نفسه بما يعجز عن القيام به؟ وحتى الشكر لله تعالى نقول «الشكر لله» ولا نقول «أشكر يا رب» لأن

الشكر لله تعالى يكون لما أعطى من نعمة ، ولما كانت نعم الله تعالى على عباده لا تُحصى ؛ ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا

نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ . فإن الإنسان يعجز عن القيام بشكر الله تعالى .

وجاء فى الأثر أن النبى داود عليه السلام قال :

«يارب ، كيف أشكرك وشكرى لك لا يتم إلا بإنعامك علىَّ بالقدرة على ذلك؟ فأوحى الله تعالى إليه :

«إنك بإقرارك بالعجز عن شكرى قد شكرتنى» .

و«الحمد لله» لا يكون بمجرد نطق اللسان به ، ولكن بأن يؤمن العبد يقيناً أيضاً بأن الله عز وجل هو المستحق

بالحمد ، لا مستحق بالحمد سواه ، وأنه تعالى هو الذى حمد نفسه بنفسه أولاً قبل أن يحمده أحد من خلقه .

٣ - «والحمد لله» تعبير لغوى معروف بأداة التعريف ، يفيد التخصيص ولا يفيد العموم . أى أنه ينفى أى حمد لغير الله تعالى ، فهو تعالى المحمود لا محمود سواه ، ولا يوجه الشناء لغيره ، كما قال سيدنا رسول الله ﷺ : «لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك» .

أما القول «أحمد الله» فلا يفيد التخصيص ، ولا ينفى أى حمد لغير الله تعالى .
لذلك لا ينبغي لأحد أن يقول : «أحمد الله تعالى» لأنه بقوله هذا لم ينف الحمد لغير الله ، ولأنه كلف نفسه بالقيام بواجب لا يستطيع القيام به ، لذلك استهلّت سورة الفاتحة بقوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .
وأمرنا الله تعالى أن نقرأها ونجربى الألسنة والقلوب بها ، ففيها إقرار بالحمد لله تعالى أزلاً ، وفيها أمرنا - نحن عباد الله - بأن نحمد الله على قدر استطاعتنا ، مع مراعاتنا لتخصيص الحمد له تعالى ، فنقول «الحمد لله» ولا نقول «أحمد الله» أو «أحمدك اللهم» .

و«الحمد لله» ثمانية حروف ، وأبواب الجنة ثمانية ، وقال أحد العارفين : من قال هذه الثمانية عن اعتقاد راسخ ، وعن قلب مفعم بالإيمان . استحق أن تفتح له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل الجنة من أى باب يشاء .

٤ - وهل من دليل آخر على أنه من الأصح أن نقول «الحمد لله» ولا نقول «أحمد الله»؟
«الحمد لله» تفيد تخصيص الحمد لله ، أما «أحمد الله» فلا تنفى الحمد لسواه . وكل إنسان أنعم على غيره بإنعام ، هو ليس بمنعم . . لماذا؟ لأن المنعم فى الحقيقة هو الله تعالى ، فهو خالق النعمة ، وهو الذى ألهم الذى أنعم من الناس ، وهو الذى ألهم الانتفاع للمُنعم عليه بتلك النعمة ، فالله عز وجل هو المنعم على الحقيقة لا منعم غيره ، ولا محمود سواه ، كما قال فى سورة النحل (٥٣) : ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ .
فكان لابد من تخصيص الحمد لله عز وجل . ونجد ذلك فى القول «الحمد لله» ولا نجد فى القول «أحمد الله» . . والنعمة لا تكون نعمة كاملة إلا بثلاث :

الأول : أن تكون نافعة ، ولا يأتى نفع إلا من الله تعالى .
الثانى : أن تكون خالية من أى ضرر ، ولا يدفع الضرر إلا الله تعالى .
الثالث : أن تكون مستمرة لا تنقطع ، وهذه لا تكون إلا من الله لأن نعم الله تتوالى ولا تنقطع .
إذن فالنعمة الكاملة لا تكون إلا من الله عز وجل ، فوجب تخصيص الحمد لله فنقول «الحمد لله» ولا نقول : «أحمد الله» .
٥ - و«الحمد لله» حقيقة لها تعلق بالماضى ، ولها تعلق بالحاضر والمستقبل .

نفهم أن يكون «الحمد لله» حقيقة لها تعلق بما أولاه الله من نعم . . فكيف يكون للحمد لله تعلق بالمستقبل؟
«الحمد لله» حقيقة لها تعلق بالماضى ، يتضمن استحقاق الله تعالى للشكر على ما منح عبده من نعم سابقة . و«الحمد لله» حقيقة لها تعلق بالمستقبل أيضاً ، ففيها الدليل على تجدد نعم الله تعالى فى مستقبل الأيام ، وهو القائل عز وجل : ﴿وَلَنِّ شُكْرُكُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ . ونعم الله تعالى التى سبقت توجب الحمد لله والقيام بطاعته وتجنب معصيته ، ونعم الله تعالى التى ستأتى مستقبلاً تشغل القلب بالرجاء فى رحمة الله عز وجل ، وفضله ، وتفتح أبواب المعرفة بالله تعالى ، والتطلع لأنوار محبته ، حتى تمتلئ القلوب نوراً وحباً ويصير الإنسان فى درجة الراجين ودرجة المحبين .

إذن فتعلق الحمد بالماضى يغلق أبواب النار ، وتعلق الحمد بالمستقبل يفتح للمؤمن أبواب الجنة .
ولأن حقيقة «الحمد لله» تفتح أمام المؤمن أبواب التعرف عن جمال الأفعال الربانية ، فإن المؤمن الذى يواصل الحمد لله تعالى يرتقى إلى درجة معرفة كمال الصفات الإلهية ، لذلك استهلّت سورة فاتحة الكتاب بقوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . لأن الحمد يفتح الطريق أمام العبد لمعرفة ربه ، لذلك سُميت السورة «سورة الفاتحة» .

٦ - ولكن هل يتم تحميد الله إذا قلنا «الحمد لله»؟

لا . . . لأننا إذ نقول «الحمد لله» نكون قد أقررنا بحصول الحمد لله تعالى ، والإقرار بحصول الحمد لله مغايرٌ للمُخبر عنه وهو الله عز وجل . فوجب أن يكون «التحميد» غَيْرَ «الحمد» . والتحميد هو أن يلهج لسانك بالحمد لله تعالى مرات ومرات . أى أن التحميد كثرة الحمد لله تعالى ، فالتحميد هو الزيادة من الحمد .

٧ - فى سورة الفاتحة يقول الله عز وجل : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . وفى التسبيح نقول : «سبحان الله والحمد

لله» . فلماذا قُدِّمَ الحمدُ فى سورة الفاتحة؟ وقدم التسبيح على الحمد؟
ذلك لأن الحمد يتضمن التسبيح . لأن قولنا : «سبحان الله» . أى ننزه الله تعالى عن كل نقص فى أسمائه وأفعاله وصفاته . وقولنا : «الحمد لله» . يدل على ما فى «سبحان الله» من معانٍ ، هذا بالإضافة إلى إثبات إحسانه لخلقه وإنعامه عليهم سابقاً ولاحقاً .

إذن فالتسبيح يدل على أن الله عز وجل تام فى صفاته ، وكامل فى أسمائه وأفعاله ، أما الحمد فيدل على أنه تعالى فوق التمام وأسمى من الكمال ، لذلك كان الابتداء بحمد الله أصوب من الابتداء بالتسبيح . أما فى التسبيح فتقديم التسبيح على الحمد من الصواب .

٨ - وهل قول العبد : «الحمد لله رب العالمين» . أفضل أم قوله : «لا إله إلا الله» أفضل؟ بعض العلماء قالوا : «الحمد لله رب العالمين» أفضل ؛ لأن فيه توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية . وفى ذلك معنى لا إله إلا الله . فقولنا : «الحمد لله رب العالمين» . حمد وتوحيد ، وقولنا : «لا إله إلا الله» . توحيد فقط .

وقال آخرون : بل «لا إله إلا الله» أفضل . لأنها الحقيقة الكبرى فى الكون . وجوهر الدين ولأن القول الفصل ما قاله رسول الله ﷺ : «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله» .

وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : «إذا قال العبد : الحمد لله . قال الله عز وجل : صدق عبدى الحمد لى» . وأخرج الإمام مسلم عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله تعالى ليرضى من العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها» . وقال الحسن : (ما من نعمة إلا والحمد لله أفضل منها . وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال : «لو أن الدنيا بحذافيرها بيد رجل من أمتى ثم قال : الحمد لله . لكانت (الحمد لله) أفضل من ذلك» . لأن الدنيا فانية ، و«الحمد لله» باقية لأنها من الباقيات الصالحات قال تعالى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً ﴾ .

وأخرج مسلم عن أبى مالك أن رسول الله ﷺ قال : «الظهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملأان ما بين السماء والأرض» .

معجزة الإسراء والمعراج

أخرج الإمام أحمد عن ثابت البنانى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : «أتيتُ بالبراق ، وهو دابة ، أبيض فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه ، فركبته فسار بى حتى أتيت بيت المقدس . ثم دخلت وصليت ركعتين ، ثم خرجت ، فجاءنى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فأخذت اللبن ، قال جبريل : أصبت الفطرة . ثم عرج بى إلى السماء الدنيا ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت؟ فقال : جبريل . قيل : ومن معك؟ قال : محمد . فقيل : وقد أرسل إليه؟ قال : قد أرسل إليه . ففتح لنا . فإذا أنا بأدم فرحب بى . ودعا لى بخير . ثم عُرِج بى إلى السماء الثانية . فاستفتح جبريل . فقيل : من أنت؟ قال : جبريل .

ف قيل : ومن معك؟ قال : محمد . فقيل : وقد أرسل إليه؟ قال : قد أرسل إليه . قال : ففتح لنا فإذا أنا بابنى الخالة يحيى وعيسى ، فرحبا ودعيا لى بخير . ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل . فقيل : من أنت؟ قال : جبريل . فقيل : من معك؟ قال : محمد . فقيل : وقد أرسل إليه؟ قال : قد أرسل إليه . ففتح لنا ، فإذا أنا بيوسف فرحب بى ودعا لى بخير . ثم عرج بى إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل فقيل له : من أنت؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك؟ قال : محمد . فقيل : قد أرسل إليه؟ قال : قد أرسل إليه . ففتح الباب . فإذا أنا بإدريس فرحب بى ودعا لى بخير . ثم قال : «يقول الله عز وجل : ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾» . ثم عرج بى إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقيل : من أنت؟ قال : جبريل . فقيل : من معك؟ قال : محمد . فقيل : قد بعث إليه؟ قال : قد بعث إليه . ففتح لنا ، فإذا بهارون فرحب بى ودعا لى بخير . ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح فقيل : من أنت؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك؟ قال : محمد . فقيل : وقد بعث إليه؟ قال : قد بعث إليه . ففتح لنا ، فإذا أنا بموسى فرحب بى ودعا لى بخير . ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل : من أنت؟ قال : جبريل . فقيل : ومن معك؟ قال : محمد . قيل : قد بعث إليه؟ قال : قد بعث إليه . ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم فإذا هو مستند إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ، ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى ، فإذا ورقها كأذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال ، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها ، تغيرت ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها . قال : «فأوحى الله عز وجل إلى ما أوحى وفرض علىّ فى كل يوم وليلة خمسين صلاة ، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ، فقال : ما فرض ربك على أمتك؟ قلت : خمسين صلاة ، فى كل يوم وليلة ، قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، وإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم» . قال : «فرجعت إلى ربي عز وجل ، فقلت : أى رب خفف عن أمتى ، فخفف عني خمسا فرجعت إلى موسى ، فقال : ما فعلت . قلت : حط عني خمسا . قال : فإن أمتك لا تطيق ذلك . فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك» . قال : «فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى ، ويحط عني خمسا خمسا ، حتى قال : يا محمد هى خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، بكل صلاة عشر ، فتلك خمسون صلاة . فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ، فأخبرته فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فإن أمتك لا تطيق ذاك» . فقال رسول الله ﷺ : «لقد رجعت إلى ربي حتى لقد استحييت» .

أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : «الأنبياء إخوة لعلات - يعنى غير أشقاء - أمهاتهم شتى ودينهم واحد» .

أخرج مسلم فى صحيحه وأحمد فى مسنده عن قتادة عن عبد الله بن شقيق عن أبى ذر رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك؟ فقال : «نور أتى أراه» - قيل المعنى : حجاب النور فكيف أراه - وفى رواية أخرى قال ﷺ : «رأيت نوراً» . وقيل المعنى : رأيت النور فحسب ، ولم أر غيره .

لماذا يحتفل المسلمون بالذكرى الإسراء والمعراج كل عام؟

إنهم يحتفلون بهذه الذكرى احتفالهم بمعجزة أجراها الله تعالى لرسوله محمد ﷺ ، فأظهرت ما له من فضل كبير على العالمين ، وبينت ما له من مكانة عالية عند رب العالمين ، بيد أن لحادث الإسراء والمعراج جوانب أخرى عظيمة ، إنه أحد ثلاثة أحداث هائلة عظيمة مرت بالدعوة الإسلامية وهى :

١ - بعثة النبى محمد ﷺ ونزول الرسالة عليه .

٢ - حادث الإسراء والمعراج .

٣ - حادث الهجرة من مكة إلى المدينة .

فكان حادث الإسراء والمعراج :

- ١ - حادثاً تجسدت فيه القيم والأخلاق الإسلامية .
- ٢ - حادثاً تأسس فيه منهج العقيدة .
- ٣ - جرت به الكثير من العظات والعبر .
- ٤ - كان نقطة تحول فى مسيرة الدعوة الإسلامية من حال الضعف وقلة الحيلة ، إلى حال القوة والعزم والانطلاق قدماً إلى تأسيس الدولة الإسلامية بعد زمن وجيز .
- ٥ - كان من أعظم النعم على رسول الله ﷺ فقد قربته الله تعالى إليه قريباً لم يصله مخلوق ، لا من قبل ولا من بعد .
- ٦ - كان من أعظم نعم الله تعالى على المسلمين ، إذ أتحفهم بفريضة الصلاة . . وهى الصلة المباشرة بين العبد وربّه بدون وساطة من أحد ، وقد رفعت الحجب أثناء الصلاة بين المصلى وربّه فيخاطب ربّه مباشرة : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿ . بل كأنه يقف حيث وقف رسول الله ﷺ فى مقابلته المباشرة مع ربّه . ونردد المحادثة النورانية بين الله ورسوله فى ذلك الموقف العظيم فى التشهد فى كل صلاة .

التاريخ الزمنى لحادث الإسراء والمعراج:

حدث ذلك فى ليلة السابع والعشرين من رجب ، فى السنة الثانية عشرة من البعثة ، واختلف العلماء فى زمنها ، فمنهم من قال إنها كانت قبل الهجرة بسنة ، ومنهم من قال إنها كانت قبل الهجرة بسنة وثلاثة أشهر أو سنة وستة أشهر .

وحدث الإسراء والمعراج والرسول ﷺ فى موقف عصيب ، وفى قمة الشعور بالضعف وقلة الحيلة . فقد سبق حادث الإسراء والمعراج موت السيدة خديجة رضى الله عنها ، وموت عم النبي أبى طالب . . وحدث كل ذلك فى عام واحد .

وهكذا فقد رسول الله ﷺ حمايتين : حمايةً داخليةً فى بيته ، وحمايةً خارجيةً فى مجتمعه . أما الحماية الداخلية : فكانت متمثلة فى زوجه السيدة خديجة رضى الله عنها ، فكانت الراحة له والسكن والعطف والحنان والحب والرعاية والعناية . . فقد كل ذلك بفقدها . . كما كانت لها مكانة كبيرة فى قريش . . ومكة كلها . وأما الحماية الخارجية : فكانت متمثلة فى عمه أبى طالب كبير قريش ، وكان يحميه من أذى المشركين . . وقد يتساءل البعض : لماذا لم يهد الله تعالى أبا طالب إلى دخول الإسلام؟ ذلك لأن بقاءه على الشرك جعل المشركين يتخذونه كبيراً لهم ، يجاملونه فلا يعتدون على النبي الذى كان فى جواره وحمايته .

وبفقد النبي ﷺ لزوجته وعمه فى عام واحد ؛ فقد كل حماية له فى مكة ، واعتقد المشركون أنه قد آن الآوان أن يقضوا على رسول الله ﷺ قضاءً مبرماً . . ولقد زاد إيذاؤهم له حتى أن سفهاءهم كانوا يلقون فوق رأسه الشريف التراب ! واستفحل عدااء المشركين وإيذاؤهم للنبي وللمسلمين ، وزاد عنادهم وضلالهم حتى فقد رسول الله ﷺ الأمل تماماً فى هدايتهم . . وحاول عقد حل سلمى بينه وبينهم ليتركوه ويتركوا المسلمين وشأنهم ، فرفضوا وازدادوا فى اعتدائهم ، حتى لم يبق فى الصبر منزع ، فقرر أن يبحث عن عون خارجى فلم يجد أمامه إلا الطائف وقبيلة ثقيف فيها ، وهى قبيلة قوية وغنية ، لو دخلت الإسلام أو حتى تحالفت مع النبي لازدادت قوة المسلمين وعز جانبهم فى مكة . . وتبعد الطائف عن مكة نحو خمسة وسبعين ميلاً . . والطريق بينهما جبلى وليس السفر فيه سهلاً . . واصطحب الرسول معه فى هذه الرحلة غلامه زيد بن حارثة .

توجه رسول الله ﷺ إلى الطائف وقصد زعماء ثقيف وهم ثلاثة أولاد عمرو بن عمير ، فجلس إليهم يحدّثهم ويدعوهم إلى الإسلام . . فقال له أحدهم : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟

وقال الآخر : والله لا أكلمك ، لئن كنت نبياً حقاً كنت أعظم من أن أرد عليك ، وإن كنت كاذباً فما ينبغي أن أكلمك . . وردوه ردّاً منكراً ، وأسأوا استقباله وهو فى ضيافتهم بل وأغروا عبيدهم وصبيانهم أن يصيحوا به ، ويرمونه بالحجارة ، حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة ، وكانا موجودين فيه . فرجع سفهاء الطائف ومن كانوا معهم . . وأرسل أصحاب البستان غلامهم «عداس» . بقطف من عنب لرسول الله فأكله . . بعد أن قال : باسم الله . . فتعجب الغلام وقال : هذا كلام لم أسمعه من أحد هنا . . فقال له رسول الله ﷺ : من أى البلاد أنت يا عداس؟ فقال : من نينوى بالعراق . فقال له : من قرية العبد الصالح يونس بن متى؟ فقال عداس : وما أدراك بذلك؟ قال : ذلك أخى كان نبياً وأنا نبى . فأكب عداس على رسول الله يقبل رأسه ويديه وقدميه . . فلما سأل عتبة وشيبة غلامهما عن ذلك قال : لقد أخبرنى بأمر لا يعلمه إلا نبى . قالوا : لا يصرفك عن دينك يا عداس .

وشعر رسول الله ﷺ أنه صار فى ذروة الهزيمة ، وقلة الحيلة ، فقد انعدم لديه كل سبب من أسباب النصر ، فلم يجد أمامه إلا أن يلجأ إلى الله ويتضرع إليه وقال : «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين . . أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدو ملكته امرى؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى . ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل علىّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله» .

وبلغت المأساة ذروتها عندما عاد إلى مكة ، فإذا بالمشرkins يمنعون من دخولها!! ولم يدخلها إلا فى جوار مشرك هو المطعم بن عدى!! ودخل مكة وطاف بالكعبة ثم انصرف إلى بيته وهو فى حراسة المطعم بن عدى . . وتذكر هنا قول الله عز وجل فى سورة يوسف (١١٠) : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشْأٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .

فى وسط هذا الجو المشحون باليأس والإحباط للنبي والمسلمين معه وقع حادث الإسراء والمعراج .

كيف كانت رحلتا الإسراء والمعراج تسرية وترضية للنبي ﷺ؟

١ - فى الإسراء استقبله الأنبياء والمرسلون مرحبين ، وصلوا خلفه فى المسجد الأقصى . وبذلك تحققت إمامته للأنبياء والمرسلين فى عالم الشهادة ، بعد أن تقررت وتحققت من قبل فى عالم الغيب . وكان ذلك ردّاً كريماً على سوء استقبال الضالين المشرkins له فى الطائف .

وكانت إمامته للأنبياء فى الصلاة دليلاً واضحاً على أن الأنبياء جميعاً على دين واحد ، كما قال رسول الله ﷺ : «الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد» . لعلات أى غير أشقاء .

٢ - فى رحلة المعراج تفتحت له أبواب السماوات بتكريم وترحاب ، وكان هذا ردّاً مريحاً ومُرضياً على من أغلقوا دونه أبواب مكة .

٣ - كان فى ضيافة كريمة فى رحاب الله عز وجل ، وكان ذلك تعويضاً له عما لقيه من سوء استقبال وسوء ضيافة له من ثقيف .

٤ - قرّبه الله تعالى إليه وكرمه وشرفه ومنحه ذلك قوة هائلة ، وكان ذلك ردّاً على مناجاته لربه وشكواه له بالضعف وقلة الحيلة وهوانه على الناس ، فتأكد أنه عظيمُ القدر كبيرُ المكانة عند ربه . فالأرض مسراه ، والسماوات معراجة ، وجبريل رفيقه ، والله عز وجل خالقه وحبيبه .

٥ - استُقبلَ فى كل مكان فى الملأ الأعلى ، وما بعد ذلك عند سدرة المنتهى بالتكريم والتشريف ، وكان ذلك ردّاً على شكواه لربه : «إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته امرى؟» .

- ٦ - تُوج تكريمُ الله تعالى له بأن استدعاه الله عز وجل للحضرة الإلهية ، ومنحه منحة ملائكية عالية لم تمنح لأي ملك من الملائكة ، فسمع كلام ربه بدون وساطة ، ورأى النور الإلهي ، ورأى من آيات ربه الكبرى . فمنحه ذلك ثقة كان لابد منها لتعينه على ما ينتظره من متاعب الهجرة وتبعات الجهاد وبناء الدولة الإسلامية الأولى .
- ٧ - وكما كانت رحلتا الإسراء والمعراج نعمة وترضية للنبي ﷺ كانت نعمة وترضية للمسلمين المستضعفين الذين تعرضوا لإيذاء الكفار لهم . . فأتحفهم الله تعالى بفريضة الصلاة . . والصلاة معراج للمسلم ، يعرج بها كل يوم خمس مرات إلى الحضرة الإلهية بدون حجاب أو وساطة .
- ٨ - لقد أمدت رحلتا الإسراء والمعراج رسول الله ﷺ قوة وعزماً لا حدود لهما ، حتى إنه لم يتردد في إعلان ما حدث له في الإسراء والمعراج على الملأ من قريش ، وهو يعلم أنهم سيكذبونه ولكنه لم يبال . . أم هانئ تشده من ثوبه وتقول له : لا تخرج فإن قومك سيكذبونك . فقال في عزم وإصرار : وإن كذبوني ! . . فأى قوة هذه وأى عزيمة ؟!

هل ذكر القرآن الكريم الإسراء والمعراج؟

ذكر القرآن الكريم الإسراء تصريحاً ؛ قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾ . لذلك فالذى لا يؤمن بحادث الإسراء يكون كافراً لأنه عارض نصاً صريحاً في القرآن .

أما المعراج فقد ذكره القرآن تلميحاً ، قال تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ . إلى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ . فالذى لا يؤمن بحادث المعراج لا يكون كافراً ولكنه يكون فاسقاً .

لماذا كان المعراج من المسجد الأقصى ولم يكن من المسجد الحرام؟ ولماذا بجل المسجد الأقصى فقال : ﴿ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ ؟

ذلك لأسباب عديدة منها على قدر ما نفهم :

- ١ - أن بيت المقدس منبت الرسالات السابقة للأنبياء إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام .
- ٢ - الإسراء من مكة إلى بيت المقدس والمعراج من هناك إلى السماوات ، يؤكد أن دين الله واحد وهو الإسلام ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ .
- ٣ - في ذلك تأكيد لعالمية الإسلام . . وأن الإسلام لا تحده مكة وحدها ، بل إن دين الله تعالى للعالمين جميعاً .
- ٤ - إن الإسلام امتداد لملة النبي إبراهيم والرسالات السابقة جميعاً ؛ فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : قال النبي ﷺ : «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة» . «الأنبياء إخوة لعلات -يعنى غير أشقاء- أمهاتهم شتى ودينهم واحد» .

بماذا نرد على الذين كذبوا الرسول واستكثروا عليه أن يصعد بجسده وروحه إلى السماء؟

عليهم أن يفهموا أن الإسراء والمعراج معجزة أجراها الله تعالى لرسوله محمد ﷺ ، والمعجزة حدث يعجز الإنسان أو أى مخلوق آخر أن يقوم به عجزاً تاماً ؛ لأن المعجزة لابد أن تكون خالية من أى سبب من أسباب البشر ، ومن أى قانون من قوانين هذا الكون ونواميسه التى هى فى علم الإنسان ، ويجرد النبي الذى يجرى عليه المعجزة من أى قوة بشرية قد يظن أحد أنها أعانته على القيام بتلك المعجزة ، وبذلك تكون المعجزة خالصة لوجه الله تعالى .

لذلك أخطأ الذين اعترضوا على رسول الله ﷺ وكذبوه ، فقد استكثروا عليه أن يصعد إلى السماء ، ولم يقل الرسول إنه أسرى إلى السماء ولكن قال إن الله أسرى به .

ومادام الله تعالى هو الذى أسرى به ، فلا محل للاعتراض ، فلا ينبغى لمخلوق أن يعترض على الله تعالى ولا أن يستكثر على قدرته شيئاً . . فمثلاً إذا حملت طفلى الصغير ووضعتة فى سيارتى وانطلقت بها من القاهرة إلى الإسكندرية ، هل يقول عاقل : كيف قطع طفلك الصغير كل هذه المسافة؟ لا يقول ذلك إلا إنسان مختل ، فالطفل لم يمش على قدميه إلى هناك ولا يستطيع ، ولكنى أنا الذى حملته بسيارتى . . وكان أولى بهم أن يسألوا : وهل تستطيع سيارتك أن تصل إلى هناك؟ فأقول لهم : نعم ، إن سيارتى يمكن أن تقطع أضعاف تلك المسافة كل يوم . . وعلى هذا ما كان ينبغى لأحد أن يناقشنى كيف يقطع طفلك تلك المسافة؟

وإذا كان هذا فى منطق البشر ، وعلى مستوى أفعال البشر ، فأفعال الله تعالى أولى ألا يناقشها أحد . . الله تعالى قال : ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ فكيف يعترضون على ذلك ويسألونه : كيف أسريت إلى السماء ، إن هذا أمر عليك محال؟ وقالت قريش لرسول الله : أتدعى أنك أتيتها فى ليلة ونحن نضرب لها أكباد الإبل شهراً! إن كل فعل ينسب إلى قوة فاعله . . وإذا كانت قوة الفاعل قوة لا نهائية ، فإننا ندرك بواسطة المعادلات الرياضية أن أى مسافة إذا قورنت باللانهاية تصير صفراً .

وأى زمن إذا قورن باللانهاية يصير صفراً ، فكان لا بد أن يستغرق حادث الإسراء والمعراج أقل من لمح البصر ، وإذا تحرينا الدقة العلمية نقول : إن حادث الإسراء والمعراج تم فى لا زمن .

واعترض قريش يدل على أن حادث الإسراء والمعراج لم يكن رؤيا منام ، وإنما كان بالجسد والروح معاً ، ولقد أعطاهم الرسول أدلة على ذلك فوصف لهم المسجد الأقصى - وهو لم يره من قبل - بل ووصف لهم القوافل التى كانت فى الطريق من الشام إلى مكة وحدثهم بأخبارها . . فلما وصلت مكة بعد أيام وأسابع سألوهم عما قاله النبى ﷺ فأخبروهم كما ذكره لهم تماماً .

والإسراء إيناس للعقل البشرى ليصدق المعراج ، فالله تعالى الذى خرق للرسول قانون الزمن والمسافات فى الإسراء ، قادر على أن يخرق قانون الزمن والمسافات فى المعراج أيضاً ، والذى صدق مع الناس فيما علموه من الإسراء وشاهدوا الأدلة عليه ، لا بد أن يكون صادقاً معهم أيضاً فيما لم يعلموه ولم يروه وحدثهم به النبى فى حادث المعراج .

والمعجزات أدلة على صدق رسالات الأنبياء والمرسلين ، كما أن المعجزات ترد على بعض الفلاسفة الذين أزاع الله قلوبهم ، وعلى الذين نقلوا عنهم فقالوا : إننا نؤمن معكم أن الله خلق هذا الكون وخلق كل قوانينه ونواميسه ، إلا أنه ترك تلك القوانين والنواميس تعمل بنفسها فى الكون وتدبر أمره وتعمل على استمرار نظامه الذى لا يتبدل ولا يتغير . يريدون أن يقولوا : إن الله خلق الكون وباشر سلطانه فيه مرة واحدة ، وخلق القوانين الكونية تسيّر الكون . . لذلك نجد أن المعجزات التى يجربها الله تعالى لرسله ولبعض أوليائه ترد أولئك الفلاسفة إلى الحق ، وتثبت أن الله تعالى قائم على شئون خلقه ، لا يَغْفُل ولا ينام ، ولا يترك خلقه طرفة عين ، يدبر الأمر ويفصل الآيات ، فجعل المعجزات تخرق القوانين الكونية وتعطلها كما تعطل أسباب البشر ، ليدرك الناس أن فوق القوانين والنواميس خالق القوانين والنواميس ، الذى إن شاء جعلها تعمل وإن شاء عطلها .

وإذا جاز الشك فى معجزة الإسراء والمعراج جاز الشك فى معجزات الأنبياء السابقين . النبى إبراهيم والنبى موسى والنبى عيسى عليهم جميعاً أفضل السلام ، ومعجزاتهم من ركائز الدعوة الإسلامية ، فالذى لا يؤمن بأى معجزة منها يكون قد كفر وخرج عن الإسلام ، ودخل الناس فى متاهات من الفتن والكفر والضلال .

ويخطئ من العلماء من يحاول أن يفسر معجزة من المعجزات بقوانين علوم البشر ؛ لأن تلك القوانين مخلوقة ، ولا تجرى قوانين المخلوق على إرادة الخالق ولا تحول دون أمره ، كما أن علوم البشر مرتبطة بالأسباب ، أما المعجزات فليست مرتبطة بالأسباب .

ما هى بعض المعانى فى قوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ ؟
 سبحان : اسم عام للتسبيح ، ويقال سبحت الله تسبيحا ، فالتسبيح هو المصدر . . و«سبحان» اسم عام للتسبيح ،
 ومعنى سبحان : أى ننزه الله تعالى تنزيها مطلقا بذاته وصفاته عن أى مقارنة بقوة مخلوق من مخلوقاته فى الكون .
 وننزه أفعاله عن مقارنتها بأفعال غيره من مخلوقاته ، وننزه أمره عن قوانين خلقه وعن أى ناموس من نواميس الوجود .
 بدأت السورة بالتسبيح لله ، وتنزيه الله المطلق ، وهذا يضيف على الحديث عن المعجزة الإلهية فى الإسراء
 والمعراج الجو النوراني الجميل المناسب لها ، والذي تتناسب المعجزة معه .

أسرى بعبدته : يقال فى اللغة «أسريت» أى : سرت ليلا . ولا يقال عن سير النهار : سرى . وهناك فرق بين
 «أسرى» و«سرى» . . «أسرى» أى : سار فى أول الليل ، و«سرى» أى : سار آخر الليل . مثل الفرق بين «أسقاه»
 و«سقاه» . «أسقاه» أى : دله على مكان الماء ووفره له ، كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَّ شَامِخَاتِ
 وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَّاءً فُرَاتًا﴾ (المرسلات : ٢٧) . أى : وجعلنا لكم ماءً عذبا فى ماء المطر والماء الذى يجرى فى الأنهار .
 وسقى أى : سقاه ماء ، كما قال تعالى : ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ (الغاشية : ٥) ، ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾
 (الرعد : ٤) .

إذن قوله تعالى : ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ . يدل على أن الإسراء كان فى أول الليل ، وما دام الإسراء كان ليلا
 فلماذا قال : «ليلا» ؟ أما كان يكفى أن يقال : «سبحان الذى أسرى بعبدته» ؟ . إنه ذكر كلمة «ليلا» لثلاثة أسباب
 على قدر ما نفهم :

الأول : أنه ذكر «الليل» منكرًا ليدل على قصر مدة الإسراء ، وأنه لم يستغرق وقتًا .

الثانى : ذكر كلمة «ليلا» ليؤكد وقت الإسراء .

الثالث : السماء بعد الغلاف الجوى للأرض أثناء النهار فى ظلمة حالكة ، والسماء فى ليل دائم وظلام
 مستمر . . وعندما تكلم عن السماء فى سورة النازعات (٢٩) قال : ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ
 سَمُكَهَا فَسَوَّاهَا * وَاعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ . أى : جعل السماء فى ليل دائم شديد الظلمة ، فذكر كلمة
 «ليلا» لتدل على حقيقة علمية كونية ، وهى أن معجزة الإسراء والمعراج حدثت فى ليل الأرض وفى ليل الكون
 أيضًا . ولا يوجد نور فى هذه المعجزة إلا نور الله عز وجل .

هل الإسراء والمعراج كان بالجسد والروح أم بالروح فقط؟

إن هذا الموضوع واضح كل الوضوح ، وليس لمن أخطأ الفهم فيه أى عذر .

قال تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ :

أولا : كلمة «عبد» صفة للرسول أضفاها الله تعالى عليه وأكدها له تكريرًا له وتعظيمًا لشأنه وتشريفًا لمقامه العالى .
 ثانياً : أضاف صفة عبودية الرسول له عز وجل فقال : ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ وزاده بذلك تشريفًا وتكريرًا وتعظيمًا .
 ثالثاً : ذكر صفة العبودية لرسوله حتى لا يلتبس مقام العبودية بمقام الألوهية ، ويتنزه الله تعالى عن أن يكون له
 شريك فى الملك .

رابعاً : كلمة «عبد» تدل على أن الإسراء كان بالبدن والنفس والعقل والروح جميعاً ، فلا يقال للنفس «عبد» ،
 ولا يقال للروح «عبد» ، فكلمة «عبد» تدل على مجموع ملكات الإنسان جسماً ونفساً وعقلاً وروحاً . .
 ولو كان الإسراء بالروح لذكر القرآن ذلك .

وزعم بعض الناس أن الإسراء والمعراج كان رؤيا منام . . وكأنهم استكثروا على الله ذلك . . ونسوا أن ذلك أمر يرفضه العقل ، فلو كانت رؤيا منام ما كذبها المشركون ، وما ارتد بعض ضعاف الإيمان عن الإسلام ، فلا ينكر أحد من الناس رؤيا لرجل رأى نفسه فى المنام أنه يصعد إلى السماوات العلا ، ويرى فيها كذا وكذا ويعود ، بل قد يزداد بعضهم شغفاً لسماع تلك الرؤيا . . أما أن ينكروها ولا يصدقوها فلا تكون رؤيا منام ، ولو كانت رؤيا منام ما قالت أم هانئ لرسول الله ﷺ : لا تحدث بها الناس فيكذبونك ، ولما جادلت قريش رسول الله ﷺ قالوا : «أتدعى أنك أتيتها فى ليلة ونحن نضرب لها أكباد الإبل شهراً؟» واستند بعض الناس إلى قوله تعالى فى سورة الإسراء (٦٠) : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ .

وقالوا : إن معنى الآية الكريمة أن بعض الناس لما قص الرسول عليهم ما رآه فى الإسراء والمعراج قالوا : لعله شىء رأيته فى منامك . وما جعلنا الرؤيا التى أراها لك عياناً إلا فتنة للناس حتى كذب بها المشركون وارتد بعض من أسلم عن الإسلام» وهذا تفسير عجيب إذ لو كان حادث الإسراء والمعراج رؤيا منام ما افتتن بها الناس . والصحيح فى رأينا : المراد بالناس أهل مكة وأن الله أحاط بهم وأنه سيغلبهم ويقهرهم ، وأريناك الرؤيا بذلك ، ونظير ذلك قوله فى سورة القمر (٤٥) : ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ . وقوله تعالى : ﴿أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ . . وكل ما يخبر الله عن وقوعه هو واجب الوقوع حتماً . . وروى أنه لما تزاحف الفريقان يوم بدر ورسول الله ﷺ فى العريش مع أبى بكر ، كان يدعو الله يقول : «اللهم إنى أسألك عهدك ووعدك لى» . ثم خرج إلى الدرع يحرض الناس ويقول : ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ . أما قوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ ففيه قولان :

القول الأول : أن الله تعالى أرى رسوله فى المنام مصارع كفار قريش ، فحين ورد ماء بدر قال : «والله كأنى أنظر إلى مصارع القوم» . ثم أخذ يقول : «هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان» . فلما سمعت قريش ذلك جعلوا رؤياه سخرية ، وكانوا يستعجلون ذلك .

القول الثانى : المراد بالرؤيا التى رآها ، أن الله أحاط بأهل مكة وأنه سيدخلها منتصراً وأخبر بذلك أصحابه ، فلما منع عن البيت الحرام عام الحديبية حدثت فتنة لبعض القوم حتى إن عمر قال لأبى بكر : أليس قد أخبرنا رسول الله ﷺ أنا ندخل البيت ونطوف به؟ فقال أبو بكر : إنه لم يخبرنا أنا نفعل ذلك فى هذه السنة ، فسنفعل ذلك فى سنة أخرى ، وإنى أشهد أنه رسول الله . فقال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله . ولما كان العام المقبل دخل المسلمون مكة فاتحين ، وأنزل الله قوله تعالى بعد صلح الحديبية فى سورة الفتح (٢٧) : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ .

فى سورة النجم يحدثنا الله عز وجل عن الإسراء والمعراج فيخبرنا عن معراج النبى محمد ﷺ إلى الحضرة الإلهية ، وإطلاعه على سدره المنتهى ، وعلى جنة المأوى ، وعلى آيات الله الكبرى . . ثم تهوى بنا سورة النجم من هذه العلياء فى عنف رهيب إلى مهازل المشركين الذين هم كالأنعام بل هم أضل فيقول الله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ .

وهى آيات تدل على الضلال البشرى ، وانحراف عقول المشركين ، وتشير إلى أن كل من يترك تلك الآفاق العليا والأنوار الإلهية التى ذكرت فى صدر سورة النجم ، ويتجاوزها ليتساءل هل أسرى بالرسول بجسده وروحه ،

أم بروحه فقط ، أم أنها كانت رؤيا منام؟ إنما هو بذلك ينحدر بنفسه ويهبط بفكره وعقله -دون أن يشعر- من التجلى الإلهى إلى الدرك الأسفل ، فى جو اللات والعزى ومناة والشرك والمشركين .

إن البحث فى مناقشة الإسراء والمعراج هل كانا بالروح أم بالجسد أم بهما معا أم هى رؤيا منام؟ إن المناقشة فى هذه الأمور تفريط فى الحقائق الإسلامية الثابتة ، وفتح لباب التشكيك فيما لا ينبغى الشك فيه ؛ لأن الحادث كان معجزة من المعجزات ، وصانع المعجزات هو الله تعالى ، ولا دخل لنبي أو ملك فى أى معجزة يجريها الله تعالى على يدي أحد من أنبيائه . فطرح هذه الأمور للنقاش تضييع لوقت الناس وتشتيت لفكرهم ، وفتح للباب أمام أعداء الإسلام لبث سمومهم وإشاعة أفكارهم الضالة المضلة بين الناس ، بهدف إقناع ضعاف النفوس والعقول بها ، وليس هذا فحسب بل وبث الشك فى معجزات الآيات جميعاً ، وإدخال الفكر الإنسانى فى متاهات من الفتن والضلال والبعد عن دين الله فى الأرض .

مقالة السيدة عائشة ومعاوية :

الإسراء والمعراج كان بالجسد والنفس والعقل والروح جميعاً والرسول ﷺ فى كامل وعيه وإدراكه ، أما ما روى عن السيدة عائشة وما روى عن معاوية أن الإسراء كان بالروح دون الجسد ، فهى أقوال لا يعتد بها ؛ لأن معاوية عندما قال ذلك كان مشركاً ولم يدخل الإسلام بعد ، أما السيدة عائشة فكانت حينئذ طفلة صغيرة ولم يكن الرسول قد دخل بها ، فلم يدخل بها إلا بعد حادث الإسراء والمعراج بأكثر من ثلاث سنوات أو يزيد ، فلم يدخل بها رسول الله ﷺ إلا فى المدينة فى شوال فى السنة الثانية من الهجرة . . فالقول : إن النبي ﷺ عاد من الإسراء والمعراج وكان الفراش لا يزال دافئاً . . لا يكون للسيدة عائشة ، لأنها لم تكن لها علاقة بفراش النبي ﷺ حينئذ .

ما حدث فى الإسراء والمعراج :

قال معظم الرواة : إن الرسول ﷺ أسرى به من فراشه فى دار أم هانئ بنت أبي طالب . وقوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ . لا ينفى ما رواه الرواة لأن الحرم كله مسجد . . وروى أن النبي ﷺ رجع من رحلتى الإسراء والمعراج وكان فراشه ما يزال دافئاً ، وكان إناء الماء الذى أريق بفعل ردائه ﷺ عندما أسرى به ، لا يزال الماء جارياً ، فدل هذا على أن الرحلتين لم تستغرقا بحسب الزمن فى الدنيا إلا مثل لمح البصر .

١ - وهذا تفسير لقول الله عز وجل : ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ .

ولمح البصر علمياً يستغرق ١/١٠ من الثانية ، إلا أن أمر الله ليس مثل لمح البصر ولكنه كلمح بالبصر ، أى أقل من ١/١٠ من الثانية . . وأمر الله تعالى لا يجوز عليه زمن . . لأن الزمن مخلوق ولا تجرى قوانين المخلوق على أمر الخالق عز وجل . . فأمام القدرة الإلهية المطلقة لا يكون زمن . . فضلاً عن أن الذى يصل إلى عمق الكون يجد نفسه يعيش فى اللازمن .

فالرسول ﷺ أسرى به إلى المسجد الأقصى ، وعرج به من هناك إلى ما فوق السماوات السبع ، وحدث له ما حدث ، ورأى هناك ما رأى ، كل هذا حدث فى لازمن . . فكان من الطبيعى أن يعود إلى فراشه والفراش ما يزال دافئاً ، والماء الذى أريق بفعل ردائه عندما أسرى به من داره لا يزال جارياً .

٢ - ونحن نجد دليلاً عقلياً ومنطقياً على حدوث معجزة الإسراء والمعراج فى لمح البصر فى قصة النبي سليمان مع

بلقيس ملكة سبأ ؛ قال الهدهد للنبي سليمان : ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا

عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ . نقرأ قول الله عز وجل : ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ * قَالَ

عَفَرِيْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِي رَبِّي ﴿ (النمل : ٢٨ - ٤٠) .

لما قال عفريت من الجن لسيدنا سليمان : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ ﴾ . كأن الذى عنده علم من الكتاب استبطأ ذلك ، فقال : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ والذى عنده علم من الكتاب كان إنساناً عالماً من علماء بنى إسرائيل ، وكان من أولياء الله الصالحين والعارفين بربهم ، وكان عنده اسم الجلالة الأعظم الذى إذا سئل الله تعالى به أعطى ، وإذا دُعِيَ به أجاب ، وفى هذا الدليل على كرامة الأولياء . . أتى بقوة اسم الله الأعظم بعرش بلقيس من أقصى الجنوب من اليمن إلى أقصى الشمال من الشام فى لمح البصر ، فإذا أمكن هذا المخلوق ، أفلا يكون ممكناً للخالق عز وجل ، وألا يمكن تفسير ما حدث فى الإسراء والمعراج فى لمح البصر قياساً على ذلك؟

٣ - دليل علمى : قال أينشتاين - وهو من أشهر علماء الفيزياء الكونية فى القرن العشرين - إن الزمن فى الكون مختلف تماماً عن الزمن فى الأرض ، بل إن السماوات العلا لا زمن فيها .

٤ - أمر الله تعالى لا يخضع لزمن . . لأن الزمن مخلوق ولا تجرى قوانين المخلوق على أمر الخالق . . إذن أمر الخالق يقع فى لا زمن . ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ (القمر : ٥٠) ، نأخذ مثلاً على ذلك قوله تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ (النحل : ١) ، أتى أمر الله إذا وقع وانتهى . . وأتى فعل ماضٍ ، فكيف قال ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ ، ولا يستعجل إلا الفعل الذى لم يحدث بعد ، أما إذا حدث وانتهى فلا أستعجله . فالآية تدل على ماضٍ ومستقبل . . والماضى والمستقبل سواء إذا تعلقا بأمر الله عز وجل ، فلا يوجد فى أمر الله ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل .

٥ - السورة الوحيدة التى تكلمت عن المعراج هى سورة النجم ، ولما كان حدث المعراج تم فى لا زمن ، فقد ذكرت أول آية فى سورة النجم هذه الحقيقة ، حتى يستدل العقل على هذه الحقيقة قال تعالى : ﴿ وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ﴾ . اختلف المفسرون فى تفسير هذه الآية إلا أننى أستريح لتفسير الإمام جعفر بن محمد بن على بن الحسين رضى الله عنهم ، قال : «النجم» كناية عن النبى محمد ﷺ ، «إذا هوى» أى : إذا نزل من السماء ليلة المعراج . . ودليل صحة هذا التفسير أن الآيات التى تلت هذه الآية الأولى كلها تتحدث عن النبى محمد ﷺ وحادث المعراج . . وكيف دلت الآية الأولى على حقيقة اللازمن؟

(إذا) ظرف يدل على مستقبل ولا يتضمن معنى الشرط (إذا) يدل على ماضٍ ؛ ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ ، ﴿ وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ﴾ .

(هوى) فعل ماضٍ ويدل على حال . . إذن الآية تجمع المستقبل والحال والماضى معاً . . ولا يكون ذلك إلا فى حالة اللازمن . . لأن الآية ﴿ وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ﴾ تتحدث عن أمر الله تعالى ، وأمر الله لا يخضع لزمن .

وإذا كانت معجزة الإسراء والمعراج فوق قوانين الوجود ، فإن الكثير من المعجزات التى أجراها الله على أنبيائه كانت كذلك ورآها الناس بأعينهم . فمعجزة النبى إبراهيم إذ ألقاه الكفار فى النار ؛ ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (الأنبياء : ٦٩) ، وعصا النبى موسى تحولت بأمر الله تعالى إلى ثعبان يلقف حبال السحرة ، ثم عادت كما كانت عصا من خشب يتوكأ عليها النبى موسى ، وضرب بها البحر فانفلق نصفين ، وضرب بها الأرض

فانفجرت عيوناً . ومعجزة النبي صالح : ناقة تخرج من صخور الجبل الصماء ، لم تُولد من قبل ولم تلد . ومعجزة النبي عيسى أنه خلق من غير أب وكلم الناس في المهد . . وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله . كل هذه معجزات رآها الناس بأعينهم ، فلم يملكوا إلا أن يصدقوها ، وإن تعجبوا ودهشوا ، وقياساً على كل ذلك معجزة الإسراء والمعراج ينبغي على الناس أن يصدقوها ولو لم يشاهدوها .

وبعض الناس يحاول أن يفسر معجزة الإسراء والمعراج بقوانين سرعة الضوء وقوانين الزمن . . وهذا خطأ فإن المعجزة من طبيعتها أن تكون فوق كل قانون من قوانين الخلق ، وفوق كل سبب من الأسباب في هذا الكون ، وإلا ما كانت معجزة .

وفي عصرنا الحاضر استطاع الناس أن يخترعوا الطائرات والصواريخ التي تقطع المسافة بين مكة وبيت المقدس في زمن قصير جداً ، ألا يكون الله تعالى أقدر من عباده على صنع دابة كونية حملت رسول الله ﷺ من مكة إلى المسجد الأقصى في لمح البصر؟ . . بلى ، إن الله تعالى قادر على ذلك . . إن اختراع الصواريخ والمركبات الفضائية التي هي من صنع الناس ، حملت رواداً من البشر إلى السماء ، وعادت بهم إلى الأرض في زمن وجيز جداً . . تقرب وتسهل على العقل تصديق معجزة الإسراء والمعراج التي هي من أمر الله تعالى وقدرته . . ولقد جعل الله تعالى لرسوله ﷺ ملائكية فوق ملائكية جبريل عليه السلام . . ودليل ذلك أن رسول الله ﷺ عندما انطلق إلى سدره المنتهى قال لجبريل : «تقدم معي» . فقال له : «لو تقدمت لاحتترقت وأنت إذا تقدمت اخترقت» . . وتقدم رسول الله ﷺ إلى الحضرة الإلهية وتجلّى له ربه عز وجل . . وهو موقف لم يبلغه مخلوق من قبل ولا من بعد . . وكلم ربه قال :

«التحيات المباركات والصلوات الطيبات لله» . فسمع الله تعالى يقول : «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» . فرد رسول الله : «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» ، وسلام الله نعمة كبرى ومنة عظيمة . فلما تلقاها رسول الله ﷺ لم يؤثر نفسه بها ، ولكنه أخذ منها ووزعها على الفور على عباد الله الصالحين ، وأكرمهم بها ، فقال : «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» . . وكان له بعد ذلك لقاء خاص مع ربه لا يعلمه إلا الله ورسوله ، فرض الله تعالى فيه الصلاة على أمة محمد ، وقرب من ربه مثل قاب قوسين أو أدنى . . والقرب هنا ليس قرب مكان ، إنما قرب مكانة وقرب منزلة ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ (النجم : ١٠) ، أي أن الله تعالى أوحى إلى النبي محمد ﷺ ما أوحى دون وساطة جبريل . . وكلفه بالصلاة دون وساطة . . وبذلك كانت الصلاة هي العبادة الوحيدة التي بين العبد وربّه بدون وساطة وبدون حجاب ، فالإنسان أثناء صلاته يخاطب الله عز وجل وكأنه يراه أمامه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿ (الفاتحة : ٥ ، ٦) . . إنه خطاب بين العبد وربّه دون وساطة ؛ لأن الله تعالى فرض الصلاة وحيّاً إلى رسوله مباشرة وليس عن طريق جبريل مثل العبادات الأخرى .

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ (النجم : ١١) .

الفؤاد هو فؤاد رسول الله ﷺ ، والفؤاد هو القلب ، وهو البصيرة ، وكناية عن مجموع مدارك الإنسان ، وكناية أيضاً عن الذات الإنسانية بكل ملكاتها العقلية والفكرية والنفسية ، ولماذا عرّف الفؤاد في الآية الكريمة؟ لأنه فؤاد رسول الله ﷺ فلا بد أن يُعرّف ؛ ولأن رسول الله ﷺ سبق ذكره في الآيات السابقة على هذه الآية في قوله : ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ .

وتحدث المفسرون في قوله تعالى : ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ . ولهم في ذلك أقوال كثيرة ؛ فالزمخشري قال : إن فؤاد النبي ﷺ لم يكذب ، وما رآه بصره صحيح ويقين ، إلا أن الرأي الذي نرجحه هو أن الكذب في الآية ليس نقيض الصدق ، ولكنه مجاز ؛ للتعبير عن عدم الاستجابة المرجوة ، كما قال رسول الله ﷺ لرجل

يشتكى استطلاق بطن أخيه - والمعنى إسهال البطن - فأمره أن يسقيه عسلاً ، فجاءه مرة ثانية وثالثة وقال : ما زاده العسل إلا استطلاقاً . فقال ﷺ : «صدق الله وكذب بطن أخيك ، اذهب فاسقه عسلاً» . فسقاه عسلاً فبرئ . (كذب بطن أخيك) تعبير مجازي يشير إلى عدم استجابة بطن أخيه للعلاج الاستجابة المتوقعة ، كما يقال في اللغة : (كذب لبن الناقة) أى انقطع إدرار لبنها عكس ما كان متوقعاً . فاستعمل الكذب مجازاً حيث هو ضد الصدق . والكذب يختص بالأقوال ، فجعل بطن أخيه حيث لم ينجع العسل فيه ، كاذباً .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ : الكذب هنا مجاز ؛ لأن الكذب يختص بالأقوال وليس بالرؤية ، والمعنى أن فؤاد النبي ﷺ استجاب لما رآه فعرفه ، وتيقن من الذى رأى عين اليقين ، وكان فؤاد النبي ﷺ حينئذ حاضراً تماماً ، وواعياً تماماً ، فأدرك أن ما رآه حق ويقين .

ولكن ما الذى رآه رسول الله ﷺ حينئذ؟ إنه رأى ثلاثة مراءٍ ؛ إنه رأى نور الله تعالى ، ورأى جبريل عليه السلام ، ورأى من آيات ربه الكبرى .

إنه رأى نور الله تعالى : ولم ير الذات الإلهية ؛ لأن الله تعالى لا تدركه الأبصار ، وما رآه النبي ﷺ هو حجاب النور الذى يحجب الذات الإلهية عن كل الخلق ، وقيل : إن هذا الحجاب النوراني سبعون حجاباً من النور ، وقيل سبعمائة حجاب من النور . وسأل أبو ذر رضى الله عنه رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك؟ فقال «رأيت نوراً» . وفى رواية أخرى «نور أنى أراه» هكذا رواه معظم الرواة فى جميع الأصول والروايات ، والمعنى : الله نور ، فكيف أراه ؛ أى : لا أراه . فدل هذا على أن نور الله أنوار . وأن الذات الإلهية حجابها أنوار . وقال رسول الله ﷺ عن الله عز وجل : «حجابه النور ، لو كشف الحجاب عنه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» .

سبحات وجهه : قدره وجلاله وعظمته . (ما انتهى إليه بصره من خلقه) أى جميع خلقه تحت العرش ، ولكن كيف يحرق نور الذات الإلهية جميع خلقه ، ومن طبيعة النور ألا يحرق؟ ذلك لأن نور الذات الإلهية ليس كمثله نور .

«ما كذب الفؤاد ما رأى» : أى ما أخطأ الفؤاد ما رأى . فقد رأى نور وجه ربه . ولكن كيف رأى نور وجه الله ، والله تعالى لا تدركه الأبصار؟ نقول : المعنى : لا تدركه معظم الأبصار ، ولكن قد تدركه بعض الأبصار . فهو نفى للعموم وليس عمومًا للنفي ، وقد تدركه أبصار عباد الله الذين اصطفى ، والرسول ﷺ سيد المصطفين الأخيار .

«عند سدرة المنتهى» : (السدرة) من ملكوتات الله تعالى التى مر بها رسول الله ﷺ ليلة العروج إلى الملائ الأعلى وهى نهاية المطاف الذى لا يتجاوزه أى مخلوق حتى جبريل عليه السلام ، هنالك انتهت صحبة جبريل عليه السلام للنبي ﷺ .

وما هى سدرة المنتهى؟

إنها ملكوت عظيم قال الله عنها : ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ (النجم : ١٤-١٧) ويغشى السدرة أنوار لم يذكر القرآن الكريم عنها شيئاً ؛ دلالة على أن ما يغشاها أمر عظيم الشأن ، أعظم من أن يوصف ، أما الحديث النبوى ، فذكر وصفاً حسياً لسدرة المنتهى ؛ قال ﷺ عنها : «يسير الراكب فى ظلها مائة سنة» . أى : مائة سنة ضوئية . وعن قوله تعالى : ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قال النبي ﷺ : «فلما غشيها من أمر الله عز وجل ما غشيها تغيرت ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من شدة حسنها» .

«ما زاغ البصر وما طغى» : طغى أى جاوز الحد ، أى : ما تجاوز بصر النبي ﷺ ما أمر بالنظر إليه من آيات ربه الكبرى ، ولقد رأى رسول الله ﷺ من آيات ربه الكبرى ، والإنسان العادى بحواسه العادية فى الدنيا لا يمكن أن يرى فى الملائ الأعلى من آيات ربه الكبرى ، ولا بد أن يكون الله تعالى قد أضفى على رسوله صفات ملائكية

عظيمة وقدرات نورانية هائلة استطاع بها أن يرى من آيات ربه الكبرى في الملأ الأعلى ؛ لذلك كان من جهل مشركي مكة أن جادلوا رسول الله ﷺ على ما يرى ، قال تعالى : ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ ، إنه رأى من آيات ربه عين اليقين ، وأكد القرآن الكريم ذلك بالقول ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ . وما علم مشركو مكة أنه ﷺ رأى وأحس بملكات أخرى ، وأحوال أخرى ، أضفاها الله تعالى عليه .

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ (لقد) اللام جواب لقسم محذوف و(قد) حرف توكيد . وتقدير القول : لقد رأى حقًا ويقينًا من آيات ربه الكبرى ، ما لا يحيط بها وصف . ولم يذكر تلك الآيات الكبرى ، والحذف هنا أبلغ ؛ لأن فيه تفخيماً لآيات الله الكبرى . و(من) للتبعض ، أى : إن من آيات الله الكبرى ما رآه ، ومنها ما لم يره .

وفي الآية الكريمة الإشارة إلى أن رسول الله ﷺ رأى ليلة عروجه إلى السماء الكثير من آيات ربه . كما قال الله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ .

وقال الإمام الفخر الرازي : إن كلمة (الكبرى) صفة لمحذوف تقديره : لقد رأى من آيات ربه الآية الكبرى . وقال الإمام القرطبي : إن في الآية تقديمًا وتأخيرًا ، والمعنى أنه رأى الآية الكبرى من آيات ربه .

ولكننا لا نرى هذا الرأي ، فالله تعالى قرن الآيات بنفسه فقال : ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ . وقال : ﴿ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ . وما دامت مقترنة بالله عز وجل ، فلا بد أن تكون كبرى ؛ ذلك أن قدرة الله تعالى في آيات خلقه مطلقة ، فوجب أن تكون كلها آيات كبرى ؛ أى : إن آيات الله تعالى في الملأ الأعلى كلها كبرى .

ما الفرق بين الرؤية والإراءة؟

قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾ (الإسراء : ١) . الفعل في الإسراء الإراءة . والإراءة أن يصير من لا يستطيع أن يرى ، يرى . وذلك إما بتحويل المرئى إلى قانون الإنسان الذى يرى ، أو بنقل الإنسان الذى يرى لأن ينفذ إلى قانون المرئى .

فمثلاً الإنسان لا يرى بحاسة بصره الميكروبات ، ولكنه يراها إذا استعان بميكروسكوب ، فأحدث الميكروسكوب للإنسان إراءة للميكروبات . . أى جعله يرى ما لم يكن يرى ، أو جعل ما لم يكن يُرى ، جعله يُرى .

قوله تعالى : ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ : إن الرسول بشر ويرى بقوانين حواس البشر وقوانين الضوء ؛ لذلك لا يرى آيات الله فى الكون ، ولا بد أن تحدث له إراءة ليراه ، فذلك قول الله تعالى : ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ . فلما منحه الله تعالى ملائكية أعلى من ملائكية جبريل ، صارت الإراءة رؤية ؛ لذلك قال تعالى عنه حينئذ : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ (النجم : ١٨) ، وقال أيضاً : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ (النجم : ١٣) . . لذلك قال تعالى عن رسوله : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ : هذا إخبار من الله تعالى أن رسوله رأى عند سدرة المنتهى ما لا يراه البشر ، فقال : ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى ﴾ .

هل يمكن أن نرى الله؟

إننا لا يمكن أن نرى الله إلا إذا شاء لنا تعالى الإراءة ، أما بالرؤية والإبصار البشرية فلا . . قال تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ (الأنعام : ١٠٣) أى : لا تراه الأبصار . قوله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ نفى للعموم وليس للعموم النفى ، بمعنى أن معظم الأبصار لا تدركه ، ولكن بعض الأبصار تدركه . . ولما طلب النبى موسى أن

يمنحه الله تعالى الإراءة ليراه : ﴿ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ (الأعراف : ١٤٣) ؛ لأن من طبيعة بشريتي ألا أراك . فقال الله له : ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾ . أى أن من طبيعة خلقك ألا ترانى ، ولم يقل : «إنى لا أرى» . . ومن هذا نستدل على إمكانية رؤية النور الإلهى إذا تحولت طبيعة خلقنا من البشرية إلى ملائكية فوق ملائكية جبريل ، هنالك تحدث الإراءة . كما حدث لرسول الله ﷺ عند سدره المنتهى - فىرى العبد ربه ؛ لذلك لما سألوا النبى ﷺ لما عاد من رحلتى الإسراء والمعراج : هل رأيت ربك؟ قال فيما رواه الإمام مسلم عن أبى ذر قال ﷺ : «رأيت نوراً» وأصحاب اللجنة سيرون ربهم كما قال تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة : ٢٣) .

عودة رسول الله ﷺ من رحلتى الإسراء والمعراج؛

لما رجع فى لمح البصر قص على أم هانئ ما حدث ، وقام ليخرج إلى المسجد فتشبتت به أم هانئ فقال : «مالك؟» قالت : أخشى أن يكذبك قومك . فقال فى إصرار وعزم : «وإن كذبونى!» فدل ذلك على ثقة رسول الله ﷺ بالحق الذى جاء به ، فهو مكلف بالبلاغ . ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ (المائدة : ٩٩) . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «لما كانت ليلة أسرى بى وأصبحت فى مكة فظعت أمرى ، وعرفت أن الناس مكذبى» . قال : «فمر عدو الله أبو جهل فجاء حتى جلس إلى» . فقال له أبو جهل كالمستهزئ : هل كان من شىء؟ فقال رسول الله ﷺ : «نعم» . قال أبو جهل : ماهو؟ قال ﷺ : «إنه أسرى بى الليلة» . قال له : إلى أين؟ قال : «إلى بيت المقدس» . قال له : ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال : «نعم» . قال أبو جهل : رأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتنى؟ قال رسول الله ﷺ : «نعم» . فانطلق أبو جهل إلى قريش فناداهم وجاءوا فقال : حدث قومك بما حدثتنى . قال رسول الله ﷺ : «إنى أسرى بى الليلة» . قالوا : إلى أين؟ قال : «إلى بيت المقدس» . قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا؟! قال : «نعم» . فإذا القوم بين مصفق وبين واضع يده على رأسه تعجباً . قالوا : هل تستطيع أن تصف لنا المسجد - وكان منهم من سافر إلى بيت المقدس ورأى المسجد - قال رسول الله ﷺ : «فذهبت أصف لهم المسجد فقال القوم : لقد أصاب» . وسأله آخرون عما رأى فى الطريق ، فوصف لهم ما كان فى الطريق من بيت المقدس إلى مكة . . وحدث ما قال رسول الله ﷺ تماماً .

وعن الحسن : أنه فى يوم الحديث عن الإسراء ، ارتد كثير ممن كان أسلم . . وذهبوا إلى أبى بكر فقال أبو جهل : إن صاحبك يزعم أنه جاء هذه الليلة من بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة . فقال أبو بكر : والله لئن قال ذلك فقد صدق ، فما العجب فى ذلك؟ والله إنه ليخبرنى بخبر السماء فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه .

وأقبل أبو بكر حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا نبى الله أحدثت قومك أنك أتيت بيت المقدس هذه الليلة؟ قال : «نعم» . فقال أبو بكر : صدقت ، أشهد أنك رسول الله .

فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر : «وأنت يا أبا بكر الصديق» . فيومئذ سماه «الصديق» .

وسأله الناس عما رآه فى الطريق فأخبرهم بما رآه تفصيلاً . . وما سأله عن شىء إلا أجابهم . ولما وصلت العير بعد أيام وأسابع سألوه ، فإذا ما قاله رسول الله ﷺ قد حدث فعلاً ، بما يدل على أنه شاهد كل شىء فى الطريق عياناً مع أن الوقت كان ليلاً .

ومن الملاحظ أن الرسول ﷺ لم يتخذ من معجزة الإسراء والمعراج سبباً لتصديق الناس لرسالته ، مع أن

الناس طلبوا منه أن يأتي بالمعجزات والخوارق كما فعل الأنبياء الذين سبقوه ؛ لأن الرسالة التي بعث بها رسول الله ﷺ لا تعتمد على حدوث الخوارق والمعجزات ، وإنما تخاطب العقل ، وتعتمد على الأدلة الإيمانية والعقلية والفطرة السليمة .

ومن نتيجة إذاعة ما حدث في الإسراء والمعراج أن ارتد ضعاف النفوس والشاكئون والمترددون عن الإسلام ، ولم يبق إلا الثابتون على الحق ، الراسخون قلوبهم في الإسلام ، فكان حادث الإسراء والمعراج تمحيصاً لقلوب المسلمين وامتحاناً لقوة إيمانهم ، وخرج عن الإسلام من كان ضعيف الإيمان ، ولو بقوا لكانوا عوامل ضعف للمسلمين وليسوا عوامل قوة لهم . . وكان ذلك الامتحان ضرورياً حتى تقام الدولة الإسلامية في المدينة بعد ذلك على أكتاف الصادقين الراسخين قلوبهم في الإيمان .

والمثل الواضح لقوة الإيمان كان أبا بكر . . والأمة الإسلامية بأكملها مطلوب منها بالنسبة إلى أخبار الرسول ﷺ أن تكون على غرار الصديق ، فتصدق الرسول تصديقاً ، وتسلم له تسليماً وتعمل بكل ما جاء به ، وتنتهي عما نهى عنه .

أما أعظم نعمة لنا من حادث الإسراء والمعراج فكانت الهدية الإلهية لعباده ، والنعمة العظمى والتجلي الإلهي الأكبر ، وهو الصلاة . . فالصلاة :

- ١ - صلة العبد بربه صلة مباشرة دون وساطة ودون حواجز ؛ لأنها فرضت دون وساطة من جبريل .
- ٢ - فترة مناجاة وانقطاع كامل عن عالم المادة والشهوات والفتنة .
- ٣ - اتجاه كامل للإنسان إلى خالقه لينعم في رحابه والقرب منه .
- ٤ - إنها معراج العبد إلى ربه ليصعد إلى الملأ الأعلى ويسجد تحت العرش .
- ٥ - إنها لقاء مباشر بين العبد وربّه خمس مرات كل يوم ، فهي أعظم نعم الله على عباده .

المرائي؛

من المرائي : ١ - مشهد يبين ثواب المجاهدين .

٢ - والمشهد الذي يبين نتيجة أكل أموال اليتامى .

٣ - مشهد يبين عاقبة الربا .

٤ - مرآة عبرت عن الأمراض الاجتماعية والخلقية في المجتمع .

● قال تعالى في الإسراء : ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ أي : أرينا «إراءة» أي : جعلناه يرى ما يقدر أن يرى .

● وفي آيات السماء في المعراج قال : «رأى» . . لماذا؟

لأن الرسول في بشرته في الأرض كان محتاجاً إلى الإراءة . . أما في السماء وقد أكسبه الله تعالى ملائكية عالية فصار يرى بذاته ؛ لذلك قال : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ .

وفي هذه المسألة تعرض رسول الله ﷺ لثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : كان بشراً ، وجبريل يُرى رسول الله ﷺ الأشياء ، ثم يقول : «ما هذا يا جبريل؟» يسمع صوتاً ولا يرى شيئاً فيقول : «ما هذا يا جبريل؟» فيقول له : كذا وكذا ، فكان النبي في إراءة .

المرحلة الثانية : اكتسب ملائكية عالية فكان يرى المرائي فلا يستفهم من جبريل عنها ويسمع ويفهم . . إذن أصبحت للنبي ﷺ ذاتية فاهمة وترى بلا وساطة من جبريل . . فقد كان في ملائكية أعلى من ملائكيته .

المرحلة الثالثة : عند سدره المنتهى ، بعد أن انتهى من جبريل . . ودخل رسول الله ﷺ فى رحاب النور الإلهى . . ولم يكن معه جبريل . . ومعنى هذا أن ملائكته ارتقت إلى ملائكية أعلى مما كانت عليه قبل سدره المنتهى كما قال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ : «أنا لو تقدمتُ احترقتُ وأنت لو تقدمتَ احترقتَ» . . إذن صار فى درجة ملائكية عليا أعلى من ملائكية جبريل عندما صار قاب قوسين أو أدنى ، ويمثل فيها أمام الحضرة الإلهية المباشرة وإلى خطاب الله تعالى ، ورؤية النور الإلهى رأى العين .

ونتذكر النبى موسى عندما طلب الإراءة لأنه يعلم أنه بطبيعة تكوينه لا يرى ، ولكن الله يقدر على أن يُريه . فطلب موسى عليه السلام من ربه تعالى الإراءة كما حدث للنبي محمد ﷺ فى آية الإسراء الأرضية ﴿لِنُرِيَهُ﴾ ، فرد الله تعالى على موسى قال : ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ . فكان المانع من الرؤية من جهة موسى . ولم يقل الله تعالى : «لن أرى» . . إذن فالله يتجلى على خلقه ؛ منهم من يتحمل التجلى ومنهم من لا يتحمل . . ومن رحمة الله تعالى بنا أنه لا يتجلى لنا ، لأن طبيعة تكويننا لا تتحمل ذلك التجلى .

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ : إنه إخبار من الله تعالى ولم يكن إخباراً من محمد ﷺ . وعن الشيخ الشعراوى أنه قال : ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ﴾ : ماذا رأى؟ رأى الآية الكبرى التى هى أكبر الآيات . . وكان جبريل معه فى الأرض ، وكان يشاركه هذه المراتى وفى السماء أيضاً كان معه جبريل ، ولكن الآية الكبرى كانت فى المرحلة الأخيرة التى توقف قبلها جبريل ولم يتقدم إليها ، وانفرد رسول الله ﷺ بها ، قال الله عز وجل : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ أى : دنا من ربه ، أو دنا ربه منه ، ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ .

المراتى،

- ١ - عرض عليه جبريل كأسين من لبن وخمر فاختر اللبن ، فقال له جبريل : هُديت الفطرة .
- ٢ - مر على قوم يزرعون ويحصدون فى نفس اليوم : هؤلاء هم المجاهدون ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ .
- ٣ - مر على آخرين يأكلون النار ؛ وينحبر أنهم الذين يأكلون أموال اليتامى ، مصداق قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء : ١٠) .

رسول الله ﷺ رأى فى هذه المراتى أشياء تكرر المنهج الإسلامى : فأول شىء يعرض لنا مسألة الفطرة وتغير الفطرة ، عرض عليه كأس من لبن وكأس من خمر فاختر اللبن ، فقال جبريل له : هُديت الفطرة . فاللبن على فطرة خلقه ، وأما الخمر فقد تدخل الإنسان فى صناعتها فأفسد فطرة خلقه . . ونستنبط من هذا فساد كل شىء أخرجناه عن فطرته السليمة .

٤ - رأى امرأة عجوزاً وعليها كل زينة ، وينحبر أنها الدنيا ؛ «لم يبق من عمر الدنيا إلا كما بقى من عمر هذه» فما الذى يجعلنى أجعل الدنيا كل همى؟

٥ - رأى أناساً والمقص يقص شفاههم وألسنتهم ، وأخبر أنهم خطباء الفتنة الذين يقولون ما لا يفعلون . إن هذه المراتى جعلها الله كوسائل إيضاح لبعض الأمور التى تتعلق بالدعوة والقيم الإسلامية الصحيحة والمنهج الإسلامى العظيم .

- ٦ - رأى قومًا لهم أظفار من نحاس يخدشون بها وجوههم ، وسأل فأخبر أنهم الذين يغتابون الناس ، ورأهم مرة أخرى يأخذون قطعًا من لحومهم يأكلونها ، وهذه المرائي توضح بشاعة الغيبة .
- ٧ - ورأى قومًا أمامهم لحم طيب ، يتركونه ويقبلون على لحم منتن فسأل ؛ فأخبر أنهم الزناة ، إن الرجل تكون عنده المرأة فى الحلال فيتركها ويذهب إلى المرأة فى الحرام ، وكذلك إذا فعلت المرأة .
- ٨ - رأى ثورًا عظيمًا قد خرج من جحر يريد أن يرجع إلى الجحر مرة ثانية فلا يستطيع ، وسأل فقيل : مثل الرجل يقول الكلمة ثم يحاول أن يرجعها فلا يستطيع . . ويتعلم منها المسلم أن الكلمة قبل أن ينطقها فإنه يملكها ، فإذا تكلمها ونطق بها ، ملكته .
- ٩ - رأى رجلا يحمل حملا لا يقدر عليه ومع ذلك يمد يده إلى شيء آخر ليضيف حملا على نفسه ، وسأل فأخبر : هؤلاء هم الذين يحملون الأمانات ويعجزون عن أدائها .
- ١٠ - رأى قومًا يرضخون رءوسهم بالحجارة ، وكلما رضخت عادت كما كانت ، فيعاودون ضربها بالحجارة ، فتتحطم ثم ترد مرة أخرى ثم ترضخ ، وسأل فقيل له : هم الذين يتكاسلون عن الصلاة ، وهم يضربون رءوسهم لأن التثاقل عن الصلاة عملية فكرية . . ففكرة التكاسل عن الصلاة تنبت فى رأس الرجل ، فالرأس الذى سول بالتكاسل عن الصلاة يستحق هذا الجزاء .
- والصلاة فرضت فى المعراج ، وهذه المرائي لقوم قبل أن تفرض الصلاة عليهم فكيف يعاقبون على تكاسلهم فى الصلاة ، وكذلك الأمر فى أكل الربا ، وأكل مال اليتامى ؟
- إنها صور تدل على تشريعات اجتماعية لم تكن قد فرضت بعد فما هى دلالة ذلك ؟
- نقول : إن الكون كله معلوم لله دفعة واحدة ، وكأن الله تعالى أمد رسوله بنهايات هذه الأشياء . وقد يقال : إن المرائي حدثت حتى إذا ما استقبلت تكليفاً بعد ذلك أقبل عليها الناس بلهفة وشغف ؛ لأنهم علموا مسبقاً ماذا يكون جزاء من يخالف منهج الله فى هذه الأشياء .
- وقد يقال إن المرائي لأمر ستحدث مستقبلا ، فلماذا لا يتكلم الله تعالى عنها بصفة الاستقبال ؟ نقول : إن ذلك فى عرف البشر وزمنهم فقط ، أما بالنسبة لله فلا يوجد حال ولا ماض ولا مستقبل ، كما قال تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ .
- وكيف يقول : أتى الأمر . بصيغة الماضي وبعد ذلك يقول : لا تستعجلوه ؟ وهل تستجعل إلا ما لم يأت بعد ؟
- إذا تحدث القرآن عن «أمر الله» : أتى ، أو يأتى وسيأتى ، فهو أت لا محالة ، فكأنه قد أتى ، فلا زمن عند الله . فالماضى والحاضر والمستقبل عند الله واحد .
- وكذلك المرائي وإن كانت ستأتى بعد ذلك ، والمخالفون سيأتون بعد ذلك ، إلا أن الله أعد لهم ذلك الجزاء ، وإن كان قبل أن يوجد التكليف ؛ لأن أمر الله لا يخضع لزمن .
- وكيف كانت إمامة رسول الله ﷺ للأنبياء فى الصلاة فى بيت المقدس قبل المعراج والصلاة لم تكن فرضت بعد ؟
- نقول : الصلاة بشكلها الإسلامى الكامل لم تفرض إلا فى ليلة المعراج ، أما قبل المعراج فكانت الصلاة مثل صلاة النبی إبراهيم .

إذن كان هناك صلاة ، ولكن ليست كالصلاة المفروضة علينا ؛ لأن صلوات الرسل كانت مرتين فى اليوم . . ركعتين فى أول النهار وركعتين فى آخر النهار : شكل خاص فى القيام ، وشكل خاص فى الركوع ، وشكل خاص فى السجود .

إن المرائى التى رآها رسول الله ﷺ رأى فيها مصير أعمال الناس فى الدنيا وما سيكون من أمرهم فى الآخرة ، وبذلك حذر أصحابه من الافتتان بالدنيا .

أطلع الله على جزاء المجاهدين فى سبيل الله حتى لا يثاقل المسلمون عن الجهاد ، ويرضوا بالحياة الناعمة ويطمئنوا بها وينسوا الآخرة .

أطلع الله على الجنة ونعيمها حتى يطمع فيها كل مؤمن مخلص لله ولرسوله ، أطلع الله على مصير المعتدين والظالمين والعصاة وخطباء الفتنة ومروجى الإشاعات الظالمة والمتثاقلين فى الصلاة .

أراه الله النار وأطلع على أهلها ، ليحذر المؤمنين منها ويحذرهم من الطريق إليها .

أراه الله تعالى الصورة المشرقة لمجتمع الإيمان والمبادئ الكريمة والمثل العليا ، والصورة القاتمة للمجتمعات الضالة المنحلة ، لينشئ خير أمة أخرجت للناس يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله ورسوله .

لذلك انطلق رسول الله ﷺ إلى هدفه لا يعبأ بصعوبات الحياة ولا تمنعه معوقات الدنيا ولا تهزه العواصف . . ولا يخاف الموت ولا يهاب الأعداء . . ونذكر ما قاله الإمام على : كان إذا حمى وطيس القتال احتمينا برسول الله ﷺ .

فالإسراء والمعراج كانت رحلة فيها أعظم نعمة أنعمها الله تعالى على رسوله ، وأعظم نعمة أنعمها الله على عباده ، وهى الصلاة .

نورالنبى محمد أول ما خلق الله

جاء فى «كشف الخفاء ومزيل الإلباس» لإسماعيل بن محمد العجلونى المتوفى سنة ١١٦٢هـ أن جابراً بن عبد الله قال : قلت يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، أخبرنى عن أول شىء خلقه الله قبل خلق الأشياء . قال : «نور نبيك يا جابر ، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث يشاء الله ، ولم يكن فى ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملك ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جنى ولا إنسى» . إلى آخر الحديث النبوى . وفى رأى كثير من العلماء أن هذا حديث موضوع . ولكننا نرى أن هناك كثيراً من الأدلة على أنه حديث صحيح .

الحديث الشريف يذكر تصريحاً أن نور النبى محمد هو أول ما خلق الله تعالى ، قبل خلق الكون وما فيه ومن فيه ، وقبل خلق الملائكة . حتى لا يلتبس الأمر على القارئ نؤكد له أن الكلام عن خلق نور النبوة ، وليس عن خلق النبى محمد ﷺ بشراً ؛ لأنه لم يخلقه الله تعالى بشراً إلا فى مكة سنة ٥٧٠م . وأما نور النبوة فقد خلقه الله تعالى قبل خلق أى خلق ، وجعله الله نبياً قبل خلقه آدم ، هذا عن خلق النور النبوى ، فماذا عن نبوته؟

أخرج الإمام أحمد فى المسند عن عبد الله بن شقيق عن رجل قال قلت : يا رسول الله ، متى جعلت نبياً؟ قال : «وآدم بين الروح والجسد» .

وأخرج الترمذى فى سننه عن الأوزاعى عن يحيى بن كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قالوا يا رسول الله ، متى وجبت لك النبوة؟ قال : «وآدم بين الروح والجسد» .

هذه الأحاديث النبوية المشرفة تدل على أن الله تعالى خلق نور محمد ﷺ قبل أن يخلق آدم بزمان طويل . . هذا ما قرره أول سورة الرحمن فى قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ الرحمن موجود أزلاً ، لا له قبل ، ولا له بعد ، ولا أول له ولا آخر ، ولا يحيزه زمان ولا مكان لأن الزمان والمكان مخلوقان ، ومحال أن يحيز المخلوق خالقه .

والقرآن كلام الله ، وكلام الله صفة من صفاته ، والقول فى الصفة كالقول فى الموصوف ، لذلك فالقرآن أزلى أيضاً . . وقضى الرحمن أزلاً أن يُعَلِّمَ هذا القرآن ، يعلمه لمن ؟ . إنه لم يعلمه لآدم ؛ لأن آدم أتى بعد ذلك ذكره فى قوله تعالى ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ والإنسان هو آدم كما قال السلف الصالح . . والمقبول عقلاً أن الرحمن علم هذا القرآن لمن خلقه قبل آدم ، والذى قدر أزلاً أن يكون رسولاً ومبلغاً للقرآن إلى العالمين جميعاً . . وبعد ذلك ذكرت السورة : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ . كل علم له ثلاثة أطراف : علم ومعلم ومتلقٍ للعلم : المعلم هو الرحمن ، والعلم القرآن ، فمن المتلقى للعلم؟ لا يوجد إلا النبى محمد ، فالرحمن لم يُعَلِّمَ القرآن لآدم . . وإنما لحمد ﷺ الذى سيبعث بهذا القرآن فى آخر الزمان . . وإنما علم الله آدم الأسماء كلها وفيها كل بيان . . من هذا نفهم أن خلق نور النبى محمد وتعليمه القرآن ، كان سابقاً على خلق آدم وتعليمه البيان . . لذلك لما سأل جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سيدنا رسول الله ﷺ عن أول ما خلق الله قبل خلق الأشياء قال : «نور نبيك يا جابر» .

وبعد أن خلق الله آدم وعلمه الأسماء كلها ، هيا الحياة الدنيا لحياة الإنسان . . قال تعالى : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ . (الرحمن : ٥-٧) . والقرآن هو الحق والعدل ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ .

واختلف أهل العلم : هل سبق خَلْقُ أى شىء ، خلقَ النور النبوى؟ نقول : لا . . فقد جاء فى أحكام ابن القطان فيما ذكره ابن مرزوق عن على بن الحسين عن أبيه عن جده أن النبى محمداً ﷺ قال : «كنت نوراً بين يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف سنة» . وهى سنوات من أيام الله عز وجل لا يعلم مداها إلا الله . وكل ما نعلمه يقيناً أنها ليست مثل أيامنا نحن على كوكب الأرض ﴿وَأَنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج : ٤٧) ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج : ٤) .

وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «كان الله ولم يكن شىء معه ثم خلق عرشه على الماء» . وفى هذا الدليل أن خلق نور النبى كان قبل خلق العرش والماء وقبل خلق كل شىء .

إذن لرسول الله ﷺ وجودان : وجود سابق على خلق الكون ، وفيه علمه الله القرآن ، وكان النبى نوراً بين يدي ربه ، ووجود آخر له فى الدنيا فى مكة المكرمة سنة ٦١٠م* ، يتلقى الوحي من ربه بواسطة جبريل ليبلغ الرسالة ويعلم الأمة . وفى ذلك يقول الله عز وجل فى سورة العلق : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ . إنه عود على بدء . . والبدء كان تعليم القرآن للنبى قبل خلق الكون وما فيه من أشياء ، ووجبت له النبوة قبل خلق آدم «وآدم بين الروح والجسد» . . طُلب منه أن يقرأ فقال : «ما أنا بقارئ» (ما) تدل على النفى وليس على الامتناع . فقوله ﷺ : «ما أنا بقارئ» . ينفى قدرته على القراءة ، ولا يدل على الامتناع عن القراءة ، فهو لم يقل : «لا أقرأ» .

* كان أول يوم من البعثة سنة ٦١٠م الموافق ١٧ رمضان وكان يوافق ٦ أغسطس سنة ٦١٠م «كتاب السيرة النبوية لأبى الحسن على الحسنى الندوى» .

لأن الذى يقول «لا أقرأ» يكون خارجاً عن الإسلام . فالقرآن الكريم منزل إلى من يقبل الدخول فى الإسلام . .
نزل الأمر لرسول الله بالقراءة ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ولماذا لم ينزل الأمر بالكتابة ، والكتابة مقدمة
على القراءة ، وكل ما يُقرأ لابد أن يكون مكتوباً؟ ذلك لأن القرآن كان مكتوباً ومسطوراً فى بيت العزة فى السماء
بلغة عربية كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف : ٢) .

والآيات الخمس الأولى فى مطلع سورة العلق تحدد معنى الرسالة :
﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ
يَعْلَمْ ﴾ . ابتداء بالقراءة وانتهى بالعلم . . وبين القراءة و العلم كان الخلق ، إشارة إلى أن الخلق إنما بنى على العلم . .
وأن الرسالة رسالة علم .

والنبي ﷺ تعلم القرآن من قبل الله عز وجل عندما كان نوراً بين يدي ربه تعالى ، قبل خلق أى خلق . . ولما
بعثه فى الدنيا بشراً رسولاً . . أمره بقراءة القرآن وتبليغه للناس وتعليمهم الكتاب والحكمة وتعليمهم ما لم يكونوا
يعلمون . . كما قال تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ١٥١) .

ووجود النور النبوى قبل خلق ملكوت العرش وما فيه ومن فيه ، وقبل خلق الملائكة أيضاً ، يضيف على الرسول
مكانة عليا لم يصل إليها مخلوق من قبل ومن بعد . . ومهما تصور الناس من مكانة عليا لرسول الله وشرف
أسمى له ، فإن مكانته أعظم من ذلك ؛ لأن مكانته من مكانة القرآن ؛ ولأن شرفه من شرف الرسالة ، وسموه من
سمو نوره الذى كان بين يدي الله عز وجل قبل خلق أى خلق .

وهنا يجب علينا أن نتذكر دائماً أن النبي ﷺ عبد الله ورسوله . . وأن الله عز وجل لا له قبل ولا له بعد ،
ولا له بداية ولا له نهاية ، ولا يحيزه زمان ولا مكان ، وأن ذاته عز وجل لا يعلمها أحد سواه ، وأنه تعالى ليس
كمثله شئ ولا تدركه الأبصار . . وإنما نعرفه تعالى من جمال صفاته وجمال أفعاله . . أما النبي فهو عبده ،
وشرفه الله تعالى على جميع خلقه . .

ولقد أثر عن النبي ﷺ أنه قال : «أدبنى ربي فأحسن تأديبي» . ولم يقل (علمنى ربي) لأنه ﷺ من بدء
خلقه كان نوراً بين يدي ربه ، هنالك علمه القرآن . . وعندما بعثه الله تعالى بعد ذلك بشراً رسولاً ، إنما خلقه
مفطوراً على العلم بالقرآن سلفاً ، وبعد ذلك أدبه فأحسن تأديبه .

٩ وجود النبي محمد ﷺ

للنبي محمد ﷺ مكانة عند ربه لم تكن لمخلوق من قبله ولا من بعده ، حتى إن الله عز وجل قرن الشهادة
بوجوده ووحدانيته ، بالشهادة بوجود نبيه وحمله الرسالة ، فالركن الأول للإسلام «أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد
أن محمداً رسول الله» .

وهما حقيقتان «لا إله إلا الله» ، و«محمد رسول الله» متلازمتان لا تفترقان ، فهما كل لا يتجزأ فى الركن
الأول للإسلام ، ولا يصح الركن الأول للإسلام بالنطق بالشهادة بأى من الشهادتين دون الأخرى ، بل لابد من
النطق بالشهادة بهما معاً ، كما نلاحظ أن كلا من الحقيقتين مكون من اثنى عشر حرفاً . . بما يعطينا دلالة
أخرى ، وهذا يجعلنا نعتقد بوجود أسرار نورانية كبرى فى شهادتنا ، (وأشهد أن محمداً رسول الله) . .

إن وجود النبي محمد ﷺ حقيقة تدهش العقول ، عقول عامة الناس ، وعامة المؤمنين ، أما خاصة العلماء وخاصة المؤمنين ، فهم يعلمون هذه الحقيقة ولا تغيب عنهم . يشهد ملايين البشر بوجود الله ووحدانيته ، وبوجود رسول الله ، وتنطق بالشهادة ملايين الألسنة ، وتجأر ملايين البشر بالشهادة فى كل لحظة من اللحظات منذ أربعة عشر قرناً من الزمان وإلى يوم القيامة .

ونحن نتحدث عن النبي محمد ﷺ ، نذكر أن الأذان يرتفع لكل صلاة فى كل وقت من الأوقات على ظهر هذه الأرض وبدون انقطاع ، وتتحرك الألسنة وتهتف القلوب بهذا الاسم العظيم الكريم (محمد رسول الله) . ويقوم الناس للصلاة فى كل مسجد فى الأرض وتنطق شفاههم بهذا الاسم العظيم الكريم .

وإذا علمنا أن كوكب الأرض الذى نعيش فيه ، كروى الشكل ، ويدور حول محوره أمام الشمس ، وبدون انقطاع ، أدركنا أن مواقيت الصلاة وارتفاع الأذان بها ، لا ينقطع عن كل جزء فى هذه الأرض فى أى وقت .

فأذان الفجر مثلاً يرتفع فى القاهرة بعد أن ينتهى من منطقة القناة ، وما أن ينتهى فى القاهرة حتى يرتفع فى الإسكندرية ، وما أن ينتهى فى الإسكندرية حتى يرتفع فى العلمين . . وما أن ينتهى فى العلمين حتى يكون الناس فى انتظاره فى مرسى مطروح . . وهكذا فى كل مناطق سطح الأرض ، يرتفع الأذان للصلوات الخمس بصورة مستمرة لا تنقطع فى أى لحظة من اللحظات ، وتتحرك الملايين من ألسنة البشر وتنطق ملايين الشفاه بهذا الاسم العظيم «محمد رسول الله» ، دائماً وأبداً وبدون انقطاع ، منذ أربعة عشر قرناً من الزمان وإلى يومنا هذا ، وإلى ما شاء الله ، وكذلك فى السماء - حيث لا يتتابع فيها ليل أو نهار - لا تنقطع صلاة الملائكة على النبي أبداً ، منذ أن خلقهم الله تعالى وإلى يوم القيامة ؛ لقول الله عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب : ٥٦) .

نلاحظ من الآية الكريمة أن صلوات الله وملائكته على النبي سابقة على صلاة الناس على النبي ، ومن غير المعقول أن الله يصلى ويأمر الملائكة بالصلاة على غير موجود . . من هنا تبدولنا حقيقة هائلة جداً ، وهى أن النبي ﷺ كان له وجود فى عالم الغيب ، قبل أن يخلقه الله تعالى بشراً فى مكة سنة ٥٧٠ م .

ولكن متى بدأ الله تعالى يصلى على النبي ؟

كلمة (متى) تدل على زمن . . والزمن مخلوق . . ولا تجرى قوانين أى مخلوق على قدرة الخالق وأمره . . فلا بد أن يكون الله عز وجل صلى على نبيه أولاً . .

ومتى أمر الله ملائكته بالصلاة على النبي ؟

قوله تعالى : ﴿وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ أى أن الله تعالى فرض على الملائكة الصلاة على النبي منذ أن خلقهم الله وإلى يوم القيامة . . وقد يكون الملائكة المفروضة عليهم الصلاة على النبي فريقاً من الملائكة وليس جميعهم . . لأن الملائكة فرق . . وكل فريق مكلف بالقيام بأمر من أمور الله تعالى .

ومهما يكن من أمر ، فإن الملائكة كانوا يصلون على النبي عندما خلقه الله قبل وجوده بشراً حياً فى الدنيا ، وبعد وجوده فى الدنيا بشراً ، وبعد موته والتحاقه بالرفيق الأعلى أيضاً . . أما المؤمنون فقد أوجب الله تعالى عليهم الصلاة والسلام على النبي منذ نزول الرسالة عليه فى مكة سنة ٦١١ م وطوال حياته فى الدنيا ، وبعد وفاته والتحاقه بالرفيق الأعلى . . فى كل عصر من العصور وإلى يوم القيامة . . صلاة وسلاماً دائماً وبدون انقطاع .

ودل كل ما سبق على أن للنبي محمد ﷺ وجوداً قبل خلقه فى الدنيا بشراً ، ووجوداً فى حياته الدنيا بشراً رسولاً ، ووجوداً بعد موته والتحاقه بالرفيق الأعلى . إلا أن كيفية وجوده ﷺ حياً ، كان يختلف باختلاف الأحوال ، فوجوده قبل خلق الملائكة لم يكن بشراً ، وإنما كان نوراً قدسياً - لأن الله تعالى سماه فى القرآن

«النور» ، ووجوده أثناء حياته الدنيا كان بشراً رسولاً وسراجاً منيراً ، ووجوده بعد موته ، كان حياً يرزق ولكن بقانون الأموات الذى تكون فيه الحياة أكثر وعياً وإدراكاً وحساً من الحياة بقانون الأحياء .

ولعل كل ما سبق يعطينا دليلاً على صحة إسناد حديث جابر رضى الله عنه ، الذى رواه العجلونى فى (كشف الخفاء ومزيل الإلباس فى الأحاديث المشتهرة على السنة الناس) أن جابر بن عبد الله رضى الله عنه سأل رسول الله ﷺ قال : قلت : يا رسول الله بأبى أنت وأمى أخبرنى عن أول شىء خلقه الله قبل خلق الأشياء قال ﷺ : «نور نبيك يا جابر ، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله ، ولم يكن فى ذلك الوقت لا شمس ولا قمر ولا سماء ولا أرض ولا ملك ولا جن ولا إنس» إلخ الحديث الشريف ، وجاء فى (كشف الخفاء) أيضاً أن السدى روى بأسانيد متعددة أن أول ما خلق الله تعالى من الأنوار نور النبى محمد ﷺ - يعنى قبل خلق الملائكة من نور .

وفى أحكام ابن القطان فيما ذكره ابن مرزوق عن على بن الحسين عن أبيه أن النبى ﷺ قال : «كنت نوراً بين يدي ربي قبل خلق آدم» .

تخبرنا أحاديث جابر والسدى وعلى بن الحسين رضى الله عنهم أن الله تعالى خلق النبى محمداً نوراً قدسياً ، قبل خلق الملائكة من نور ، وقبل خلق أى خلق ، وما أن خلقه نوراً حتى أمر الملائكة أن تصلى عليه . . أما كيف كانت الملائكة تصلى على النبى . فلذلك حديث آخر . . وإنما يهمنا فى حديثنا أن نستدل من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على وجود النبى ﷺ نوراً فى عالم الغيب ، قبل وجوده فى الدنيا بشراً رسولاً .

إن الله تعالى خلق نور النبوة المحمدية ، ومعنى هذا أن النبى النور لم يكن مع الله أزلاً . . لأنه مخلوق . . والمخلوق لا يكون أزلياً ، وإنما هو عبد من عباد الله يسجد لخالقه تعالى ويسبح بحمده . . ولم يخلقه الله تعالى فى الدنيا بشراً إلا سنة ٥٧٠م وأنزل عليه الوحي سنة ٦١١م وتوفاه الله تعالى سنة ٦٣٣م .

وهناك أدلة على صحة حديث جابر وحديث السدى وحديث على بن الحسين التى تخبرنا عن وجود النبى نوراً قدسياً قبل خلق أى خلق :

أولاً : قول الله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ . . فلا يأمر الله تعالى الملائكة أن تصلى على غير موجود ، ولو لم يكن النبى موجوداً ما أوجب الله تعالى على الملائكة أن تصلى عليه .

ثانياً : فى سورة الرحمن قال الله عز وجل : ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ .

﴿الرَّحْمَنُ﴾ أول آية . . وهى كلمة واحدة . . لأن الله تعالى كان وحده أزلاً ولم يكن شىء معه . . واسم

﴿الرَّحْمَنُ﴾ يلى اسم الجلالة الأعظم ﴿الله﴾ كما فى البسملة «بسم الله الرحمن الرحيم» . وكما قال تعالى :

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (الإسراء : ١١٠) . والرحمن لا له قبل ولا له

بعد . . ولا يحيزه زمان ولا يحيزه مكان . . وفى الحديث الصحيح «أن الله عز وجل حجاب النور ، لو كشف

الحجاب عنه لأحرقت سبحات وجهه (أى نور وجهه) ما انتهى إليه بصره من خلقه» . . لذلك سمي نفسه

«الرحمن» قال : ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ولم يقل (الله . علم القرآن) . . لأنه تعالى كتب على نفسه الرحمة

قال تعالى : ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام : ١٢) ، وأخرج البخارى فى كتاب التوحيد عن أبى رافع أنه سمع

أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق ؛ إن رحمتى سبقت

غضبي . فهو مكتوب عنده فوق العرش» . وجعل النبى محمداً رحمة للعالمين ؛ قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً

لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ (الأنبياء: ١٠٧) . . وفي الآية أسلوب قصر يدل على أن النبي ﷺ ورسالته مقصور على العالمين رحمة بهم ، وكان النبي ﷺ يقول : «أنا الرحمة المهداة» . والرحمن على وزن فعلا ن يدل على شمول الرحمة للعالمين جميعاً . و«الرحمن» اسم مثل اسم «الله» لا يُسمى به إلا الله تعالى . . ولا يطلق على سواه .

قال تعالى ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ والعلم يدل على معلم ومتلق للعلم . . العلم هو القرآن والمعلم هو الله . فمن المتلقى للعلم؟ إنه لم يكن آدم . . لأن آدم لم يكن قد خلق بعد . . كما أن الملائكة لم يكونوا قد خلقوا بعد . . وكذلك الجن لم يكونوا موجودين في الكون . . فمن هو المتلقى لتعليم القرآن من لدن الله؟ إننا بطريق الاستدلال العقلي والاستنباط ، نجد أنفسنا أمام حقيقة ، لا نجد غيرها ، ألا وهي أن المتلقى لتعليم القرآن من لدن الله عز وجل كان النبي محمداً ﷺ الذي اصطفاه الرحمن ، وقدر أن يخلقه في زمن معين ومكان معين ؛ لينزل عليه هذا القرآن ليعلمه للأمة . . وللعالمين جميعاً ، وإلى يوم القيامة . . الله عز وجل علم القرآن لنبيه ورسوله محمد ﷺ ، وفطره عليه خلقاً وخلقاً وفكراً وقولاً وعملاً . . فقد بعثه بشراً رسولاً في مكة سنة ٦١٠م مفطوراً على تعلم القرآن ومجبوراً على الدين ، فكان خلقه القرآن وكانت حياته الدين ، وكان قرأنا يمشى على الأرض . . ولما نزلت سورة الأنعام دفعة واحدة وحياً على النبي محمد ﷺ في مكة . . قرأها لأصحابه . . وعدد آياتها ١٦٥ آية . . فقالوا له : أعدّها يا رسول الله . . فأعاد تلاوتها عليهم ، ولم تتلعثم في فمه كلمة ، ولم يسقط من شفثيه حرف . . وذاكرة الإنسان مهما بلغت قوتها ، لا تصل إلى هذا الحد . . ولا تفسير لذلك إلا أنه ﷺ قد فطره الله على القرآن خلقاً وخلقاً وفكراً وقلباً وعملاً . .

والعلم يسبق التأديب به . . فالإنسان إذا اكتسب علماً يكون قد تعلم ما لم يكن يعلم من قبل . . أما التأديب ، فهو تهذيب العقل والنفس وتهيئتهما لحسن الفهم والتناول لكل ما يحمد من العلم . . لذلك كان رسول الله ﷺ يقول لأصحابه : «أدبني ربي فأحسن تأديبي» . ولم يقل (علمني) لأن الله تعالى علمه سلفاً قبل خلق أي خلق . . وخلق بعد ذلك بشراً رسولاً مفطوراً على العلم وأدبه ربه فأحسن تأديبه .

ونقرأ قول الله عز وجل : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ * سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الزخرف: ٨١، ٨٢) .

ونلاحظ أنه لم يقل (قل إن كان لله ولد) ليوافق ما جاء في سورة الرحمن ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ وكان أول ما خلق نور نبيه محمد الذي علمه القرآن . . ولو كان للرحمن ولد ، لكان النبي محمد أول العابدين للرحمن وولده . . ولكن النبي محمداً خلقه الله تعالى نوراً قدسياً فسجد لله تعالى الذي لم يكن معه ولد ، ولم يكن معه شريك في الملك .

وفي تفسير القرطبي يقول مجاهد : المعنى لو كان للرحمن ولد فأنا أول من عبده وحده على أن لا ولد له . وقال السدي : المعنى لو كان له ولد كنت أول من عبده على أن له ولداً ، ولكن لم يكن له ولد . قل إنني لا أنكر ولده الذي زعموه لأجل العناد والمنازعة ، إلا أنه لم يوجد هذا الولد مطلقاً . . ولم يقم أي دليل على وجوده فكيف أقول : إنه موجود ، ولقد أشارت آية سورة الزخرف إشارة لطيفة إلى أن النبي محمداً كان أول من خلق الله من الخلق . . وتحمل الآية وجوهاً أخرى من العلم ، وهي أن الله يقول لرسوله : «قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول من كان يعبده لأنني أسرع المؤمنين إلى طاعة الله تعالى» .

ثالثاً : دليل آخر على أن نور النبي محمد كان موجوداً قبل خلق آدم : ما رواه الإمام أحمد في المسند عن عبدالله بن شقيق عن ميسرة الفجر : قيل : يا رسول الله متى جعلت نبياً؟ قال : «وآدم بين الروح والجسد» .

وأخرج الإمام الترمذي عن الأوزاعي عن يحيى بن كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قالوا يا رسول الله متى وجبت لك النبوة؟ قال : «وآدم بين الروح والجسد» . وقال : هذا حديث حسن صحيح .

رابعاً : قال تعالى عن نبيه محمد : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ (المائدة : ١٥) . وصفه الله تعالى بالحال التي كان عليها قبل بعثته في مكة سنة ٦١٠ م ، وهو النور . . وقال : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ فالنور النبوي والقرآن جاءا من الله تعالى للعالمين جميعاً ، وذكر النور قبل ذكر الكتاب المبين .

ولما بعثه الله تعالى بشراً رسولاً في مكة وصفه بالنور أيضاً قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴾ (الاحزاب : ٤٦) . وكان الرسول بشراً . . له مثل بشرتنا ولكن كان بشراً يوحى إليه ، بشراً متصلاً بالوحي ، بشراً ليس كمثله بشر . . هو سيد البشر وهو معلم العالمين جميعاً وهو الرحمة المهداة للخلائق قاطبة . . كان له مثل بشرتنا إلا أنه كان يسمع ما لا نسمع ، ويرى ما لا نرى . قال النبي ﷺ في حديث له : «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون» . . ولما سئل عن الوصال في الصيام - يعنى صيام أكثر من يوم بدون إفطار أو سحور - قالوا : إنا نواصل كما تواصل يا رسول الله . . فنهى عن ذلك وقال : «إني لست كهيتتكم ، إني يطعمني ربي ويسقيني» .

وفي ليلة الإسراء والمعراج أكسبه الله ملائكية أكثر من ملائكية جبريل . . وتقدم لمقابلة ربه عز وجل ، وتأخر جبريل عليه السلام قال : أنت إذا احترقت انطلقت وأنا إذا احترقت احترقت . . ورأى نور وجه الله عز وجل وكلمه ، وكلمه ربه . . وعاد من رحلتى الإسراء والمعراج فى لا زمن . . إنه ﷺ عاش فى الدنيا بشراً رسولاً ، ولكن كانت له خصوصيات لم تكن لغيره من الناس ، وكانت له أحوال لم تكن لغيره من البشر .

وفى سنة ٦٣٣ م توفى النبي محمد ﷺ ودفن فى المدينة ، والتحق بالرفيق الأعلى ، وصار فى حال آخر ، ووجود آخر ، بكيفية أخرى . .

النبي محمد ﷺ حى لاشك فى ذلك ، ومدفون فى قبره فى المدينة . . ولا يظن أحد أنه يتقلب فى قبره ، أو أنه يجلس فيه أحياناً ويفتح عينيه ليرانا . . لا . . إنه ميت كما قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ (الزمر : ٣٠) ، إلا أن الأرض لا تأكل جسده الشريف . . مثله فى ذلك مثل باقى الأنبياء عليهم السلام .

فقد روى الإمام أحمد والأئمة أصحاب السنن ، عن شداد بن أوس ، أن رسول الله ﷺ قال : «من أفضل أيامكم يوم الجمعة ؛ فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة . . فأكثروا على من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة على» . فقالوا : يا رسول الله ، كيف تعرض عليك صلاتنا وقد بليت؟ قال : «إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» .

وقال فى حديث له : «الأنبياء أحياء فى قبورهم» .

وجود النبي بعد موته والتحاقه بالرفيق الأعلى :

نجد لذلك كثيراً من القرائن والأدلة :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ . قول كريم موجه للناس جميعاً فى كل عصر وزمان ومكان وإلى يوم القيامة . . فما زال الله يصلى والملائكة يصلون على النبي ، فدل هذا على وجوده حياً يرزق . ثانياً : ينص القرآن الكريم أن الشهداء أحياء بعد موتهم وأنهم عند ربهم يرزقون . وينص الحديث الشريف على أن الأنبياء جميعاً أحياء ، والرسول أولى من الشهداء والأنبياء بالحياة بعد موته .

ثالثاً : أمرنا الله تعالى أن نسلم على رسول الله فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ فنحن نقول إذا زرنا المسجد النبوى : السلام عليكم أيها النبي ورحمة الله وبركاته . ومن غير المعقول أن نسلم على غير موجود . . فدل سلامنا عليه ، على وجوده حياً .

رابعاً : قال رسول الله ﷺ : «من سلم على رد الله إلى روحى فأرد عليه السلام» ولما كان الناس فى العالم كله يسلمون على رسول الله فى كل لحظة من اللحظات ، فإن الله تعالى يرد إلى النبى روحه فيرد السلام . . وبذلك تكون روحه مردودة إليه دائماً وأبداً . . والروح ليست سر الحياة ولكنها سر الوعى والإدراك . . ولما كان النبى حياً فى قبره فإن رد روحه إليه يعنى رد الوعى والإدراك إليه ليرد السلام .

وهذه خصوصية للنبى محمد ﷺ لأن الأنبياء جميعاً أحياء عند ربهم يرزقون ، ولكن الله لا يرد إليهم أرواحهم إذا سلم أحد عليهم ؛ لذلك لا يردون السلام . . ولكن كيف يرد النبى على من يسلم عليه؟ هذا فى علم الله عز وجل الذى لا نعلم نحن عنه بأكثر من أنه موجود .

ولكن حياة النبى ﷺ فى قبره ليست مثل حياتنا ، ولكنه حى بقانون الأموات ، مثل حياة الأنبياء فى قبورهم . . والحياة بقانون الأموات أكثر حساً وإدراكاً وحياة من الحياة بقانون الأحياء . . فهو يسمع أكثر مما نسمع ، ولكن ليس بحاسة سمع مثل حواسنا . . ولا يرد السلام بكلام مثل كلامنا .

من كل ما سبق نفهم أن النبى محمداً ﷺ كان له وجود فى علم الغيب قبل خلق أى خلق ، ولم يكن بشراً ولكنه كان نوراً قدسياً ، وكان له وجود فى حياته الدنيا بشراً رسولاً متصلاً بالوحى ومفطوراً على القرآن ويحيا بالدين . . وكان يمر أثناء حياته الدنيا بأحوال ملائكية أكثر من ملائكية الملائكة كما حدث ليلة الإسراء والمعراج . . وبعد وفاته والتحاقه بالرفيق الأعلى كان لا يزال ذاتاً بشرية واعية مدركة ، له وجود وحياة ولكن بقانون الأموات كما قال الله يخاطبه : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ .

وهكذا مر رسول الله ﷺ بمراحل مختلفة من الوجود والحياة ، مراحل تختلف أحوالها وصفاتها ومقاصدها كما أراد الله تعالى لها أن تكون .

١٠ الرسول ﷺ سيد البشر

لا يقدر أحد من الناس - كائنًا من كان - على وصف عظمة سيدنا رسول الله ولا يمكنه أن يقدره حق قدره . . لأن عظمته ﷺ لا تضارعها عظمة إنسان آخر قط ، ذلك لأن عظمته مستمدة من عظمة الرسالة التى بعثه الله تعالى بها . . فهى عظمة ليست كمثلها عظمة بين البشر . . وهى مكانة ليست كمثلها مكانة بين الناس . . إلا أن بعض المفكرين والعلماء لم يدركوا هذه الحقيقة . . ففى سنة ١٩٧٨ نُشر فى الولايات المتحدة الأمريكية كتاب ألفه المفكر الأمريكى مايكل هارت بعنوان :

(The 100. Aranking of th most influential persons in History)

يعنى عنوان الكتاب (أعظم مائة من البشر تأثيراً فى التاريخ البشرى) ووضع مايكل هارت أسساً كثيرة فى بحثه . . ووضع المئات من عظماء التاريخ البشرى واستعان بالكمبيوتر فى بحثه . . فأظهر الكمبيوتر نتيجة البحث : أن محمداً ﷺ هو أعظم إنسان ظهر على هذه الأرض . . وقال : إن محمداً بن عبدالله هو الأول بدون منازع . . وقد وضع هذا الكتاب مؤلفه مايكل هارت فى موقف حرج ، إذ كيف يقول : إن النبى محمداً هو الأول على البشر ، والنبى عيسى الثالث ، والنبى موسى السادس عشر . لذلك بادر فى مقدمة كتابه بالقول : إنه اضطر إلى ذلك بناءً على أسس البحث وقال : إن هذا الترتيب كان بناءً على درجة قوة التأثير فى التاريخ البشرى ، وليس بناءً على درجة القداسة . . وقال : إن محمداً الأول على الجنس البشرى . . وقال : إنها حقيقة قد لا يصدقها كثير من الناس ، وقد يدهش لها بعضهم . . ولكنها الحقيقة التى أظهرتها الدراسة . . وقال : إن محمداً كان الإنسان الوحيد فى التاريخ البشرى الأعظم انتصاراً ونجاحاً ، مع افتقاره الشديد

لأى أسباب انتصار أو نجاح .. فلقد نشأ فقيراً وأميّاً وبتيمّاً .. ولم يكن قبل سن الأربعين متميزاً فى قومه ، ولا يعد من بينهم عظيمّاً .. وفجأة عند سن الأربعين أعلن أن الله قد بعثه برسالة الإسلام .. وكان بين قوم وثنيين أولى بأس وغلظة ، ولم يكن له من أسباب القوة شيء .. ومرت الأحداث .. وانتصر على المشركين انتصاراً مبيناً ، وصار القائد الأعلى الذى دان له الجميع مؤمنين به فى طاعة كاملة ، وحظى باحترام عظيم من قومه ، لم يُحظ به أى ملك من الملوك فى التاريخ الإنسانى كله ، ومازال احترامه عظيماً بين المسلمين حتى اليوم ..

وقال إنه فضل محمدًا لهذه الأسباب وغيرها أيضاً ، فضله على سيدنا عيسى وفضل سيدنا عيسى على سيدنا موسى على أساس قوة التأثير فى التاريخ البشرى . ونحن كمسلمين مأمورون بالألا نفضل نبياً على نبى ؛ لذلك لا نتفق مع ذلك المفكر الأمريكى - فالأنبياء جميعاً متساوون فى العظمة ومتساوون فى الاحترام .. والإيمان بالأنبياء والمرسلين من أركان العقيدة الإسلامية .

اليهود لا يعترفون بنبوّة سيدنا عيسى ولا بنبوّة سيدنا محمد .. والنصارى لا يعترفون بنبوّة سيدنا محمد ﷺ .. أما نحن كمسلمين فنؤمن برسالة سيدنا رسول الله محمد ﷺ وبنبوّة الأنبياء موسى وعيسى والأنبياء جميعاً .. لا نفرّق بين أحد منهم * .. كما قال الله عز وجل : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُتِبَ وَرُسُلِهِ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ (البقرة: ٢٨٥) والضمير فى القول يعود على المسلمين المؤمنين ﴿ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ . فنحن كمسلمين لا نفرق بين أحد من الرسل .. وأى إنسان لا يؤمن برسالة سيدنا موسى أو برسالة عيسى يكون قد خرج عن الإسلام .. ونحن نؤمن أيضاً أن كل الرسل على أعلى قدر من الرفعة والعظمة والاحترام .. لذلك لا نتفق مع مايكل هارت على تفضيل رسول على رسول .. ولقد قال سيدنا محمد ﷺ : « لا تفاضلوا بين الأنبياء » . وقال ﷺ أيضاً : « لا تحيروا بين الأنبياء » . وقال أيضاً : « لا تفضلونى على موسى » . وقال أيضاً : « لا يقولن أحد : أنا خير من يونس بن متى » . فلا يجب مطلقاً أن يقول أحد الناس : النبى فلان أفضل من النبى فلان .. لماذا؟ حتى لا يتوهم أحد من الناس نقصاً فى المفضل .. ولكن من الذى يفضل بين الرسل؟ إنه الله عز وجل الذى يفضل بين رسله ، قال عز وجل ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ (البقرة: ٢٥٣) لا ينبغى لأحد أن يفاضل بين الأنبياء و الرسل .. وإنما يتفاضلون عند ربهم .. فمنهم أولو العزم من الرسل ، ولهم درجة خاصة عند ربهم وهم « آدم .. نوح .. إبراهيم .. موسى .. وعيسى .. ومحمد » وسموا : (أولو العزم) لأن عزائمهم قوية ، وابتلاءهم شديد ، وجهادهم شاق وما من رسول أرسله الله تعالى إلا إلى قومه يبلغهم رسالة ربهم إليهم * إلا سيدنا رسول الله ﷺ فقد جعله الله تعالى خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأرسله للناس جميعاً وللعالمين قاطبة قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبا: ٢٨) ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) . ولم يكن ذلك لرسول من قبله .. إلا أن القرآن الكريم اقتضى التفضيل دون تعيين أحد مفضل .. وسيدنا رسول الله ﷺ نهانا عن أن نفضل بين الأنبياء بالاسم فإن درجة النبوة لا تفاضل فيها من قبل البشر .. وكان أولى بمايكل هارت أن يستثنى الأنبياء من دراسته ويفاضل بين غيرهم من الناس كيف يشاء ..

* كما قال تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٦) .

** كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (إبراهيم: ٤) .

ما أكثر ما كتب الكتابُ والمفكرون والعلماء ، عن عظمة سيدنا رسول الله ﷺ ومكانته ، وما أكثر ما أضفوا عليه من صفاتِ العلو والرفعة . . ولكنهم جميعاً ما كتبوا ووصفوا إلا بعضاً ما يستحق رسولُ الله ﷺ وما قدره حقُّ قدره .

ويعقد بعضُ الكتابِ والعلماءِ مقارناتٍ بين سيدنا رسول الله ﷺ وبين عظماء القادة والزعماء ، عبر التاريخ الإنساني كله ، ويتوصلون من تلك المقارناتِ إلى أن سيدنا رسول الله ﷺ بطلُ الأبطال . . وأعظمُ العظماء . وفي رأينا أنهم في ذلك أخطئوا . . لأنهم عقدوا مقارنةً بين طرفين ليسا من قبيل واحد ، وليسا من مستوى واحد . . فهم جميعاً بشر . . وهو سيد البشر . . وهم جميعاً مهما بلغت عظمتهم ، لن يصل واحد منهم إلى عظمة نبي أو رسول . . وهو سيد الأنبياء والمرسلين . . أى أن مقارنته ﷺ بغيره من عظماء القادة ، مقارنة ما كان يجب أن تكون .

ومن الناس من وضع عباقرة القادة عبر التاريخ البشرى مع سيدنا المصطفى في مقارنة واحدة ، وكأنهم وهو من قبيل واحد . . ولن يشفع لهؤلاء العلماء أن قالوا : إن نتيجة تلك المقارنة أثبتت أن رسول الله ﷺ أكبرُ عباقرة القادة في التاريخ الإنساني . . قولهم هذا يعنى أنهم وضعوه مع عظماء القادة وعباقرة الزعماء في ميزان واحد فرجحت كفته .

إن هذا تجاوز ما كان يجب أن يكون ، فليس قائد أو زعيم في التاريخ الإنساني كله شبيهاً برسول الله أو مثيلاً ، وليس له أن تسمو مكانته عالياً حتى يوضع في ميزان واحد معه أو في مقارنة . . إنهم بذلك ما قدروا سيدنا المصطفى حق قدره ، إن مكانة الرسول ﷺ من مكانة الإسلام ، وعظمته من عظمة الرسالة ، ولا يمكن الفصل بين الإسلام والقرآن ، ولا بين سيدنا رسول الله والرسالة . . وقالت السيدة عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ : « كانت حياته الدين وكان خلقه القرآن » .

وما ينبغى أن نقارن بين عظمة الرسالة الإلهية التى أمر الرسول ﷺ بتبليغها للناس وتطبيقها ، وبين عظمة أى برنامج إصلاحى لقائدٍ من قواد البشر العظام ولا بين مكانة الدعوة الإسلامية ومكانة أى فكر بشرى دعا إليه بطل من أبطال التاريخ .

كما أننا لا نتفق مع الذين يقيسون عظمة الرسول بالمعجزات التى أجزاها الله تعالى على يديه ، فلم يُجرها الرسول ﷺ بنفسه ولا يستطيع ، ولا نتفق مع الذين يقيسون عظمة الرسول ببلوغه قمة الخلق الإنساني ، فى علاقاته مع أهله ومع الناس ، ولا بحكمته فى قيادة الجيوش ، وحُسن سياسته للأمر ، فكل ذلك يمكن أن يحدث لعظماء الناس وقاداتهم وأبطالهم ، الأمر غير ذلك تماماً ، ما من أحد من الناس وصل إلى مكانة الرسول فى أى ميدان ، وكل ما للرسول ﷺ من عظمة وبطولة وسمو هو من الله تعالى وإلى الله ، وكل ما للرسول ﷺ من مكانة عليا ، هى من مكانة الرسالة وإليها ؛ لأن الرسول ﷺ خصه الله تعالى بإلهام النبوة ، وعصمة الرسول ، وأعدّه تعالى إعداداً خاصاً لتحمل الرسالة ، وتبليغها للناس قولا ، وتطبيقها بين الناس عملاً .

إن عظمة الرسول ﷺ نسيج وحدها ، ليس كمثله عظمة بين زعماء البشر ، ومكانته وحده قائمة بنفسها ، لا تضارعها مكانة بطل من الأبطال ، ولا تماثلها عبقرية أحد من البشر . . وإذا أراد أحد العلماء والمفكرين عقد مقارنة بين العظماء فليقارنوا بينهم وبين أى صحابى أو أى بطل من أبطال التابعين . . ولسوف يجدون أن عظمة أى عظيم من الناس ، تتضاءل بجانب عظمة أى صحابى ، فأى عظمة أو بطولة لإنسان وأى علم لدى أعظم العلماء ، يتساوى مع عظمة وبطولة وعلم أحد أصحاب النبی ﷺ ، أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ؟!

ويجب أن يتذكر أى عالم أو كاتب ، يكتب عن رسول الله ﷺ أنه هو المصطفى ، وأن البشر جميعاً ، لم يقدروا على النهوض بكل ما فى الإسلام من تكاليف وواجبات عبر العصور . . بينما نهض بها سيدنا رسول الله ﷺ وحده ، فهو نهض بما لم تستطع الأمة بأكملها النهوض به . لقد جمع الله عز وجل كل صفات الكمال الإنسانى ، فى فرد واحد هو سيدنا رسول الله ﷺ ، فكل صفات الكمال الإنسانى مجتمعة فى إنسان واحد ، ومنتشرة فى أمة بأكملها على مر العصور .

قال الله تعالى عنه : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ . فوصف خلقه بالعظمة ، هى بتقدير الله عز وجل له ، وليس بتقدير مخلوق آخر له ، وينبغى أن نفهم معنى قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ على هذا النحو . ولقد أكد الله تعالى هذه الحقيقة مرتين ، مرة «بيان» ومرة باللام فى خبر إن «العالى» فلم يقل «الرسول على خلق عظيم» . ولكنه تعالى قال : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ . أكد الله تعالى مثال العظمة لرسوله ولخلق فى الآية مرتين . مهما تحدث الناس عن عظمة الرسول فلن يبلغوا مداها ، ولن يدركوا منها إلا كمثّل قطرة ماء من بحر ، ويكفى أنه من أشرف البشر قاطبة ، بل سيدهم ، وخاتم الأنبياء والمرسلين وسيدهم ، وأشرف من جبريل أشرف الملائكة ، بل وأشرف عند الله عز وجل من الكون كله ﷺ .

١٢ محمد ﷺ رسول الله حقاً

الذى يتدبر السنة النبوية المشرفة ، ولو كان غير مسلم ، لابد أن يدرك صدق الرسالة وصدق الرسول ؛ لأن هناك أدلة عقلية ومنطقية تؤكد أن النبى محمداً رسول الله حقاً .

فالإنسان الذى يكذب على قومه ، لابد له من هدف وراء ذلك ، وإلا لماذا يكذب على قومه أصلاً؟ وإذا ادعى إنسان النبوة ولم يكن صادقاً فى دعواه ، فلا بد له من هدف من وراء ادعائه ، مثل طلبه للرئاسة أو الغنى أو الملك . . ورغبته فى الحصول على ذلك تدفعه إلى الاستمرار فى الكفاح . . ولا يتوقف عنه دون القصد . والذى حدث مع رسول الله محمد ﷺ معروف للجميع ، فقد عرضت عليه قريش الثروة والملك فأبى ، ولو لم يكن صادقاً فى دعوته لقبول العرض الذى عرضته عليه قريش ، والذى يلبي له كل ما كان يطمح إليه ، ولكنه رفض رفضاً باتاً ، رفض الملك ، ورفض المال ، ورفض الحكم والرئاسة . . فقد أوفدت قريش عتبة بن ربيعة إلى النبى ﷺ فقال له : «يا ابن أخى . إنك منا حيث قد علمت من المكانة فى النسب ، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها ؛ إن كنت تريد بهذا الأمر مالاً ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر منا مالاً ، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا ، فلا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتىك رثيلاً تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب وبنلنا فيه أموالنا حتى تبرأ» .

فلما فرغ تلا رسول الله ﷺ عليه أول سورة فصلت : ﴿حَمْدٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ .

وبعد ذلك لم تجد قريش بداً من إرسال وفد إلى عمه أبى طالب فقالوا له : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب ألهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، فيما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه .

فأخبر أبو طالب رسول الله ﷺ ما قالت قريش فقال له : «يا عماء ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما فعلت ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه» . . وبكى رسول الله ﷺ وقام ، فقال له عمه : اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لهم أبداً . . فما أفاد الترغيب أو التهيب شيئاً في صرف النبي محمد ﷺ عن دعوته ، ألا يدل كل ذلك على أن النبي ﷺ ما كان يريد من وراء دعوته مأرباً خاصاً ، أو مكسباً لنفسه ، أو ثروة أو جاهاً أو ملكاً ، وأنه كان صادقاً في دعوته إلى الله . . كانت تصرفاته في حياته تدل على صدقه وصدق ما يدعو إليه ، فقد كان وهو في قمة انتصاره على أعداء الرسالة ، يفترش الأرض ولا ينام شعبان قط .

وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها : ما شبع آل محمد من خبز ثلاثاً حتى قضى سبيله ، وما أكل آل محمد أكلتين في يوم إلا كانت إحداهما تمرًا . ولم يؤثر نفسه وأهله على أى فرد مسلم بشيء ، ولم يحصل على مكسب من مكاسب الدنيا ، لم يحصل عليه غيره من الناس .

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : دخلت على رسول الله ﷺ وقد نام على حصير ، وقد أثر على جنبه الشريف ، فقلت : يا رسول الله ، لو اتخذت لك وطاءً تجعله بينك وبين الحصير يقيك منه . قال ﷺ : «ما لى وللدنيا ، ما أنا والدنيا إلا كراكب راحلة استظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها» . وقالت السيدة عائشة : كان لرسول الله ﷺ حصير يحتجزه في الليل فيصلى فيه ، ثم يبسطه في النهار فيجلس عليه ، وكان في طعامه قانعاً زاهداً ، ويقول : «حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه» .

ويوم فتح مكة - وهو في قمة انتصاره - دخل الكعبة فرأته امرأة فأصابتها رعدة من فرط رهبتها منه ، فتقدم إليها وقال : «هونى عليك فما أنا إلا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد» . . وكان يطلب من قومه ألا يقوموا له إذا دخل مجلسهم ويقول لهم : «لا تعظموني كما يعظم العجم ملوكهم» ، وكان لا يجلس في صدر المكان ، ولكن حيث ينتهى به المجلس .

ولم يحرص على أن يترك مالا لأهله بعد موته كما يفعل غيره من الناس ، ولكنه وهو في مرض الموت كان في بيته سبعة دنائير ، فأمر أهله أن يتصدقوا بها . . فنسوا ذلك لانشغالهم بمرضه . . وقبل وفاته بيوم واحد سأل أهله ماذا فعلوا بالدنائير السبعة؟ فقالوا : لاتزال عندنا . . فطلبها ووضعها في كفه وقال : «ما ظن محمد بربه لو لقي الله عز وجل وعنده هذا؟» ثم أمر بها فتصدقوا بها على الفقراء ، وهكذا لقي رسول الله ربه وليس في بيته ولا في يد أهله دينار واحد .

ونتساءل - ونحن نضع العقل السليم حَكَمًا - لو لم يكن الرسول ﷺ صادقاً في دعوته حقاً ، ما الهدف الذي كان يسعى إليه من وراء كل هذا الكفاح ، وكل تلك المعاناة التي استغرقت عمره كله؟ . . لا بد أن وراءه هدفاً أعظم من متاع الدنيا كله . . وهو تبليغ الرسالة إلى الناس جميعاً .

وموقف آخر يدل على صدق الرسول وصدق الرسالة ، وهو موقف من مئآت المواقف ، كان أصحاب النبي يتناوبون في حراسته خوفاً عليه من أن يحاول أعداء الإسلام الاعتداء عليه وهو نائم في بيته وهو بدون حراسة . . وما كان أكثر الأعداء ، وما كانت أشد عداوتهم ورجبتهم في قتله وفي يوم من الأيام قال لحراسه : «اذهبوا عني . . فقد تكفل الله عز وجل بحراستي» . فلقد نزل قوله تعالى في سورة المائدة (٦٧) : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ . «يعصمك من الناس» أى يمنع أذى الناس عنك . . فلو لم يكن الرسول ﷺ صادقاً حقاً في تلقيه من ربه ، ما صرف الحراس عنه ؛ لأنه لو لم يكن صادقاً ، وكذب على الناس ، ما كذب على نفسه ، وعرض

حياته للاعتداء عليها من قِبَل أعدائه وكانوا كثيرين ، وحدث تمامًا ما أخبره الله به ، فقد عصمه من أذى الناس المتكرر وحماه منهم بدون حراسة على بيته .

لذلك أسقط في يد المستشرقين من أعداء الإسلام ، فلم يجدوا مناصًا من أن يقرروا أن محمدًا ﷺ كان صادقًا حقًا في اعتقاده أنه رسول الله ، ولكنه كان مخدوعًا ومتوهمًا!! . . وهكذا تناقضوا مع أنفسهم فهم قد اعترفوا بصدقه إلا أنهم كذبوا برسالته ، فلقد سلموا بصدقه ولكنهم لم يسلموا بصدق الرسالة! وهذا تناقض واضح . . فما دام الرسول كان صادقًا فلا بد أن الرسالة التي أعلن عنها كانت صادقة أيضًا . . فكل ما يصدر عن الصادق يكون حقًا وصدقًا ويقينًا . . وهناك أمر آخر يدحض رأيهم بأن الرسول كان مخدوعًا ومتوهمًا . . لقد أنزل القرآن منجمًا على مدى ثلاثة وعشرين عامًا . . وتحدى الرسول الناس جميعًا أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا . . ثم ذكر القرآن العظيم حقائق علمية لم يكتشفها الناس إلا بعد نزول الرسالة بأكثر من ألف عام . . وحقائق علمية لم يكتشفها العلماء إلا بالميكروسكوب ، والميكروسكوب لم يكن معروفًا للرسول ﷺ ، ولم يخترعه الناس إلا بعد نزول الرسالة بأكثر من ألف عام . . من كل ما سبق يدرك كل إنسان يفكر تفكيرًا صحيحًا ، صدق الرسالة وصدق الرسول .

١٣ اسم النبي ﷺ

من أسماء النبي ﷺ محمد وأحمد :

ومحمد اسم يدل على كثرة خصال الحمد ، وأنه محمود عند الله عز وجل ، ومحمود عند الملائكة ، ومحمود عند إخوانه من الأنبياء والمرسلين ، ومحمود عند العالمين جميعًا . واسمه أحمد أيضًا كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (الصف : ٦) واختصت أسماؤه بالحمد فإن اسمه محمد وأحمد ، وأمه الحامدون ، يحمدون الله في السراء والضراء ، وصلاته وصلاة أمته مُستهلة بالحمد ، وخطبته مفتوحة بالحمد ، ويديه لواء الحمد يوم القيامة ، وهو صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرين ، كما قال تعالى : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (الإسراء : ٧٩) ، وهو ﷺ محمود بما يملأ الأرض من الإيمان والهدى وبيان الظلمات من النور ، وهو ﷺ مشتمل على كل ما يقتضى أن يحمد مرة بعد مرة ؛ لذلك سُمي محمدًا ، وهو اسم على مسمى ، واسم مطابق لمعناه وموافق لمسماه .

والفرق بين أحمد ومحمد :

(١) أن «محمدًا» هو المحمود حمدًا بعد حمد ، فهو دال على كثرة حمد الحامدين له ، وذلك يستلزم كثرة خصاله الحمودة . . أما (أحمد) فهو أفعل تفضيل من الحمد ، يدل على أن الحمد الذي يستحقه أفضل مما يستحقه غيره . . ومن الأمثال العربية : «العود أحمد» أى أكثر حمدًا .

فاسم محمد يدل على كثرة كمية الحمد ، وأحمد يدل على كثرة كيفية الحمد .

(٢) (محمد) هو المحمود حمدًا متكررًا .

و(أحمد) هو الذى حَمَدَهُ لربه تعالى أفضل من حمد الحامدين سواء ، فدل اسم محمد على كونه محمودًا .

ودل اسم (أحمد) على كونه أحمد الحامدين لربه تعالى ، وقد سمي أحمد ومحمدًا لأنه يُحمد أكثر مما

يحمد غيره ، وأفضل مما يُحمد سواء . واسم الفاعل (حماد) أى كثير الحمد .

- واسم النبي ﷺ في التوراة (محمد) كما هو في القرآن ، أما في الإنجيل فاسمه (أحمد) .
- واسم محمد لم يكن شائعاً عند العرب قبل مولد النبي ﷺ فلم يكن يسمى محمداً في العرب إلا سبعة فقط هم :
- (١) محمد بن سفيان التميمي .
 - (٢) محمد بن عثارة الكناني .
 - (٣) محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسي .
 - (٤) محمد بن حُمران بن مالك الجعفي .
 - (٥) محمد بن مسلمة الأنصاري .
 - (٦) محمد بن خزاعي بن علقمة .
 - (٧) محمد بن حرماز بن مالك التميمي العمري .

١٤ الصلاة والسلام على "النبي" (ﷺ)

شَاءت إرادة الله تعالى أزلاً ، أن يكون لعبده ورسوله محمد ، مكانة عالية في الملأ الأعلى لم يصل إليها مخلوق ، ودرجة سامية عند ربه عز وجل لم يبلغها أحد من الملائكة والإنس والجن ، ومكانة عالية في الحياة الدنيا لم تكن لإنسان قبله ولا لإنسان بعده . . وله ﷺ توقير واحترام في السماوات والأرض لم يصل إليها مخلوق أثناء حياته الدنيا ، وبعد التحاقه بالرفيق الأعلى ، وله درجة عالية رفيعة ومقام محمود ، لم يصل إليه أحد من عباد الله في الجنة .

ولا يعلم مقدار سمو مقامه ، وعلو شأنه ورفعة قدره ، لا يعلم ذلك يقيناً إلا الذي خلقه واصطفاه وهو الله عز وجل ، والمؤمنون مأمورون من ربهم بأن يصلوا على النبي محمد ، ويسلموا عليه تسليماً ، في كل زمان ومكان ، وإلى ما شاء الله .

يقول الله تبارك وتعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب : ٥٦) .

في هذه الآية الكريمة تشريف وتعظيم للنبي ﷺ ليس له نظير ، ولنا في ذلك اثنا عشر قولاً :

الأول : التعبير في الآية الكريمة بجملة فعلية ﴿يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ إشارة إلى الدوام والاستمرار في الفعل ، وذكر الفعل «يصلون» بصيغة المضارع الذي يفيد الحال والمستقبل واستمرار الصلاة وتجديدها ، فالتعبير اللغوي يشير إلى أن الله تعالى وملائكته يصلون على النبي دائماً وأبداً . كما أنه أكد الجملتين بـ «إن» فلم يقل : (الله وملائكته يصلون على النبي) وإنما قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ . وخبر «إن» محذوف - وتقدير القول (إن الله يصلي وملائكته يصلون على النبي) .

الثاني : قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ . عبّر عن النبي دون ذكر اسمه ، على خلاف الغالب في الحكايات عن سائر الأنبياء بذكر أسمائهم في القرآن الكريم ، وفي ذلك إشارة من الله تعالى إلى ما اختص به النبي محمداً ﷺ من مزيد التشريف والتكريم ، وعلو القدر وسمو المكانة .

ولماذا لم يقل : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الرَّسُولِ﴾ ليوافق ما بعده في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ وليوافق ما قبله في قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ . فلماذا لم يقل «إن الله وملائكته يصلون على الرسول» ليوافق ما قبله وما بعده من قول وإنما عللها بالنبوة التي سبقت الرسالة وبنور النبي الذي كان قبل خلق أي خلق ؟ .

نقول : ذلك ليبين الله تعالى أنه لا يعلل صلاته وملائكته على النبي بحمله للرسالة - مع أن الرسالة أفضل من النبوة كما يقول جمهور العلماء - وأكد المعنى بأداة التعريف (النبي) إشارة إلى أنه هو محمد ﷺ المعروف والمستحق للصلاة عليه من الله والملائكة والمؤمنين .

الثالث : قال تعالى : ﴿ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ . جعل الصلاة لله وعطف الملائكة عليه وعقب بالقول يصلون ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ .

وهذا يدل على أن الملائكة ليسوا مأمورين فقط بالصلاة على النبي بل إن الصلاة على النبي مفروضة عليهم من ربهم فرضاً . . فإذا قيل : ما هي الفروض التي فرضها الله تعالى على ملائكته؟ نقول : إنها فروض كثيرة ، ولكن في مقام الصلاة والتسبيح اثنان :

الأول : يسبحون بحمد ربهم ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ . (الزمر : ٧٥) .

والثاني : يصلون على النبي ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ .

وقد يكون الله عز وجل كما جعل للجنة ملائكة وللنار ملائكة ، ولحمل أمره ملائكة ، فقد جعل للنبي ملائكة ، لا فرض عليهم ولا عمل ، إلا أن يصلوا على النبي دائماً وأبداً في الملأ الأعلى وإلى ما شاء الله ، والذي يتدبر الآية الكريمة ويغوص وراء معانيها يرى ببصيرته وكأن الكون كله في مهرجان نوراني عظيم تملؤه النغمات الملائكية العذبة بالصلاة على النبي في أركان الكون ، إنه مهرجان نوراني كوني عظيم في كل زمان وإلى يوم القيامة .

الرابع : أضاف الله تعالى الملائكة الذين يصلون على النبي إلى نفسه فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ ولم يقل : «إن الله والملائكة» ولكنه قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ فبين مزيد شرفهم ورفع شأنهم وكثرة عددهم . وسمع رسول الله ﷺ رجلاً يقول : (من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى) فغضب رسول الله ﷺ وقال : «بل قل : ومن يعص الله ورسوله» . وذلك لأنه لا ينبغي لأحد أن يجمع ذكر ربه مع غيره في ضمير واحد . ولله عز وجل أن يفعل ما يشاء لمن يشاء . كما جمع الملائكة معه في ضمير واحد مع الله ، الأمر الذي يدل على تعظيم الملائكة المأمورين بالصلاة على النبي ، وذلك يستلزم تعظيم النبي تعظيماً أكثر وأكثر ، بما يصل إليه من صلاة من الملائكة العظام عليه ، والتنبيه على كثرتهم التي لا يحيط بها إلا الله تعالى .

الخامس : قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ ﴾ . ذكر الله تعالى اسم الجلالة الأعظم «الله» في مقام الصلاة على نبيه ، دلالة على أن الكون كله إنما يصل على النبي محمد ﷺ فالصلاة على النبي واجبة ومفروضة على الملائكة وعلى الكون كله ، وعلى المؤمنين جميعاً في كل زمان وإلى ما شاء الله .

السادس : وما هي صلاة الله عز وجل على النبي؟ قال بعض العلماء : الصلاة في اللغة الدعاء . . ولكن لا يمكن أن يكون هذا هو المعنى في الآية الكريمة . . كما لا يصح أن يكون ذلك في حق الله عز وجل . . لماذا؟ لأن الدعاء للنبي طلب منفعة له من الغير ، والله تعالى لا يطلب منفعة لنبيه من أحد . إذن فصلاة الله تعالى على النبي لها معنى آخر فما هو؟ وسئل رسول الله ﷺ : كيف يصل على النبي عليك؟ قال : «هذا في علم الله المكنون ولو أنكم سألتهموني عنه ما أخبرتكم» . ونحن نقول : ربما كانت ثناء الله تعالى على النبي في الملأ الأعلى ، وتعظيم الله تعالى له في العالمين في الدنيا والآخرة ، وإبقاء شريعته إلى يوم الدين ، والإذن له بالشفاعة يوم القيامة ، وإظهار فضله على الأولين والآخرين ، وإفراده بأعلى درجة في الجنة .

السابع : ومتى صلى الله وملائكته على النبي؟ هل قبل البعثة أم بعدها؟
إذا علمنا أن أفعال الله وإرادته لا يحدها زمن لأن الزمن مخلوق فهمنا أن الله تعالى يصلى على رسوله أزلاً ، وهذا يفتح لنا باباً من الفكر كبيراً . فإذا كان الله تعالى يصلى على رسوله أزلاً ، فهو تعالى يصلى عليه قبل خلق هذا الكون ، وقبل خلق الأكوان التى خلقها الله تعالى قبل هذا الكون وإلى ما لا نهاية ، إن الصلاة على النبي فى علم الله وتقديره وأفعاله أزلاً ، لا تبدأ بزمن ولا تنتهى بزمن ، وإذا اتسع إدراكنا لهذه الحقيقة الكبرى أدركنا أن النبي ﷺ جعله الله تعالى فى درجة عليا لم يبلغها مخلوق قط لا من قبل ولا من بعد ، وفى شرف عظيم لم يحظ به أحد مطلقاً .

وفى ظل هذا التكريم الإلهي العظيم لرسوله ، وهذه المكانة العليا للمصطفى عند ربه ، يبدو واضحاً أن إيذاء الناس للنبي ﷺ بأى صورة من صور الإيذاء ، جرم شنيع وبشع وملعون ، فذلك يدل عليه قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (الأحزاب : ٥٧) - ويؤكد الله تعالى بشاعة إيذاء الرسول أنه بمثابة إيذاء الله عز وجل من عبده الملعونين فى الدنيا والآخرة ، وحاش لله تعالى أن يبلغه إيذاء من خلقه ، إنما التعبير القرآنى يصور الحساسية المطلقة بأن يمس أحد من الناس رسول الله من قريب أو من بعيد ، وبأى صورة من صور الأذى ، وهذا يصور المكانة العليا والدرجة الرفيعة للنبي عند ربه ، والذى قال عنه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ . (الأحزاب : ٥٦) .

الثامن : أمر الله تعالى المؤمنين بالصلاة على النبي قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ ﴾ . وفى هذا أوجه كثيرة من العلم :

١ - هو أمر من الله تعالى للمؤمنين فى كل عصر وزمان ومكان بالصلاة والتسليم على النبي .
٢ - أمر الله تعالى للمؤمنين بالصلاة على النبي ؛ لأنه تعالى يعلم قصور المؤمنين فى أدائهم لحق النبي فى الصلاة عليه ، ولو علم الله تعالى أن المؤمنين يؤدون الصلاة على النبي كما ينبغى أن يكون الأداء ما أمرهم بها ، فمجرد أمر الله تعالى للمؤمنين بالصلاة على النبي يدل على أن المؤمنين مقصرون فى الصلاة عليه ﷺ .

٣ - إذا كان الله تعالى وملائكته يصلون على النبي ، فأى حاجة للنبي إلى صلاتنا عليه؟
نقول : إن صلاتنا على النبي ليست لحاجته هو إليها ، وإنما لحاجتنا نحن إليها ، وإلا فلا حاجة إلى صلاة الملائكة مع صلاة الله تعالى عليه ، وإنما كان هذا لإظهار علو مكانة النبي ، وسمو درجته عند ربه فوق الملائكة والعالمين جميعاً ، نحن الذين فى حاجة إلى صلاتنا على النبي ، فنحن المستفيدون منها ، قال النبي ﷺ : «من صلى على صلاة صلى الله عليه عشراً» إذن صلاتنا على النبي نحن الذين فى حاجة إليها ، إذن أمر الله تعالى لنا بالصلاة على النبي نعمة من الله تعالى علينا .*

٤ - قال رسول الله ﷺ : «إن الله تعالى وكل ملكين ، فلا أذكر عند مسلم فيصل على إلا قال ذاك الملكان : غفر الله لك . وقال الله وملائكته جواباً لدينك الملكين : آمين . ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصلى على إلا قال ذاك الملكان : لا غفر الله لك . وقال الله وملائكته جواباً لدينك الملكين : آمين» .

٥ - الصلاة على النبي التى تليق بمقامه العالى لا تدركها أفئدة الناس فهم لا يدركون حقيقة مراد الله فيها ، فلماذا إذن أمر الله تعالى المؤمنين بالصلاة على النبي وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ ﴾ ؟ وهل يستطيع

* قال الدارانى : من أراد أن يسأل الله تعالى حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي ثم يسأل حاجته ثم ينتتم بالصلاة على النبي ، والله عز وجل يقبل الصلاتين على النبي ، وهو تعالى أكرم من أن يرد ما بينهما من طلب .

المؤمنون أن يصلوا على النبي الصلاة الواجبة اللائقة به؟ لا . . إنهم لا يستطيعون ذلك ، ولا يقدرّون عليه ؛ لذلك أعفانا الله تعالى من ذلك الذي لا نقدر عليه ، فأحاله الله تعالى إلى نفسه ، فأمرنا أن نقول : «اللهم صلّ على النبي» أى : اللهم صل أنت على نبيك ؛ لأننا نعجز عن أن نصلى عليه الصلاة التى تليق به ، وبمكاته العالية وبدرجته الرفيعة . لذلك يخطئ من يقول : (وأصلى على النبي) والصحيح أن يقول : (اللهم صل على النبي) وكأننا إذ نقول : (اللهم صل على النبي) إنما نسأل الله تعالى : (اللهم عظم نبيك التعظيم اللائق به مما هو مكنون فى علمك ونعجز نحن عن إدراكه) .

وهنا تبدو لنا حقيقة هائلة وهى أن المصلى على النبي على الحقيقة ، وفى كل الأحوال ، هو الله عز وجل . وصلاة المؤمن على النبي من باب المجاز ، أما صلاة الله تعالى على النبي فهى على الحقيقة .

٦ - لما سمع المؤمنون الأمر لهم بالصلاة على النبي بعد علمهم أن الله وملائكته يصلون عليه تحيروا وفكروا كيف نصلى على النبي الصلاة اللائقة به؟ لذلك سألوا رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، كيف نصلى عليك؟ قال : «قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين ، إنك حميدٌ مجيدٌ» .

٧ - الصلاة على النبي واجبة علينا وجوباً مطلقاً ، فهى جزء من التشهد فى كل صلاة ، ولا تصح صلاة بغير التشهد ، وبالتالي إذا خلت أى صلاة مفروضة من الصلاة على النبي ، تكون صلاة باطلة . وقال العلماء : إن الصلاة والسلام على النبي واجبة فى كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره ، وكذلك فى كل دعاء فى أوله وفى آخره ، ونحن نقول : بل إن الصلاة والسلام على النبي واجبة فى كل مجلس ، وإن تكرر ذكره تتكرر الصلاة عليه .

٨ - الصلاة على النبي من أفضل العبادات ، لماذا؟ لأن الله تعالى تولاها هو وملائكته ثم أمر بها المؤمنين ، وسائر العبادات ليست كذلك . إذن الصلاة على النبي أفضل العبادات .

وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : «إذا صليتم على رسول الله فأحسنوا الصلاة عليه ؛ فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه» .

٩ - إن معنى الصلاة يختلف باختلاف حال المُصَلَّى والمُصَلَّى عليه ، فصلاة الله تعالى على نبيه : قد تكون الرحمة .

وصلاة الملائكة على النبي : قد تكون الاستغفار .

وصلاة المؤمنين على النبي : الدعاء .

١٠ - وهل يجوز أن نصلى على غير النبي كما نقول : (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد)؟ نقول : لا يجوز أن نصلى على غير النبي ولو كان من آله ، إلا على سبيل التبع ، ولا تجوز الصلاة على أحد مفرداً إلا على النبي ﷺ وإذا كانت لغيره فنصلى على النبي أولاً ، ثم نصلى بعد ذلك على غيره على سبيل التبع له* وليس معنى الصلاة على آل النبي أنهم يتساوون معه فى الصلاة مع أنهم عطفوا عليه فى الصلاة ؛ لأن تعظيم كل عبد من عباد الله هو بحسب ما يستحق ، وبحسب ما يليق به ، ولا تكون أبداً كالصلاة على النبي ؛ لأن الله تعالى شرف نبيه على الأولين والآخرين فى الدنيا والآخرة.**

* فلا يجوز أن تقول : «اللهم صل على آل محمد» . وإنما تقول : «اللهم صل على محمد وآل محمد» .

** وما معنى كلمة «آل»؟ هى بمعنى أهل قلبت الهاء همزة فقيـل آل ، وآل الرجل أهله وعياله ، وآل الرجل أتباعه أيضاً ، وآل النبي ﷺ أهل بيته وأتباعه ومن اتبعوه بإحسان إلى يوم الدين .

١١- لم يترك الله تعالى رسوله تحت منة أمته بصلاتهم عليه ، فقد رد المنّة عليهم ، وعوضهم بأمره لرسوله ﷺ بالصلاة عليهم كما قال تعالى : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ (التوبة : ١٠٣) ، وبهذا لا يكون لأحد غير الله تعالى من فضل على النبي محمد ﷺ .

١٢- فى آية سابقة فى سورة الأحزاب (٤٣) . قال الله عز وجل : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ . الصلاة من الله على المؤمنين رحمة ، وصلاة الملائكة عليهم استغفار ودعاء ، وبذلك استعمل لفظ الصلاة على معنيين ؛ لأن الصلاة تختلف باختلاف المصلى والمصلى عليه كما ذكرنا من قبل ، فصلاة الله تعالى على المؤمنين غير صلاة الملائكة عليهم . وما هو الدليل على أن صلاة الله على المؤمنين بمعنى الرحمة لهم؟ قال بعض العلماء : لأن البشرى من الله تعالى لجميع المؤمنين فى كل عصر من العصور رحمة منه بهم ، فقال : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ فدل هذا على أن المراد بصلاة الله على المؤمنين الرحمة بهم .

وقد يقال : إن الصلاة من الله غير الرحمة ؛ بدلالة قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ أَوَلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ (البقرة : ١٥٦) . والرحمة معطوفة على الصلاة ، والعطف يقتضى المغايرة ، فدل هذا على أن الصلاة من الله على الصابرين غير الرحمة . فما هو حل هذا الإشكال؟ نقول : إن صلاة الله تعالى على عباده تختلف باختلاف المصلى عليه ، فصلاة الله على عباده لها بالضرورة أكثر من معنى ، فهى الرحمة للمؤمنين ، وهى الرضوان على الصابرين ، فالذين إذا أصابتهم مصيبة من قدر الله عليهم ورضوا بها وقالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون . صاروا من الراضين الذين قال الله عنهم : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ . إذن صلاة الله عليهم هى الرضوان ، وهى غير الرحمة لذلك عطفتم الرحمة على الصلاة .

إذن لا تعارض بين صلاة الله تعالى على النبي وصلاة الله تعالى على المؤمنين ، وصلاة الله تعالى على الراضين . فكل صلاة من الله تعالى لعباده تحمل معنى خاصاً ، ومميزاً ومختلفاً يختلف حسب حال المصلى عليه ، فليست الصلاة مرادفة للرحمة ، ولكن الرحمة من لوازم الصلاة وموجباتها وثمراتها ، فمن فسر صلاة الله تعالى بالرحمة ، فقد فسرهما ببعض مقاصدها وموجباتها .

١٣- وهل يجوز أن ندعو للنبي ﷺ بالرحمة؟ لا .. لا يجوز ، وإنما الذى يسأل الرحمة للنبي هو النبي نفسه يسأل الله تعالى الرحمة له ، أما غيره فلا يجوز أن يدعو له ﷺ بالرحمة ، ولماذا؟ لأن فى ذلك شبهة نقص أو افتراض ذنب أو وجود ذنب ، فذلك قول الله عز وجل : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ (النور : ٦٣) . ولكن لماذا كان رسول الله ﷺ يستغفر الله تعالى كل يوم مائة مرة؟ نقول : ليس ذلك لذنب ارتكبه ويطلب المغفرة من الله له .. وإنما هذه خصوصية من خصوصية العلاقة بينه وبين الله عز وجل ، وهى خصوصية لا يعلم كنهها إلا الله ورسوله .

وقد يكون ذلك من باب الشكر والثناء على الله ؛ ولأنه لما سئل عن ذلك قال : «أفلا أكون عبداً شكوراً» .

١٤- وهل كان رسول الله ﷺ يصلى على نفسه؟ نقول : نعم إنه كان يصلى على نفسه ولذلك ثلاثة شواهد : (١) لدخوله فى أمر الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ ﴾ . وليس فى هذا اختصاص للمؤمنين وحدهم دون رسول الله .. فهو ﷺ داخل فى أمر الله للمؤمنين - وهو ﷺ منهم - بالصلاة عليه .

أما الآيات التى فيها اختصاص للمؤمنين وحدهم ولم يدخل رسول الله معهم فيها ، فهى الآيات التى فيها أمر من الرسول للمؤمنين بشىء أو بالتبليغ ، مثل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ فى هذه الآية اختصاص واضح للمؤمنين وحدهم ، أما قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ ﴾ فالنبي داخل مع المؤمنين فى أمر الله تعالى .

إذن هو ﷺ كان مأموراً بأن يصلى على نفسه .

(٢) أنه ﷺ كان يصلى على نفسه فى كل تشهد .

(٣) جاء فى الأحاديث الصحيحة : أن رسول الله ﷺ عندما ضلت ناقته ، وتكلم منافق فيها قال ﷺ :

«إن رجلاً من المنافقين شمت أن ضلت ناقة رسول الله ﷺ» .

وقوله ﷺ لما عرض على المسلمين رد ما أخذه من أبى العاص زوج ابنته زينب قبل إسلامه . قال ﷺ :

«إن زينب بنت رسول الله ﷺ سألتنى» الحديث .

ملخص الموضوع:

هذه أربعة عشر قولاً فى الصلاة على النبي ذكرنا فيها :

١ - أن الآية الكريمة صيغت فى أسلوب تأكيد .

٢ - (يصلون) فعل مضارع يفيد الاستمرار فالملائكة يصلون على الله دائماً وأبداً

٣ - أن الآية الكريمة عبرت عن النبي دون ذكر اسمه إشارة إلى ما اختص به ﷺ من التشريف والتكريم .

٤ - الآية الكريمة أشارت إلى أن الصلاة على النبي مفروضة على الملائكة .

٥ - شرف الله تعالى الملائكة بإضافتهم إلى نفسه فقال ﴿مَلَائِكَتُهُ﴾ فأكد شرفهم وتعظيمهم وفى ذلك تشريف

أكبر للنبي مما يصل إليه من صلاة الملائكة العظام عليه .

٦ - دلالة ذكر اسم الجلالة الأعظم فى الصلاة على النبي .

٧ - معنى صلاة الله على النبي . لا يعلمه إلا الله عز وجل .

٨ - هل كانت صلاة الله وملائكته على النبي قبل البعثة أم بعدها؟

٩ - لماذا أمرنا الله تعالى بالصلاة على النبي ونحن غير قادرين عليها وعاجزون عن أدائها؟

١٠ - مجرد أمر الله للمؤمنين بالصلاة على النبي يدل على أنهم مقصرون فى الصلاة عليه .

١١ - لم يترك الله تعالى رسوله تحت منة أمته بصلاتهم عليه ، فرد المنة عليهم بأمره لرسوله بالصلاة عليهم .

١٢ - الصلاة من الله على النبي غير الصلاة منه على المؤمنين ؛ لأن الصلاة تختلف باختلاف المصلى عليه .

١٣ - هل يجوز أن ندعو للنبي بالرحمة؟

١٤ - هل كان النبي ﷺ يصلى على نفسه؟

قال الله عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب : ٥٦) ، وما هو السلام على النبي ؟ .. هو أن نقول : السلام عليك أيها النبي . وهو أن نطيعه طاعة تامة . إذن فالسلام على النبي يحمل أكثر من معنى :

المعنى الأول : السلامة للنبي من كل نقص . فالسلام مصدر بمعنى السلامة .
المعنى الثانى : السلام مداوم على حفظك (والسلام هنا من أسماء الله الحسنى) والمعنى كما تقول «اسم الله عليك» . فلا خلوت أيها النبي من الخير والبركة ، وسلمت من كل مكروه .
المعنى الثالث : إننا منقادون لك . لأن السلام من المسألة ، وعدم المخالفة . والمراد الدعاء بأن يجعل الله تعالى العباد منقادين له ومذعنين لشريعته ﷺ ؛ لقوله تعالى : ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ . أى : انقادوا للنبي ﷺ انقياداً تاماً . ونظير ذلك قوله تعالى فى :

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء : ٦٥) .

وللسلام على النبي أكثر من معنى :

الأول : قال تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب : ٥٦) .

ولماذا أكد التسليم للنبي ولم يؤكد الصلاة له؟ نقول : لأن الصلاة عليه ﷺ مؤكدة من قبل ، بإعلان الله تعالى أنه وملائكته يصلون على النبي . فالصلاة على النبي ليست فى حاجة إلى تأكيد جديد ، أما السلام فأكدته الله تعالى على المؤمنين ، لأنه تعالى قد فرض عليهم التسليم لأوامر رسله ﷺ . فكان المطلوب منهم أن يؤكدوا التسليم لأوامر النبي ﷺ ، كما أكد الله تعالى الصلاة على النبي فى صدر الآية الكريمة .

الثانى : الله تعالى ذكر الصلاة على النبي قبل التسليم له قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ والتقديم يفيد الأولوية والاهتمام الأكبر ؛ لذلك قدم الأمر بالصلاة على النبي ، وبعد ذلك ذكر الأمر بالسلام عليه . ولماذا لم يؤكد الصلاة على النبي كما أكد السلام عليه ، وقال : «وصلوا عليه صلاة» ؟ لأن الصلاة عليه غير محتاجة إلى تأكيد بعد صلاة الله وملائكته عليه سلفاً ، أما السلام عليه فقد أكدته فقال ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ، ذلك لئلا يتوهم المؤمنون قلة الاهتمام بالسلام على رسول الله والتسليم له .

الثالث : لا يقدر المؤمنون على الصلاة على النبي الصلاة اللاتقة به ؛ لذلك طلبوا من الله تعالى أن يصلى على نبيه الصلاة التى تليق به ، والتى لا يعلمها إلا الله تعالى فيقولون : اللهم صل على النبي . أما السلام عليه والتسليم له ، فهو واجب على المؤمنين كوجوب الصلاة عليه . إلا أن السلام والتسليم للنبي فى مقدور المؤمنين واستطاعتهم ؛ لذلك قدم الذى ليس فى مقدور المؤمنين على ما هو فى مقدورهم .

الرابع : أضاف الله عز وجل الصلاة على النبي إليه وإلى ملائكته دون السلام على النبي ، وأمر المؤمنين بالصلاة والسلام ؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ لأن السلام على النبي يتضمن التحية والطاعة والانقياد له ، وهذا محال فى حق الله وملائكته .

الخامس : لم تؤمر أمة من الأمم السابقة بالصلاة والسلام على نبيهم ، إلا أمة محمد ﷺ فقد أمرت بذلك ؛ لأن في ذلك منة من الله عليهم ونعمة ، اختصهم بها دون سائر الأمم .
السادس : السلام على النبي ﷺ يدل على أن له وجوداً في كل زمان ؛ فقد أخرج الإمامان أحمد وأبو داود :

قال ﷺ : « ما من أحد يسلم علىّ إلا رد الله تعالى إلىّ روحى حتى أرد عليه السلام » .
وإذا كان الآلاف من المسلمين يصلون ويسلمون على النبي في كل لحظة من اللحظات ، فإن السلام عليه من قبل المسلمين فيه صفة الاستمرار ، فدل هذا على أن النبي حي وموجود في كل زمان ، حياةً ووجوداً بقانون آخر وبصفات أخرى لا نعلمها ويعلمها الله عز وجل .

وهناك دليل آخر على حياته ﷺ في كل زمان ووجوده : أنه لو لم يكن النبي موجوداً في كل زمان لكان الأمر بالسلام عليه عبثاً . إذ كيف يأمرنا الله تعالى بأن نسلم على غير موجود؟ وكيف يرد السلام علينا إنسان غير موجود وغير حي؟

ودليل ثالث : في المسجد الأقصى أم رسول الله ﷺ الأنبياء جميعاً في الصلاة ليلة الإسراء ، وكان النبي حينئذ حياً بقانون الأحياء ، وكان الأنبياء جميعاً أحياء وموجودين بقانون آخر ، هو قانون الأموات ، فهي حياة بقانون الأموات ، ولا يعقل أن يؤم النبي في الصلاة أمواتاً ، فوجب أن يكون الأنبياء جميعاً أحياء وموجودين . ونستطيع إذن أن نؤكد تماماً أن نوحاً حي ، وأن إبراهيم حي ، وأن موسى حي ، وأن عيسى حي ، وأن محمداً حي ، وباقي الأنبياء جميعاً ، وأكدت إمامة النبي محمد ﷺ للأنبياء في المسجد الأقصى أنه إمامهم في عالم الغيب وإمامهم في عالم الشهادة أيضاً .

ودليل رابع : ما أخرجه الإمام ابن ماجه عن عبدالله بن مسعود قال :
إذا صليتم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة والسلام عليه فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه ولا تعرض أعمال الناس على غير موجود ، فدل هذا على أن للنبي وجوداً وحياة بقانون آخر وصفات أخرى هي في علم الله عز وجل .

ودليل خامس : وإذا علمنا أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون كما قال الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (آل عمران : ١٦٩) . فإذا كان الشهداء بعد موتهم أحياء عند ربهم يرزقون ، فإن الأنبياء والمرسلين أولى بذلك من الشهداء ، والرسول محمد ﷺ أولى بالحياة من المرسلين والشهداء .

وما ينطق عن الهوى

أخرج الإمام أبو داود والإمام أحمد عن المقدم بن معديكرب أن رسول الله ﷺ قال : « ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه ؛ ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه . ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله » .

أخطأ بعض الناس خطأ عظيماً في قولهم عن سيدنا رسول الله ﷺ : إنه كان يتعرض للخطأ أحياناً في اجتهداه في بعض أمور الدنيا ، فيما لم ينزل فيه وحى . وهذا اتهام قديم ابتدأه أبو جهل بن هشام ، ومن نقل عنه مثل ابن خلدون ، ومن وافقهما من الناس حتى يومنا هذا ، ولقد أخطئوا في ذلك خطأ عظيماً . ولا ندري أى أمر من أمور الدنيا يقصدون؟ . . لقد حاولت أن أجد أمراً واحداً من أمور الدنيا لا دخل للدين فيه فلم أجد ، فما من

أمر من أمور حياتنا اليومية لا دخل للدين فيه ، وفى رأينا أن من يقول هذا أحد اثنين :
 الأول : إما أن يكون مضللاً ومخدوعاً بما يدعيه أعداء السنة ، وما أكثرهم فى كل زمان ومكان .
 الثانى : وإما أن يكون واقعاً تحت تأثير انحرافات فكرية ، لا يجد مجالاً للتعبير عنها إلا بالتستر وراء أحد الفلاسفة القدامى الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية القديمة .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم: ٣-٤) . الآيتان الكريمتان تدلان على أن النبى ﷺ لا ينطق إلا وحيًا . والنطق ضد الصمت ، ويتحقق النطق ولو بحرف واحد يتحرك به اللسان ، ويخرج من بين الشفتين ، ونلاحظ أن الآية الكريمة ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ صيغت فى أسلوب قصر ، أى أن الرسول مقصور على الوحي ، والقصر لا استثناء فيه .

ولا يوجد فى الآية ما يدل على أن الرسول يُوحى إليه فى أمر ولا يوحى إليه فى أمر آخر .
 ولقد تكرر «الوحي» مرتين قال : ﴿ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ مما يفيد تأكيد حقيقة نطق الرسول وحيًا .
 فبعد أن جاءت الحقيقة فى أسلوب قصر ، تأكدت مرة أخرى بتكرار كلمة الوحي مرتين ، مرةً بالاسم ومرةً بالفعل ، وكلمة «يُوحى» تدل على أن الوحي مستمر لا ينقطع ، وتؤكد أن السنة النبوية كالوحي المنزل بالقرآن الكريم فى التشريع والعمل به .

وقديماً أثارت قريش ما يقوله بعض أعداء السنة اليوم ، فرد عليهم الرسول ﷺ الرد الحاسم بأن كل ما ينطق وحي ، أشار إلى شفتيه الكريمتين لابن عمرو - وكان كاتباً للرسول - وقال : «والذى نفسى بيده ما يخرج منهما إلا الحق ، فاكتب» .

والوحي إعلام فى خفاء ، وله أساليب كثيرة ، منها الوحي المباشر ، ومنها التوجيه ، ومنها الإلهام .
 قال الله عز وجل : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٥١) فى الآية الكريمة رد على من يقول باجتهاد الرسول بصفته بشراً فى أمور الحياة الدنيا ، وأنه يتعرض أحياناً للخطأ فى اجتهاده . وإننا لنرى فى رأيهم هذا منطقاً خاطئاً وعجيباً . فمن أين العلم للرسول صلى الله عليه وسلم ليجتهد فى أمور الحياة الدنيا ويعلم الناس وقد كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب وقد جادلنى أحد الناس فى هذا الأمر فأفحمته . فلم يجد مناصاً إلا أن يقول لى : هل فى قول الرسول لأحد الناس : «السلام عليكم» وحي؟ وهل فى رده السلام على جاره مثلاً وحي؟ . قلت له : نعم ، وإن لم يكن وحيًا؟! صريحاً فهو بإلهام النبوة الذى خصه الله تعالى به دون سائر البشر ، والإلهام نوع من الوحي ، ليعلم الناس كيف يكون إلقاء السلام ، وكيف يكون رد السلام للغير ، بل وكيف يأكلون وكيف يشربون ، وكيف يتصرفون فى كل أمر من أمور حياتهم فى كل قول أو فعل أو عمل - التصرف الذى يرضى الله عز وجل . أم كان الله تعالى يتركهم لعاداتهم فى الجاهلية! وإننا لا ننفى الاجتهاد عن الرسول ﷺ ، ولكننا نقول : إنه كان يجتهد ولكن ليس كبشر عادى ، وإنما كان اجتهاده فى أمور الدنيا إما وحيًا صريحاً من ربه ، وإما توجيهاً له ، وإما إلهاماً من ربه تعالى له . فما تركه الله تعالى لنفسه قط . وما تركه بدون توجيه أبداً ، وإلا ما جعله معلماً للناس جميعاً فى كل عصر من العصور وإلى يوم القيامة ، والأسوة الحسنة للناس فى كل شيء .

قال الله عز وجل : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ (الكهف: ١١٠) ، وجملة ﴿ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ صفة لبشر ، فالوحي صفة من صفات الرسول ، وسمة من سماته لا تفارقه قط ، وليس حالاً مؤقتاً من أحواله . وأعداء السنة يركزون على كلمة بشر ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ ويوجهون إليها كل اهتمامهم ، فيتحدثون عن

خصائص الرسول البشرية ، ويندفعون في ذلك اندفاعاً شديداً ومنحرفاً لا يتناسب أبداً مع قوله تعالى : ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ .

ولعل من المناسب أن ننقل هنا ما قاله الإمام عبدالحليم محمود رحمه الله في كتابه (محمد رسول الله) قال : «الذين يفعلون ذلك إنما يقلدون زعيمهم الأكبر في هذه النزعة وهو أبو جهل ، فقد كان يركز على بشرية الرسول ويتناسى أنه يُوحى إليه» . وقال - رحمه الله - أيضاً : إن الذي يحارب السنة إنسان رجعى ، رجع بفكره أربعة عشر قرناً من الزمان ، حتى وقف عند أبي جهل ، ينقل عنه عداؤه للرسول وللسنة . . والناس درجات ، درجة يركزون على كلمة (بشر) في الآية الكريمة ، ودرجة منهم يركزون على كلمة (يوحى إليه) ويضعون فيها كل اهتمامهم ، وذلك حسب شعورهم الدينى ، فالذى ضعف إيمانه تماماً لا يرى في الرسول إلا بشريته ، ومن قوى إيمانه لا يرى في الرسول إلا أنه نبي يوحى إليه . وبين الدرجتين يتأرجح عدد لا يحصى من الناس نزولاً إلى الخطأ وارتفاعاً إلى الحق .

وما دام كل نطق يخرج من شفتى رسول الله ﷺ ومن لسانه الطاهر الشريف ، وحياً من الله تعالى له أو إلهاماً ، فقد أوجب الله تعالى على الناس طاعته طاعة مطلقة في كل أمر من أمور الدين وكل أمر من أمور الدنيا ، كما قال الله عز وجل : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥) . وللرسول الحكم والقضاء بين الناس في أمور الدين وأمور الدنيا . وقوله تعالى : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: ٧) . قول كريم لا استثناء فيه ، فهو حكم مطلق لكل أمر من أمور الدين ولكل أمر من أمور الدنيا .

وروى الإمام أبو داود والإمام أحمد عن المقدم بن معديكرب أن رسول الله ﷺ قال : «ألا وإنى أوتيت القرآن ومثله معه ؛ ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه . ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله» .

نفهم من الحديث الشريف أن الرسول ﷺ أوتى القرآن والسنة وحياً من الله تعالى ؛ أوتى الكتاب وحياً يتلى ، وأوتى السنة تفسر ما جاء بالكتاب ، وتزيد عليه وتشعر بما فى الكتاب وبما فى السنة ، وبذلك يكون للسنة النبوية المشرفة نفس حجية القرآن الكريم ، ووجوب العمل به . والحديث الشريف يشير إلى أن ما ثبت عن رسول الله ﷺ من قول أو عمل أو تقرير ، كان حجة بنفسه واجبة الاتباع ، ومن لم يتبعه يكون قد خرج عن الإيمان ، أما من لا يؤمن به فإنه يكون قد خرج عن الإسلام .



عصمة الرسول ﷺ

أمثلة من عصمة الرسول في أمور أخطأ في فهمها بعض العلماء

- ١- حادث تأبير النخل.
- ٢- حديث العدوى.
- ٣- حادث آبار بدر.
- ٤- حادث أسرى بدر.
- ٥- إعراض الرسول عن ابن أم مكتوم.
- ٦- الإذن لبعض المسلمين في التخلف عن القتال.
- ٧- دعاء الرسول في أحد.

حادثات تأييد النخل

روى الإمام مسلم فى الصحيح عن طلحة بن عبد الله قال :
مررت مع رسول الله ﷺ فى نخل فرأى قومًا يلحقون النخل . فقال : «ماذا يصنع هؤلاء؟» قالوا : يلحقون
النخل ؛ يأخذون الذكر فيجعلونه فى الأنثى فيلقح . فقال ﷺ : «ما أظن ذلك يغنى شيئاً» . وفى رواية رافع :
«لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً» . فتركوه ونزلوا عنها فنقصت (أى سقط ثمرها) وقيل : صار شيصاً (أى ثمرًا لا
يؤكل) . فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : «إنما هو الظن ، إن كان يغنى شيئاً فاصنعوه ، فإنما أنا بشر مثلكم ، وإن
الظن يخطئ ويصيب وأنتم أعلم بشئون دنياكم ، ولكن ما قلت لكم : قال الله . فلن أكذب على الله» .
يذكرنا تلقيح النخل بموضوع لم ينتبه إليه بعض علماء التفسير . . وهو المنهج العلمى فى البحث والدراسة ،
لقد استغرق تطور الفكر الإنسانى قرونًا عديدة . . وكان لكل عصر من العصور منهج علمى . فالمنهج الإغريقى
فى الدراسة والبحث - والذى كان سائدًا بين المفكرين والعلماء فى عصر نزول القرآن الكريم وقبله وبعده بقرون -
كان منهجًا مخطئًا . . فقد كان يبدأ بالمسلّمات ، أى إنهم كانوا يعتبرون آراء الآباء والأجداد حقائق لا تناقش
ومسلّمًا بصحتها . . وكان ذلك منهجًا مخطئًا خطأ كبيرًا ؛ لذلك حدث ركود فكرى فى تلك العصور استمر
قرونًا عديدة . . ورد القرآن الكريم الناس إلى الحق ورفض ذلك المنهج الفكرى فى البحث والدراسة ، كما قال
الله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا
وَلَا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾
(البقرة : ١٧٠ - ١٧١) .

وكان المنهج الإغريقى فى الفكر والبحث والدراسة ، لا يعتمد على الملاحظة و التجربة كأساس للبحث العلمى . . وظل ذلك المنهج المخطئ متبعًا بين الفلاسفة والمفكرين عشرين قرنًا من الزمان ، من أول القرن الثالث ق.م إلى القرن السابع عشر الميلادى ، حتى توصل علماء الغرب ومنهم ليوناردى فينشى ، و فرانسيس بيكون ، وأليقر بريدج وغيرهم ، إلى المنهج العلمى الصحيح فى البحث والفكر والدراسة والذى رفض المنهج الإغريقى القديم . . وما زال العلماء يعملون بهذا المنهج العلمى الحديث حتى اليوم . . وبواسطته حدثت النهضة العلمية والتقدم العلمى فى العصر الحديث .

ويبدأ المنهج العلمى الحديث والصحيح فى دراسة أية قضية علمية بالفرض العلمى Hypothesis وهو فرض ظنى . . ولا بد من إخضاعه لتجربة تستمر مدة حتى تظهر نتائجها . . والفرض العلمى فى مرحلة التجربة يسمى نظرية علمية Theory . . وتعرض النظرية للخطأ والصواب ، ونتيجة التجربة هى التى تحدد ذلك ، فإن أثبتت التجربة صحة النظرية ، صارت النظرية «حقيقة علمية» Fact . وإن أثبتت التجربة خطأ النظرية . . صارت خطأ لا يؤخذ به ولا يستدل به . والاعتقاد لدى العلماء الآن أن علماء القرنين السابع عشر والثامن عشر فى أوروبا كانوا أول من أسس المنهج العلمى الصحيح فى الفكر والبحث والدراسة . . وهذا الاعتقاد غير صحيح . . أما

الصحيح فهو أن الإسلام هو الذى أرسى قواعد المنهج العلمى الصحيح قبل أن يتوصل إليه علماء أوروبا بنحو ألف عام . لقد ذكر القرآن الكريم أن الفرض الظنى لا يكون حقيقة علمية بدون دليل ثابت . فقد قال الله عز وجل : ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا * فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ (النجم : ٢٨ - ٣٠) .

وكان من المسئولية الملقاة على عاتق رسول الله ﷺ أن يطبق ما جاء فى القرآن الكريم عملياً بين الناس فى حياتهم اليومية . . فكان حادث تأبير النخل أول حادث انتهزه رسول الله ﷺ ليعلم الناس المنهج العلمى الصحيح فى الفكر والبحث والدراسة . فماذا حدث؟

روى الإمام مسلم فى الصحيح عن طلحة بن عبد الله قال :

مررت مع رسول الله ﷺ فى نخل فرأى قوماً يلحقون النخل . فقال : «ماذا يصنع هؤلاء؟» قالوا : يلحقون النخل ؛ يأخذون الذكر فيجعلونه فى الأنثى فيلقح . فقال ﷺ : «ما أظن ذلك يغنى شيئاً» . وفى رواية رافع : «لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً» . فتركوه ونزلوا عنها فنقصت (أى سقط ثمرها) وقيل : صار شيصاً (أى ثمرأ لا يؤكل) . فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : «إنما هو الظن ، إن كان يغنى شيئاً فاصنعوه ، فإنما أنا بشر مثلكم ، وإن الظن يخطئ ويصيب وأنتم أعلم بشئون دنياكم ، ولكن ما قلت لكم : قال الله . فلن أكذب على الله» .

والذى يطالع الحديث النبوى الشريف ولا يكون على علم بالمنهج العلمى الصحيح فى البحث والدراسة فى عصر العلم الحالى ، يظن أن الرسول ﷺ اجتهد رأيه فى موضوع تأبير النخل وجاء الواقع يخالفه فقال : «أنتم أعلم بشئون دنياكم» . . وبنوا على ظنهم الخطئ هذا ، اعتقادهم أن الرسول ﷺ اجتهد رأيه بصفته بشراً وليس وحياً من الله تعالى له ، وليس إلهاماً من الله عز وجل له . . لذلك قال ابن خلدون ما قال . . ونقل عنه المفكرون الذين عاصروه ومن جاءوا بعده ما نقلوا . . وأفتى خطأ من العلماء المعاصرين من كتب فى موضوع اجتهد الرسول بغير علم ولا هدى .

أما الذى يتدبر الحديث الشريف وهو على علم بما وصل إليه علماء المنهج العلمى فى الدراسة والفكر والبحث فى عصر العلم الحالى ، فإنه يجد فيه علماً عظيماً . . وتأسيساً للمنهج العلمى التجريبي الصحيح ، وهدماً للمنهج الإغريقى الخطئ الذى كان سائداً فى عصر نزول الرسالة ، وأدى إلى ركود فكرى كبير . .

سأله ﷺ : «ماذا يصنع هؤلاء؟» سؤال من يعلم ، فليس من المقبول عقلاً أن الرسول ﷺ لم يكن يعلم تلقيح النخل ، وهو الذى عاش فى الصحراء ، وسافر إلى الشام فى قوافل التجارة ، والذى هو أكثر الناس علماً ، بل وهو الذى كلفه الله تعالى بأن يعلم الناس ما لم يكونوا يعلمون من أمور حياتهم الدنيا . . إذن فقد ثبت أن سؤال رسول الله ﷺ كان سؤال من يعلم ، كأسلوب تعليمى وتربوى قال : ماذا يصنع هؤلاء؟ . . ففهم طلحة رضى الله عنه القصد من السؤال فأجابه .

أما قوله ﷺ : «ما أظن ذلك يغنى شيئاً» . فتعليم للناس وكيف يبدئون بحث أى موضوع بإقامة (الفرض الظنى) ، وهو المعروف علماً الآن باسم Hypothesis . فكان قوله ﷺ : «ما أظن ذلك يغنى شيئاً» مدخلا علمياً صحيحاً لبحث أى مسألة علمية ، لم يفهمه إلا العلماء فى أوروبا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . . والفرض الظنى - كما ذكرنا - لا بد أن يوضع فى تجربة تطول مدتها حتى تظهر نتائجها . . وحدث ما أراده الرسول ﷺ منهم ، فقد نزلوا عن النخل وتركوا تلقيحه . . وفى ذلك وضع المسألة فى تجربة . . إذن فقد قام فرض علمى ووضع موضع تجربة . . وهذا من الأسس الضرورية فى المنهج العلمى الصحيح فى البحث والدراسة . . وكان لا بد من الانتظار حتى تظهر نتائج التجربة ، وظهرت أخيراً ، فى قول طلحة رضى الله عنه (فصار شيصاً) إذن فهى نتيجة

سلبية للتجربة . وأظهر ذلك للناس أن الفرض الظنى لم يكن صحيحاً ، ليس قولاً ولكن عن تجربة وعلم . وبذلك علموا أن الفرض الظنى يخطئ ويصيب ، والفيصل فى ذلك هو نتائج التجربة ؛ لذلك قال رسول الله ﷺ : «إنما هو الظن إن كان يغنى شيئاً فاصنعوه فإنما أنا بشر مثلكم» . أى : افعلوا ما أفعل ، فإنما أنا بشر مثلكم (وهو فى الحقيقة ليس مثلهم) . وفى حديث آخر قال ﷺ : «إنى لست كهيتكم إنى أبیت عند ربى» . وقال الله عز وجل عنه : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (الكهف: ١١٠) إذن فقوله ﷺ : «إنما أنا بشر مثلكم» أى اهتدوا بما أقوله لكم فإنما أنا بشر مثلكم .

ثم يزيد الرسول ﷺ الأمر وضوحاً ويقول؟ : «وإن الظن يخطئ ويصيب» . . شرحاً لماهية الفرض الظنى أو الفرض العلمى . . ولا أدرى لماذا لم يلاحظ بعض المفسرين للحديث النبوى أنه قال : «وإن الظن يخطئ ويصيب» . كشرح لماهية الفرض الظنى ، ولم يقل : «وأنا أخطئ وأصيب» . أبداً لم يقل ذلك ؛ لأن الرسول ﷺ عصمه ربه عز وجل من الزلل والخطأ . . فهو معصوم مطلقاً ، أما قوله ﷺ : «أنتم أعلم بشئون دنياكم» . قول كريم أخطأ فى فهمه بعض المفسرين أيضاً ، فاعتقدوا جهلاً منهم بالحق أن المعنى : أنتم أعلم منى بشئون دنياكم!! . . وهذا يتعارض عقلاً مع ما جاء فى قول الله عز وجل : ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٥١) ، فالله تعالى أرسله معلماً للبشر جميعاً فى كل أمور الدين وكل أمور الدنيا ، وهذا ما قاله جمهور المفسرين للآية الكريمة . . وما دام الأمر كذلك فليس من المقبول عقلاً أن يفهموا من الحديث النبوى أن الرسول ﷺ كأنه يقول لهم : أنتم أعلم منى بشئون دنياكم . . وإنما المعنى الذى كان يجب عليهم أن يفهموه من نص الحديث الشريف «أنتم أعلم من بعضكم البعض بشئون دنياكم» وليس هناك وجه مقبول لفهم الحديث إلا هذا الوجه . . أما قوله ﷺ : «ولكن ما قلت لكم : قال الله . فلن أكذب على الله» . فهو قول شريف يضع الحد الفاصل بين علم الإنسان فى مجال العلم التجريبي ، وبين كلام الله عز وجل ، الذى لا يجب أبداً أن يضعه الناس فى فرض ظنى أو يخضعوه لتجربة . . بما سبق ندرك أن حديث تأبير النخل من أهم الأحاديث النبوية المشرفة وأعظمها أثراً .

٢ حديث العدوى

أخرج البخارى عن أبى حصين عن أبى صالح عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صَفَر» .

والعدوى : انتقال ميكروب مرض من إنسان مريض إلى إنسان سليم فيصاب بالمرض .
والطيرة : التشاؤم . وكان العرب فى الجاهلية إذا عزم أحدهم على أمر أطلق طائراً فى الجو ، فإن اتجه يساراً تشاءم ورجع عما كان قد عزم على القيام به ، وإن طار يمينا تفاءل وأقدم على ما كان قد عزم عليه .
الهامة : كان العرب يقولون : إذا قُتل الرجل ولم يؤخذ بثأره ، خرجت من رأسه دودة «هامة» ، فتدور حول قبره وتقول : اسقونى . . اسقونى . . فإن أدرك بثأره ذهبت وإلا بقيت . . وفى ذلك يقول أحد الشعراء فى العصر الجاهلى :

يا عمرو إلا تدع شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقيني
الصَفَر : دود فى البطن ، اعتقدوا أنه إذا جاع الإنسان هاج ذلك الدود ، وأحدث ضرراً بأمعائه .
فنهى رسول الله ﷺ عن كل ذلك فى الحديث الشريف .

وأخرج البخارى ومسلم عن سعيد بن ميناء قال : سمعت أبا هريرة يقول : إن النبى ﷺ قال : « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ، وفر من المجذوم فرارك من الأسد » .

وجاء فى الأثر أن النبى ﷺ تجنب مصافحة مريض بالجذام ؛ فقد أخرج الإمام مسلم عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال : كان فى وفد ثقيف رجل مجذوم فأرسل إليه النبى ﷺ : « إنا قد بايعناك فارجع » . وفى يوم آخر أكل مع رجل مجذوم فى قصعة واحدة . . فقد أخرج الإمام الترمذى عن جابر رضى الله عنه أن النبى ﷺ أكل مع المجذوم فى قصعة واحدة وقال له : « كل ثقة بالله وتوكلا عليه » .

وجاء فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « لا يُوردن مُمْرَضٌ على مُصِحٍّ » . وقد اعتقد بعض الناس أن فى هذه الأحاديث تعارضاً ، وفى الحديث نفى لحدوث العدوى ، وفى نفس الحديث إثبات لوجودها فقال : « وفر من المجذوم فرارك من الأسد » . . وفى حديث آخر ثبت أنه تجنب مصافحة رجل مجذوم .

وفى حديث آخر ثبت أنه أكل مع المجذوم فى قصعة واحدة وقال : « كُلْ ثَقَّةً بِاللَّهِ وَتَوَكَّلَا عَلَيْهِ » . وظن بعض المفسرين تعارضاً بين تلك الأحاديث النبوية عن العدوى ، إلا أن الإمام ابن القيم قال : لا تعارض بين تلك الأحاديث فلكل منها وجه من وجوه العلم . إلا أنه لم يستطع أن يبين ما وجوه العلم لكل من هذه الأحاديث المشرفة ، وكان له العذر فى ذلك فإن التفسير العلمى فيها لم يكتشفه العلماء إلا فى عصر العلم الحالى ، ولم يكن معروفاً من قبل قط . . وحتى نفهم ذلك ، لابد لنا من ذكر بعض الحقائق العلمية عن العدوى ، وخطوط المناعة فى جسم الإنسان ، بطريقة مبسطة بعيدة عن أى تفصيل علمى ؛ كل إنسان يعيش فى بيئة مزدحمة بالميكروبات ؛ لذلك جعل الله تعالى خطوط دفاع فى الجسم تصد تلك الميكروبات عنه .

خط الدفاع الأول : هو الجلد الذى يفرز مواد تقتل الميكروبات ، ويحمى الجسم منها . خط الدفاع الثانى : إذا كان بهواء الشهيق ميكروبات ، فإن بالرئتين خطوط دفاع تقابل تلك الميكروبات وتقضى عليها ، منها المخاط والسعال . . فالميكروبات تلتصق بالمخاط المبطن للشعبات الهوائية ، ويُطرد المخاط إلى الخارج بواسطة السعال ، كما أن بجدار الشعبات الهوائية شعيرات دقيقة متحركة دائماً ، تطرد المخاط والمواد الغريبة إلى الخارج ، فيسهل طردها بواسطة السعال . . وفى الرئتين خلايا جواله تلتهم الميكروبات أينما وجدت فى الرئتين ، وهذه الخلايا الجواله ليست فى الرئتين فقط ، ولكن فى أماكن كثيرة فى الجسم .

ونخط الدفاع الثالث : إذا وصل ميكروب إلى الدم تلتهمه الخلايا البيضاء فى الدم ، وإذا وصل ميكروب إلى القنوات الليمفاوية ، تلتهمه خلايا خاصة بالعقد الليمفاوية . وإذا وصل إلى المعدة قتل فى الوسط الحامضى فيها .

خط الدفاع الرابع : هو فى جهاز المناعة فى الجسم . . وهو جهاز يعمل فى منتهى الدقة والإبداع ، ويقتل الميكروبات التى تهاجم الجسم ، والتى تكون قد تغلبت على كل خطوط الدفاع السابقة ، ويفرز جهاز المناعة مواد مضادة لتلك الميكروبات فتقتلها . . والعجيب أن جهاز المناعة يتعرف على أى ميكروب يدخل الجسم فيقاومه ويفرز مواد مضادة تقتله فى الحال وفى المستقبل ، وتظل تلك المواد المضادة بالدم زمناً قد يطول ، حتى إذا عاودت الميكروبات هجومها على الجسم وجدت نفسها محاصرة بتلك الأجسام المضادة وتقتلها .

وهناك عوامل معينة تغير من قوة جهاز المناعة ، فتزيده قوة حيناً ، وعوامل أخرى تزيده ضعفاً حيناً آخر ، والأمر نفسه بالنسبة لجراثيم الأمراض ، فهناك عوامل تساعد على أن تكون قوية ، وعوامل أخرى تزيدها ضعفاً وخمولاً ، حتى لا تستطيع أن تسبب مرضاً .

وهكذا . . فنحن أمام حقيقة علمية وهى أن العدوى بجراثيم الأمراض قد تصيب الجسم بالمرض حيناً ، وهى نفسها قد لا تقوى على إصابة الجسم بالمرض حيناً آخر . . وبمعنى آخر العدوى بالجراثيم قد تسبب مرضاً للإنسان

السليم ، وقد لا تسبب مرضاً له حينئذٍ آخر ، وبذلك تصير العدوى وكأنها لا عدوى . وليس السبب فى كل ذلك بيد الإنسان ، ولا دخل للجراثيم فيه أيضاً ؛ لأن كلا من الجراثيم وخطوط الدفاع تعملان بقدر الله تعالى وأمره ، إن شاء الله تعالى جعل العدوى سبباً للمرض ، وإن شاء جعل العدوى لا عدوى ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (يس : ٨٢) .

ومن هنا يمكننا أن ندرك الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى الشريف فى قوله ﷺ : « لا عدوى » وفى نفس الحديث قوله « وفر من المجذوم فرارك من الأسد » ، ونفهم أيضاً المغزى العلمى فى تجنبه مصافحة المجذوم ، وفى مناسبة أخرى أكل مع المجذوم فى قصعة واحدة وقال : « كل ثقة بالله وتوكلاً عليه » .

فالعُدوى قد تكون عدوى حينئذٍ ، وقد تكون لا عدوى حينئذٍ آخر . . والأمر معلق بقدر الله تعالى وأمره . وإنما أمرنا الله تعالى بالأخذ بالأسباب فى بعض الأحاديث ، كما قال ﷺ : « لا يُوردَنَّ مُرَضٌّ عَلَى مُصَحٍّ » .

وكثير من الناس يصابون بالعدوى من جراثيم مرضية ، مثل جراثيم مرض التيفود أو جراثيم مرض التهاب السحائى البوائى ، ولا تظهر أى أعراض على بعض الذين أصابتهم العدوى ، ويصير أغلبهم حاملاً للميكروب ، ومصدراً للعدوى للغير ، إلا أن بعض الذين تصيبهم العدوى يمرضون .

إذن فالعدوى قد تسبب مرضاً ، ونفس العدوى بنفس الجراثيم قد لا تسبب مرضاً . هناك عدوى لا شك فى ذلك ، ولكن العدوى قد لا تكون عدوى فى كثير من الأحيان ؛ ذلك أن هناك الكثير من العوامل التى تجعل العدوى بجراثيم الأمراض كأن لم تكن ، ولا دخل فى كل ذلك لأسباب تتعلق بالجراثيم ، أو تتعلق بالجسم . فكل من الجراثيم والجسم مسخر لأمر الله تعالى ، فالأمر فى العدوى ، تكون أو لا تكون ، معلق بأمر الله تعالى ومشيئته ، وهو القائل عز وجل : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (التكوير : ٢٩) ، وهو القائل تعالى أيضاً : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ (الأنفال : ١٧) .

من هذا المنطلق الصحيح من الفهم العلمى ، يمكننا أن ندرك الإعجاز العلمى فى حديث رسول الله ﷺ : « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر » . ولكن ما الإعجاز العلمى فى الشق الثانى من الحديث النبوى « وفر من المجذوم فرارك من الأسد » ؟ نفهم ذلك إذا علمنا أن العدوى بميكروب الجذام تحدث عن طريق ملامسة جلد المريض مرات عديدة ولزمن طويل ؛ لذلك يظهر المرض فى المخالطين للمريض ، إلا أنه يظهر فى ١٪ منهم فقط ، مما يدل على أن العدوى بميكروب الجذام قد لا تصير عدوى فى معظم الأحيان ، وميكروب الجذام ميكروب ضعيف جدا ، يقتل على الفور فى الوسط الحامض فى المعدة ، لذلك لا تنتقل العدوى بالجذام عن طريق تناول الطعام مع مجذوم ، وهذا يفسر الإعجاز العلمى فى السنة النبوية المشرفة ، عندما تجنب رسول الله ﷺ مصافحة مريض بالجذام ، وبعد ذلك أكل مع مجذوم فى قصعة واحدة وقال : « كل ثقة بالله وتوكلاً عليه » . وفى أكثر أنواع الجذام شيوعاً تتغير ملامح المريض فيسقط شعر الحواجب ، ويغلظ جلد الوجه ، فترتفع الجبهة ، وكان أول وصف لوجه مريض الجذام سنة ١٨٤٧ ، وصفه طبيبان هما دانيال وبويك . وقالوا فى وصفهما بالنص : « إن وجه مريض الجذام يشبه وجه الأسد » ، Leonine face أى وجه الأسد .

ولم يوصف وجه المريض بالجذام بذلك الوصف العلمى قبل سنة ١٨٤٧ ، إلا أن الحديث النبوى الشريف وصفه بذلك حين قال ﷺ : « وفر من المجذوم فرارك من الأسد » . ونعجب من الحديث النبوى فى اختيار لفظ « الأسد » ، ولماذا لم يقل : « وفر من المجذوم فرارك من الأفعى » أو فرارك من الوحش مثلاً ، ولكن الحديث النبوى اختار لفظ الأسد ليجمع الصورة والمعنى والقصد فى كلمة واحدة ، وهذا إعجاز علمى مبين .

التفسير الإيماني للحديث النبوي الشريف:

قال رسول الله ﷺ : « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ؛ ولا صفر ، وفر من المجذوم فرارك من الأسد » . لو قال إنسان عادى هذا الكلام ، لكان كلامه متناقضاً حقاً ، لأن أول الحديث نفى لوجود العدوى ، وآخر الحديث إثبات لوجودها . . ولكن الرسول عندما يقول ذلك لا يكون متناقضاً أبداً ، ولماذا؟ لأن أحاديث أى إنسان هى لإنسان آخر ، فى وقت معين ، ولسبب معين ، ولتبليغ معنى معين . . أما أحاديث رسول الله ﷺ فهى مختلفة عن ذلك كثيراً .

فهى ليست موجهة لإنسان معين ، ولا لأمة بعينها ، ولا لعصر بعينه ، ولكنها موجهة للناس جميعاً ، فى كل عصر وزمان ومكان ، على اختلاف مستوياتهم الفكرية والعلمية ، وعلى اختلاف درجاتهم الإيمانية ، وفى مختلف العصور . . فالإنسان المتعلم المؤمن الواصل بربه إذا قرأ : « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر » . اقتنع وصدق الحديث ولم ينكر منه شيئاً ، فهو يؤمن بأن العدوى لا تكون إلا بإذن الله وأمره ، إن شاء صارت العدوى مرضاً ، وإن شاء صارت العدوى كأن لم تكن . . فالعدوى تكون أو لا تكون ، هى معلقة بأمر الله وقدره . . أما الإنسان الذى لم يصل إلى هذه الدرجة من الإيمان أو كان من العوام ، فيخاطبه الحديث النبوى بالشطر الثانى منه : « وفر من المجذوم فرارك من الأسد » . ويقرأ أيضاً الحديث الشريف : « لا يوردن عمرض على مصح » فيقتنع به ويؤمن ويصدق ولا ينكر منه شيئاً .

فالحديث النبوى رسالة من النبى ﷺ للناس جميعاً فى كل عصر من العصور ، على اختلاف مستوياتهم العلمية والإيمانية ، كل منهم يتعلم من الحديث جانباً من العلم ، وهكذا نجد فى الحديث النبوى وجوهاً كثيرة من الإعجاز العلمى .

حادث آبار بدر



قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (الشورى : ٣٨) . وهذا مبدأ رسول الله ﷺ مكلف بتطبيقه ، وتربية الفكر الإسلامى عليه فى كل موقف يتطلب الشورى ، ومن هذا ما حدث فى موقعة بدر الكبرى . . وهو حادث آبار بدر الذى لم يفهمه بعض الفلاسفة الفهم الصحيح ، وزعموا أن الرسول اجتهد فيه رأيه كبشر ، فجاء الواقع يخالفه وأشار عليه أحد الصحابة بالرأى الأصح ، كان حادث آبار بدر فرصة اغتنمها رسول الله ﷺ ليرسخ مبدأ الشورى ويعلم الناس كيف يمارسونه . . وبالتالى ينفضون عن أنفسهم الجمود الفكرى الذى كان سمة الفكر الإنسانى فى تلك العصور ، والذى كان يؤكد أن آراء الآباء والأجداد آراء مسلماً بها ، ولا يجب أن تخضع لنقاش .

لما تأهب جيش المسلمين لخوض معركة بدر ، وأشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جيش المسلمين أن يتخذوا موقعاً فى أدنى ماء من بدر . فقام الحباب بن المنذر وقال : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل ، أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ فقال رسول الله ﷺ : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » . فقال الحباب : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور ما وراءه من القلب ، ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون . . واستمع رسول الله ﷺ لكلام الحباب بن المنذر ثم قال على مسمع من الجميع : « لقد أشرت بالرأى » . فانهض بالجيش حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ، ثم أمر بالقلب فغورت . . وبنى حوضاً على القلب الذى نزل عليه ، فملئ ماءً ، فأقبل نفر من قريش ليشربوا من الحوض ، فما شرب منه رجل منهم يومئذ إلا قُتل .

من حادث أبار بدر نفهم أن الرسول ﷺ لم يجتهد رأيه في الأمر كبشر عادى . . ولكنه كان من إلهام النبوة الذى خصه الله به ، فكان ما حدث أمراً مقصوداً ليكون تطبيقاً لمبدأ الشورى فى الإسلام ، وتعليماً للناس كيف يمارسونه حتى مع رسول ﷺ نفسه ، فيما لم ينزل فيه وحى صريح من الله تعالى ، وتطبيقاً لقوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (آل عمران : ١٥٩) . وقوله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى : ٣٨) ، لذلك رد رسول الله ﷺ على الحباب ابن المنذر قال : «لقد أشرت بالرأى» أشرت : أى أعطيت المشورة ، ولا يشير بالرأى إلا الذى يستشار فيه . . فكان رسول الله ﷺ طلب من القوم المشورة دون أن يعلن عن ذلك باللسان ، فلما تكلم الحباب بادره الرسول ﷺ بالقول : «لقد أشرت بالرأى» أى أعطيت المشورة . وبذلك علم رسول الله ﷺ المسلمين كيف يمارسون مبدأ الشورى . . وهو من المبادئ الرئيسية فى الإسلام ، لا يتحرر الفكر الإنسانى إلا به ، ولا يقوم المنهج الصحيح فى الفكر البشرى بسواه .

حادث أسرى بدر

قال الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال : ٦٧) . الآية الكريمة فيها عتاب من الله تعالى فى المقام الأول لأصحاب النبى . . ومن معانى الآية : ما كان ينبغى لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذى أوجب أن يكون للنبي أسرى ، قبل الإثخان ، أى كثرة القتل ، ولم يكن العتاب من الله تعالى لرسوله ، وإنما لأصحابه ، ودليل ذلك ضمير الخطاب فى الآية الكريمة : ﴿ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ . والرسول لم يأمر باستبقاء الأسرى وقت الحرب ، ولا أراد أبداً عرض الدنيا ، فالتوبيخ والعتاب كان موجهاً لمن أشار على الرسول ﷺ بأخذ الفدية . وهذا قول أكثر المفسرين ، وهو الذى لا يصح غيره . . وما حدث من مشاورات فى ذلك الموضوع كان من قبيل تطبيق مبدأ الشورى ، وقد ألح بعض المسلمين على رسول الله ﷺ على أخذ الفداء ، وأسند الطبرى وغيره أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه قبل نزول الآية : «إن شئتم أخذتم فداء الأسرى ، ويُقتل منكم فى الحرب سبعون على عددهم ، وإن شئتم قتلوا و سلمتم . فقالوا : نأخذ الفداء ويستشهد منا سبعون . وقال عبيدة السلماني : طلبوا الخيرتين كلتيهما . . فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلاً . وبذلك تحقق قول رسول الله ﷺ لأنه لا ينطق إلا حقاً عن وحى أو إلهام النبوة . . وقد يقال : إذا كان التخيير ، فلم وقع التوبيخ والعتاب؟ الجواب على ذلك أن التوبيخ وقع أولاً لحرصهم على أخذ الفداء ، ثم دفع التخيير بعد ذلك . ودليل ذلك أن رسول الله ﷺ لما أمر بقتل عقبة ابن أبى معيط ، قال المقداد : إنه أسيرى يا رسول الله ! . . وقال مصعب بن عمير للذى أسر أخاه : شدّ عليه يدك فإن له أمّا موسرة . . إلى غير ذلك من القصص التى تدل على شدة حرصهم على أخذ الفداء . ولماذا جاء ذكر النبى فى الآية الكريمة وهو لم يأمر بأخذ الفدية؟ ذلك لأنه ﷺ لم ينه عنه ، وذكره عمر بن الخطاب وسعد ابن معاذ وعبدالله بن رواحة . . ولكنه ﷺ شغله بَعَثُ الأمر ونزول النصر ، فترك النهى عنه .

ولم يخطئ الرسول ﷺ فيما قضى فى أسرى بدر قبل أن ينزل الأمر الصريح فيهم بغير ما قضى رسول الله ﷺ . . ودليل ذلك أن قضاء رسول الله ﷺ لم يُغَيَّر بعد نزول الآية . وهذا دليل على أن الرسول ﷺ قضى بالصواب . . ولا يصحح الصواب ، وإنما نزل القرآن الكريم بالأصوب .

٥ إعراض الرسول ﷺ عن ابن أم مكتوم

هو عبدالله بن شريح ، وأم مكتوم كنية أمه ، أتى رسول الله ﷺ وعنده صناديد قريش : الوليد بن المغيرة ، والعباس بن عبدالمطلب وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة . أتى ابن أم مكتوم رسول الله ﷺ وهو يحاول إقناع أولئك المشركين بالدخول في الإسلام . . فراح ابن أم مكتوم يكرر ويلح على رسول الله ﷺ : (أقرئني وعلمني مما علمك الله) وكان الموقف محرّجاً لرسول الله ﷺ ، فابن أم مكتوم يقطع كلامه مع كفار قريش . . فعبس رسول الله وأعرض عنه ، واستمر في إقناع المشركين فنزلت الآية . وفهم بعض الناس منها أن الرسول ﷺ أخطأ ، وأن الوحي نزل يصحح له ما أخطأ فيه . . وإذا تدبرنا الآيات الكريمة في أول سورة عبس أدركنا أن الرسول ﷺ لم يخطئ والأدلة على ذلك كثيرة ، منها :

أولاً : أن ابن أم مكتوم يستحق التأديب ، وما عاتب الله رسوله على أنه عبس وتولى عن ابن أم مكتوم ، وإنما كان عبوس الرسول ﷺ رد فعل لسوء أدب ابن أم مكتوم .

الثاني : أن ابن أم مكتوم كان أعمى ولكنه كان يسمع حوار الرسول مع المشركين ، وكان يدرك أهمية ذلك الحوار ، إلا أنه أصر على أن يقطع كلام النبي ، وفي ذلك إيذاء للنبي ﷺ وإيذاء النبي بأي صورة من الصور معصية كبرى .

الثالث : ابن أم مكتوم كان مسلماً ، والمشركون لم يكونوا مسلمين ، فكان الحوار معهم لإقناعهم أهم من مسألة ابن أم مكتوم للنبي ، ولكن ابن أم مكتوم قدم غرض نفسه على مصلحة الإسلام .

الرابع : أن الله ذكر ابن أم مكتوم باسم (الأعمى) وفي ذلك تحقير لشأنه .
وإذا كان في الآيات الكريمة معنى العتاب لرسول الله من ربه ، فهو عتاب من باب الرأفة به والحنان عليه ، فكأن الله تعالى يقول له : لم تشق على نفسك كل هذه المشقة مع كفار ذوى عقول متحجرة ، وتترك مسلماً يطلب منك سؤالاً سهلاً ، ولا عليك من أولئك المشركين . وفي ذلك يقول الله عز وجل ﴿ أَمَّا مِنْ استَغْنَى ﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * مَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزُكِّيَ ﴾ (عبس : ٥ - ٧) . أى لماذا الحرص على إدخالهم الإسلام ، وما عليك إلا البلاغ؟

ونزل عتاب الله لرسوله بأسلوب رقيق ، وكان الخطاب للنبي بضمير الغيبة ، وبدون ذكر اسمه الكريم مجرداً . فلم يقل : (عبست وتوليت) ولكنه تعالى قال عن رسوله :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾ (عبس : ١ ، ٢) وكان العتاب للرسول أنه حمل نفسه مشقة لم يطلبها الله تعالى منه . وليس في ذلك خطأ من الرسول . . وإنما فعل الصواب . . ولكن الوحي الإلهي له نزل بالأصوب فقال الله تعالى بعد ذلك يخاطبه بضمير الحاضر : ﴿ وَمَا يَذْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ﴾ * أَوْ يَذْكُرُ فِتْنَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ * أَمَّا مِنْ استَغْنَى ﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي ﴾ * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴾ * وَهُوَ يَخْشَى ﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ (عبس : ٣ - ١٠) .

مما سبق ندرك أن العتاب من الله تعالى لرسوله لم يكن لخطأ ارتكبه الرسول ، وإنما كان توجيهاً له إلى ما هو أصوب و عطفاً عليه من الله تعالى ورأفة . .

وكان على الذين ظنوا أن الله تعالى عاتب رسوله لأنه أخطأ أن يسألوا أنفسهم :
كل عتاب للرسول من ربه . . من أعلمنا به؟ ألم يكن الرسول نفسه؟ . . ومن راجع الرسول بالأصوب في أمر قضى الرسول بالصواب فيه؟ ألم يكن الله عز وجل؟ ولو لم يخبرنا الرسول ﷺ بكل ذلك ما علمنا شيئاً .

٦ إذن الرسول ﷺ للتخلف عن القتال

قال تعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (التوبة : ٤٣) .

ظن بعض الناس أن نزول : هذه الآية يدل على أن الرسول ﷺ أخطأ في الإذن لبعض المسلمين بالتخلف عن القتال ، وقالوا : إن قوله تعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ﴾ ، يدل على وقوع خطأ ، وإن قوله تعالى : ﴿ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ . استفهام إنكارى يدل على وقوع خطأ من الرسول . إلا أن الذين ظنوا ذلك كانوا منخطئين ؛ فالرسول ﷺ لم يخطئ في الإذن لبعض المسلمين في التخلف عن القتال بسبب أعذار أبدوها للرسول واقتنع بها ؛ وذلك للأسباب الآتية :

الأول : قوله تعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ﴾ . لا يدل على وقوع خطأ من الرسول ، وإنما يدل على المبالغة في تعظيمه وتوقيره ، كما يقال لرجل عظيم : عفا الله عنك ، ماذا صنعت في أمري؟
فقوله تعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ﴾ . لا يدل على وقوع خطأ من الرسول ، وإنما يدل على تعظيم الله تعالى له .
الثاني : قوله تعالى : ﴿ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ . ليس سؤالاً إنكارياً يدل على الاستنكار لأنه سبق بقوله تعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ﴾ . وهو قول يدل على حصول عفو الله عنه ، وبعد حصول عفو الله عنه ، يستحيل أن يخاطب بقول يدل على الاستنكار .

الثالث : الرسول لم يخطئ في الإذن لبعض المسلمين بالتخلف عن القتال ؛ لأن الله تعالى فوضه من قبل في سورة النور - وقد نزلت سورة النور قبل سورة التوبة بزمان طويل - في أن يأذن لمن يشاء من المسلمين بالتخلف عن الغزو وذلك في قول الله عز وجل :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . (النور : ٦٢) .

فالرسول ﷺ وضع أمر الله تعالى له موضع التنفيذ ، فأذن لمن قدموا الأعذار الموجبة للتخلف عن الغزو . فالرسول لم يخطئ وإنما فعل الصواب ، ولكن الوحي نزل بالأصوب ، وليس في الصواب خطأ فقال : ﴿ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ ؟ أى : لم تركت الأصوب وتركت التثبت والتأني قبل الإذن لهم بالتخلف؟ وفي الآية الكريمة تتجلى محبة الله تعالى لرسوله ، ورأفته به ، فكأنه يقول له « عفا الله عنك لم تشق على نفسك كل هذه المشقة ، وتقلل عدد جنودك ، وتصعب الأمر على نفسك؟ فهلا تأنيت وتثبتت » ومن كل ما سبق لا نجد أن الرسول أخطأ في شيء . . . وإن من ظنوه أخطأ كانوا هم المخطئين .

٧ دعاء الرسول ﷺ في أحد

ظن بعض الناس أن الرسول أخطأ في دعائه على المشركين .

أخرج الإمام البخارى عن حميد وثابت عن أنس قال : شُجَّ النَبِيُّ ﷺ يوم أحد فقال : «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟» .

أما فى مسند الإمام أحمد وسنن الترمذى والنسائى : عن حميد عن أنس قال : كسرت رباعيةُ النَبِيِّ ﷺ يوم أحد وشُجَّ رأسه فجعل الدم يسيل على وجهه ، وجعل يمسح الدم ويقول : «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم» ! فنزلت الآية : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (آل عمران : ١٢٨) . فالرسول لم يخطئ . وجاء فى صحيح مسلم عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ جعل يقول : «رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون» . فشق ذلك على أحد الصحابة فقال : لو دعوت عليهم يارسول الله . فقال «إنى لم أبعث لَعَنًا ولكننى بعثت داعيًا ورحمة» .

واشتد غضب الله تعالى على أعداء الرسول وحكم عليهم بأنهم ظالمون .

أما رواية ثابت فوصلها مسلم من رواية حماد عن سلمة عن ثابت عن أنس قال : إنه رأى النَبِيَّ ﷺ يوم أحد وهو يَسْلُتُ الدم عن وجهه ويقول : «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وأدموا وجهه وهو يدعوهم إلى الله!» فنزلت الآية . . والرباعية هى السن التى بين الثنية والناب ، وقيل إنها كسرت فنزلت منها فلقة ولم تقلع من أصلها .

وذكر ابن هشام فى حديث أبى سعيد الخدرى أن عتبة بن أبى وقاص هو الذى كسر رباعية النَبِيِّ ﷺ السفلى ، وجرح شفته السفلى ، وأن عبدالله بن شهاب الزهرى هو الذى شجّه فى وجنته ، وأن عبدالله بن قمئة جرحه فى وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته ﷺ ، وروى أن سعد بن أبى وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : فما حرصت على قتل رجل قط حرصى على قتل أخى عتبة بن أبى وقاص لما صنع برسول الله ﷺ يوم أحد .

بما سبق نفهم أن رسول الله ﷺ لم يخطئ فى شىء ، وإنما طلب المغفرة لمن اعتدى عليه ، فنزل قول الله تعالى وكأن الله تعالى يقول له : كيف تستغفر لهم وقد فعلوا بك هذا وأنت تجاهد فى سبيلى ، فلا تستغفر لهم ، فإن الأمر لى وحدى ، إن شئت تبت عليهم ، وإن شئت عذبتهم ، فإنهم ظالمون . ونظير ذلك قوله عز وجل ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة : ٨٠) .



كيف بدأ الخلق؟



كيف بدأ الخلق

كيف بدأ الخلق؟

أخرج البخاري عن ابن فضيل عن عُمارة عن أبي زُرعة أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «قال الله عز وجل : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟ فليخلقوا ذرة ، أو فليخلقوا حبة ، أو شعيرة» .

وفى رواية سمعت رسول الله ﷺ يقول : «قال الله تعالى : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ، فليخلقوا حبة ، وليخلقوا ذرة» .

أى لا أحد أظلم ممن قصد أن يصنع ويقدر كخلقي ، والحديث فيه التحدى للكفار بأن يخلقوا أقل الأشياء إن استطاعوا ، ولن يستطيعوا .

كيف بدأ الخلق؟

منذ وجود الإنسان على هذه الأرض ، وهو يفكر فى هذا السؤال ، ويحاول أن يجد له جوابا . وظل يفكر ، ويسرح به الخيال ، ينظر إلى نفسه ، ويفكر كيف خُلق؟ وينظر إلى الخلائق من حوله ، ويعجب لهذا النظام البديع فى الخلق ، ويفكر كيف بدأ خلق كل هذا؟ ويرفع بصره إلى السماء ، ويفكر ، كيف بدأ خلق السماء وما فيها من نجوم؟

وعلى مر العصور ظهر كثيرٌ من الأفكار عن كيفية بدء الخلق . . وكانت أفكارا ليس لها من الحق نصيب ، وفى القرنين الماضيين ، ظهرت نظريات جديدة عن كيفية بدء الخلق ، ولعل من أهمها تلك النظريات التى زعمت أن وجود الكائنات الحية ابتدأ فى مياه البحار البدائية ، وبدأ من مواد بروتوبلازمية تجمعت بطريق المصادفة . ولقد كان أساس تلك النظريات عن كيفية بدء الخلق ؛ هو أن الخلق بدأ بطريق المصادفة ، أى أنه نشأ هكذا «مصادفة وعشوائية» .

ولقد تحمس أعداء الدين لتلك النظريات تحمسا شديدا ، لأن معنى نشأة الخلق بطريق المصادفة ، أن الوجود أوجد نفسه بنفسه ، أى إنه ليس مخلوقا ، وبالتالي ليس له خالق ، فتحمسهم لهذه النظريات إنكار منهم لوجود الله عز وجل ، فأساس تلك النظريات أساس إلحادىٌ بحث . من هنا كان تحمس أعداء الدين لتلك الأفكار الضالة والنظريات الخاطئة .

ومن المؤسف أن الكثيرين ممن آمنوا بهذه النظريات من أهل الكتاب ، ولكنهم من أهل الكتاب بالاسم فقط ، والبعض منهم يحمل أسماء إسلامية ، فهم مسلمون بالاسم فقط ، والإسلام منهم براء .

وإذا واجهناهم بالتوازن المتقن فى الخلق ، والنظام العظيم فى الكون ، عموا وصموا ، وصدق فيهم قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ (الكهف : ٥٧) ، لقد أجمع أكثر هؤلاء الناس على أن الحياة بدأت فى البحار البدائية الأولى من مركبات عضوية ، وأن تلك المركبات العضوية نشأت تلقائيا وعشوائيا ، ثم تحولت من تلقاء نفسها إلى مواد بروتوبلازمية دبّت فيها الحياة بعد ذلك .

إن المواد البروتوبلازمية - كما اكتشف العلم الآن - مواد مكونة من الآلاف من الأحماض الأمينية ، وكل حامض أميني ، مكون من العديد من الذرات ، فى نظام بالغ الدقة ، بالغ الإتقان ، بالغ الإعجاز ، وكل نظام لابد له من منظم ، وكل خلق لابد له من خالق والخالق هو الله عز وجل .

إن الناس الذين خرجوا بتلك النظريات لم يكونوا على علم بمكونات المواد البروتوبلازمية ، والتي لم تكن معروفة فى زمنهم ، وإلا ما جرؤوا على الزعم بخلقها مصادفة .

وكلما تقدم العلم تشبث أعداء الدين بتلك النظريات أكثر وأكثر ، لأنها سلاح بيدهم ضد الدين ، وبحثوا عن مبررات علمية عن نشأة الخلق تلقائيا ، بدون خالق . فقالوا إن المواد العضوية نشأت نتيجة وجود غازات الميثين والأمونيا والنيتروجين فى الغلاف الجوى فى الأرض البدائية .

وهكذا ولأول مرة ، أقاموا نظرية علمية استندت إلى علم تجريبى ، وقاموا بإثباتها فى المعمل ، بتحضير تلك الغازات وإطلاق شرارة كهربائية عليها ، فحصلوا على عدد من الأحماض الأمينية ، وقالوا إنهم وجدوا الدليل العلمى على كيفية بدء الخلق تلقائيا ، وافترضوا أن جو الأرض البدائية كان مكونا من تلك الغازات ، وحدثت طاقة حرارية هائلة على شكل شرارات ، أو صواعق هائلة حولت تلك الغازات إلى مواد بروتوبلازمية فى البحار البدائية ، فنشأت منها الكائنات الحية جميعا .

إذا استمع أحد من الناس إلى تلك النظريات فليعلم أنهم أخطئوا وفاتهم أشياء :

أولا : لماذا لم يسألوا أنفسهم : من أوجد تلك الغازات فى جو الأرض؟ من خلقها؟ لابد لها من خالق .

ثانيا : ومن خلق الطاقة الحرارية الهائلة ، التى حولت تلك الغازات إلى مواد عضوية؟ لابد لها من خالق .

ثالثا : كوكب المشترى وأورانوس والزهرة جوها مشحون بمثل هذه الغازات حتى الآن فلماذا لم تنشأ عليها الحياة؟

رابعا : الأحماض الأمينية التى تكونت نتيجة التجارب كانت أحماضا أمينية ميتة . ومجرد تفاعلات كيميائية تجريبية .

خامسا : هم لم يشاهدوا بدء الخلق . فكيف يؤكدون حدثا لم يروه ولم يشاهدوه؟ ، لقد سبق فى علم الله عز وجل ، أمر أولئك الضالين المضللين الذين ينكرون نشأة الخلق بقدرة الله تعالى وأمره ، ويتحدثون عن ذلك بغير علم وبغير هدى .

قال الله عز وجل : ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا ﴾

(الكهف : ٥١) .

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ ﴾ : الضمير يعود إلى إبليس وذريته . وقيل يرجع إلى منكرى حقيقة الخلق ومنكرى وجود الله عز وجل ، وكلا الرأيين صحيح .

فذرية إبليس من شياطين الجن ، ومنكرو حقيقة الخلق ، من شياطين الإنس ، ووصفتهم الآية بالمضللين .

وبعد أن تكلمنا فى موضوع كيفية بدء الخلق نناقش الآن موضوع الصدفة فى بدء الخلق .

تعالوا بنا نطالع الحقائق العلمية عن تكون المواد العضوية الأولى فى الخلية الحية ، ونرى إن كان للمصادفة مكان فى خلقها أم أنه يستحيل أن يكون للصدفة مكان فى ذلك ، وإنما هو من تقدير الله عز وجل وخلقهم وأمره .

وسنتحدث عنها من منطلق علمى بحث ، وليس من منطلق دينى ، لأن الموعظة الدينية إذا كانت تفيد المؤمن ؛ فإنها لا تفيد غير المؤمن فى شيء ، لذلك سنتحدث عن تلك الحقائق بلغة يقتنعون بها .

لقد جاءتنا الرياضيات الحديثة بالحل :

فالمصادفة لم تعد افتراضا ، وإنما صارت لها معادلات رياضية فى قانون رياضى اسمه «قانون الصدفة والاحتمال» . ويمكننا بهذا القانون الرياضى أن نميز بين إمكان وقوع حادث من نوع معين ، بطريق الصدفة ، وبين استحالة ذلك . ويمكننا أن نفهم قانون الصدفة والاحتمال إذا ضربنا المثل الآتى :

إذا وضعنا فى كيس عشر أوراق ، وكتبنا على كل منها رقما من ١ إلى ١٠ ، ثم أخذنا نخرج ورقة ورقة منها بطريقة الصدفة ، ونسجل رقمها ، ثم نعيدها إلى الكيس ونخلطها بباقي الأوراق ، ونخرج ورقة أخرى بطريقة الصدفة ونسجل رقمها ، ثم نعيدها مرة أخرى إلى الكيس .

القانون الرياضى يقول : إن إمكانية أن نخرج الورقة المكتوب عليها رقم ١ هى ١ من ١٠ وإمكانية أن نخرج ورقتين متتاليتين تحملان رقم ١ ، ٢ بالترتيب هى ١ من ١٠٠ .

وإمكانية أن نخرج خمس ورقات متتاليات تحمل أرقام ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ بالترتيب هى ١ من ١٠٠,٠٠٠ محاولة . وإمكانية أن نخرج عشر ورقات متتاليات تحمل الأرقام من ١ إلى ١٠ بالترتيب هى ١ من ١٠,٠٠٠ مليون محاولة ، هذه التجربة البسيطة تبين لنا كيف أن ترتيب الأرقام من ١ إلى ١٠ بطريق الصدفة والعشوائية تحتاج إلى نحو ١٠,٠٠٠ ملايين محاولة .

فإذا علما أن الجزيء البروتينى الذى لا يرى حتى بالمجهر الإلكتروني ، مكون من آلاف الذرات مرتبة ترتيبا معينا ، لا يتغير أبدا ، فأى نسبة فى خلق الجزيء البروتينى تكون فى صالح قانون الصدفة والاحتمال؟ هناك عالم رياضى مشهور يدعى تشارلز يوجين أراد أن يعرف ذلك بناء على قانون الصدفة والاحتمال ، فوجد بعد الدراسة أن خُلِقَ جزيء بروتينى بطريق الصدفة ، يتطلب مادة يزيد مقدارها ١٠٠٠ مليون مرة على المادة الموجودة فى الأرض ، وإذا استغرقت كل محاولة دقيقة واحدة ، فإن المحاولات التى يحتمل علميا أن يتكون فيها جزيء بروتينى هو رقم ١٠ وعلى يمينه ٢٤٣ صفراً من السنين وهو مئات أضعاف عمر الأرض . إذن فلا توجد مادة فى الأرض ولا أضعاف أضعاف عمر الأرض تكفى لاحتمال - مجرد احتمال - خلق جزيء بروتينى واحد بطريق الصدفة .

والأرض لم تخلق إلا منذ نحو خمسة آلاف مليون سنة فقط ، والحياة لم تكن موجودة إلا منذ نحو بليونى سنة فحسب .

فى خلال هذه المدة القصيرة نسبيا خلق الله عز وجل فى الأرض مائتى ألف نوع من النبات ، ومائتين وخمسين ألف نوع من الكائنات البحرية الحية ، ومائتين وخمسين ألف نوع من الكائنات البرية الحية . إذن هناك استحالة علمية واضحة لخلق الكون بطريق الصدفة كما قالت الدكتورة الأمريكية مارلين كريدنر «إن الإمكان الرياضى فى توفير الأسباب اللازمة للخلق بطريق الصدفة فى نسبها الصحيحة هو فى حكم الاستحالة» .

آدم والجنة

* أخرج البخارى عن حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال : قال رسول الله (ﷺ) : «احتج آدم وموسى فقال له موسى : أنت آدم الذى أخرجتك خطيئتك من الجنة . فقال له آدم : أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ثم تلومنى على أمر قُدِّرَ على قبل أن أخلق؟ فقال رسول الله (ﷺ) : فحج آدم موسى مرتين» .

* وأخرج مسلم عن طاوس قال سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله (ﷺ) : «احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة . فقال له آدم : أنت موسى . اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده أتلومنى على أمر قدَّره الله على قبل أن يخلقنى» فقال رسول الله (ﷺ) : «فحج آدم موسى . فحج آدم موسى» .

* أخرج مسلم عن عبد الرحمن الأعرج عن أبى هريرة أن رسول الله (ﷺ) قال : «احتج آدم وموسى عليهما

السلام عند ربهما . فحج آدم وموسى . قال موسى : أنت آدم الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك جنته ، ثم أهبك للناس بخطيئتك إلى الأرض ؟ فقال آدم : أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء ، وقربك نجيا ، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق ؟ فقال موسى : بأربعين عاماً ، قال آدم : فهل وجدت فيها (وعصى آدم ربه فغوى) قال نعم قال : أفتلومنى على أن عملت عملاً كتبته الله على أن أعمله قبل أن يخلقنى بأربعين سنة ؟ . قال رسول الله (ﷺ) : «فحج آدم موسى» .

(قبل أن تخلقنى بأربعين سنة) هى من سنوات الله التى لا يعلم مقدارها إلا الله عز وجل . . ولا تقاس بالزمن الذى نعرفه ، لأن الزمن عند الله فوق كل زمان ومكان فى هذا الوجود . .

وأخرج البخارى عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) قَالَ : «خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً ثم قال : اذهب فسلم على أولئك الملائكة فاستمع ما يحيونك تحيتك وتحية ذريتك . فقال : السلام عليكم . فقالوا : السلام عليك ورحمة الله وبركاته . فزادوه (ورحمة الله) فكل من يدخل الجنة على صورة آدم . فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن» .

٣ قصة آدم وحواء فى الجنة

جاء فى الصحيح عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) قَالَ :

«إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون ، أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة وأزواجهم الحور العين ، على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً فى السماء» وفى رواية : «خلق الله آدم على صورته وطوله ستون ذراعاً» .

والمعنى أن الله أوجد آدم على الهيئة التى خلقه عليها ، رجلاً كاملاً سوياً من أول ما نفخ فيه الروح . والمقصود من قوله : «فى السماء» أى فى العلو والطول والارتفاع ، والذراع الهاشمى نصف المتر تقريباً . فيكون طول آدم نيافاً وثلاثين متراً . . والله أعلم .

هل كان على الأرض إنسان قبل خلق آدم؟

ويكفى هنا أن نوجز الإجابة فى كلمات . . ونقول إن آدم هو أول إنسان ظهر على هذه الأرض . . ولم يكن قبله إنسان ولم ينحدر خلقه من نوع آخر كما زعم علماء التطور قديماً ، فلقد حسم علم الوراثة فى القرن العشرين هذه القضية ، فالشفرة الوراثية فى كل مخلوق حى مميزة له ، ولا تتبدل أبداً ، لذلك لا يتبدل نوع من الخلق إلى نوع آخر من الخلق ، ولا تبدل لخلق الله . فذلك قول الله تعالى : ﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ (الروم : ٣٠) .

هل دخل آدم الجنة وحده أم كانت حواء معه؟

لم يدخل الله تعالى آدم وحده الجنة ، وإنما أدخله وحواء معه ، ولقد خلق الله تعالى : آدم قبل خلق حواء بزمن يعلمه الله تعالى ، ولم يسكنه الله الجنة إلا بعد أن خلق له حواء زوجاً له . . فقبل زواجه بحواء لم ير الجنة قط ولم يدخلها . .

يقول الله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ (البقرة : ٣٥) ، قوله تعالى : ﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ يدل على أن الله تعالى أسكن آدم وزوجه الجنة ولم يملكهما إياها ، لأن السكنى لا تكون تملكاً ، وإنما هى

لمدة وتنتهى ، فدخل آدم وحواء الجنة كان للسكن فيها مدة محددة ، وليس للإقامة الدائمة فيها ، ودليل ذلك كلمة «اسكن» .

وأين خلق آدم؟

كان خلق آدم فى بدء الخلق الذى لم يره أحد إلا الله تعالى وملائكته ، وقال تعالى : ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ (الكهف : ٥١) . . وما يقال عن مكان خلق آدم اعتماداً على الأحافير قول لا يمكن الاعتماد عليه ، لأن الأحافير لا تحدد نوع الخلق . . ولا يوجد مرجع علمي عن مكان خلق آدم إلا الوحي الإلهي فى القرآن والسنة . . فقد أخرج الإمام أحمد فى المسند عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان - يعنى عرفة - فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها ونشرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قائلاً : ألسنت بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين» نفهم من الحديث الشريف أن الله عز وجل خلق آدم من طين ، ثم نفخ فيه من روحه ، وأسجد الملائكة له على جبل عرفة أو بالقرب منه بنعمان . . وعلى هذا الجبل العظيم حدث ذلك الحدث العظيم . . حدث خلق آدم أبى البشر ، وقد يكون ذلك هو السبب - والله أعلم - أن الحجيج يقفون على عرفة . . ووقوفهم هناك أهم ركن من أركان الحج كما قال رسول الله ﷺ : «الحج عرفة» .

وأين خلقت حواء؟

لا ندرى . . ولا نجد فى القرآن والسنة ما يدل على ذلك . . وقد يكون ذلك لأنه ليس مهماً أن نعرف أين خلقت حواء ، ولكن المهم أن نعرف كيف خلقت . . إنها خلقت من نفس آدم ومن جسده . . ودليل ذلك أن الشفرة الوراثية فى جسم آدم هى نفس الشفرة الوراثية فى جسم حواء ، مما يدل على أنها خلقت من جسمه ومن نفسه انقسامياً . . تماماً كما ينقسم الحامض النووى DNA وينشط إلى نصفين . . كل نصف يكمل نصفه الآخر ويعود كما كان . . ودليل ذلك أن حواء خلقت من ضلع آدم ، لم ينقص ذلك آدم ضلعاً من أضلاعه ولم ينقص من جسده شيئاً . . كما قال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ (الأعراف : ١٨٩) .

(النفس الواحدة) هى آدم و(زوجها) حواء . . جعلها الله من جسد آدم لذلك كان من الطبيعى أن يسكن آدم لحواء ، وأن تسكن حواء لآدم ، لأنهما معاً خلقا من نفس واحدة . . وأن يجعل بينهما مودة ورحمة كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم : ٢١) .

هل وسوس الشيطان لآدم أم لحواء فى الجنة؟

جاءت قصة وسوسة الشيطان فى تراجم العهد القديم فى سفر التكوين ، مختلفة تماماً عما ذكره القرآن الكريم عن نفس القصة . تقول تراجم سفر التكوين «نهى الرب آدم عن أكل شجرة المعرفة ، وإن الشيطان كان على شكل حية نصب شركاً لحواء ، فلما أكلت حواء من الشجرة أغوت آدم فأكل منها» .

أما القرآن الكريم فذكر ما يخالف ذلك تماماً - دلالة على أن محمداً ﷺ لم ينقل عن التوراة كما زعم اليهود ، ولم يذكر القرآن الكريم أن الشيطان كان على شكل حية ، ولم يذكر أن الشيطان وسوس لحواء فأكلت من الشجرة وأغوت آدم فأكل منها . . وإنما وسوس الشيطان لآدم ، وأن آدم هو الذى عصى ربه * . . جاء ذلك فى قول الله عز

* (وعصى آدم) أى خالف أمر ربه . . و«غوى» أى ضل . فالغواية والضلالة اسمان مترادفان . .

وجل : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴾ (طه : ١٢٠) ، فوسوسة الشيطان كانت إلى آدم وليست إلى حواء . . قال تعالى : ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (طه : ١٢١ ، ١٢٢) ، ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا ﴾ الضمير يعود إلى آدم وحواء . . فحواء رأت آدم يأكل من الشجرة ففعلت مثل ما فعل . . شأنها في ذلك شأن أية امرأة تفعل ما يفعل زوجها . . فالوسوسة من الشيطان كانت إلى آدم ، والعصيان كان من آدم ، والغواية كانت من آدم ، وأغوى آدم حواء فأكلت من الشجرة مثلما أكل * .

ولم يكن آدم وحواء عرايا في الجنة - كما ذكر مترجمو التوراة - بل كانا يلبسان ملابس على جسديهما قبل أن يأكلا من الشجرة المحرمة . . فلما أكلا من الشجرة نزعت عنهما ملابسهما .

كما قال الله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ * يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ﴾ (الأعراف : ٢٦ ، ٢٧) .

وذكر القرآن الكريم أن آدم هو الذي عصى ربه ، ولم تعص حواء ربها . . وأن آدم لم يكن له عزم . . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ (طه : ١١٥) . وكان تحذير الله تعالى لآدم وليس لحواء . قال تعالى : ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ (طه : ١١٧) . قوله تعالى ﴿ فَتَشْقَى ﴾ يدل على أن الشقاء ينتظر آدم وحده ولا ينتظر حواء .

ولماذا أسند الله تعالى الشقاء إلى آدم وحده دون حواء ، مع أنهما اشتركا في أكل الشجرة المحرمة؟ أريد بالشقاء التعب في طلب القوت وأسباب الحياة . . وذلك واجب على الرجل وليس واجبا على المرأة . . ولقد جعل الله تعالى على آدم مسئولية السعى إلى مطالب الحياة والرزق له ولزوجه وأولاده ، وأعفى حواء منها . . وكذلك الأمر في ذريتهما من بعدهما ، وما أكلت حواء من الشجرة المحرمة إلا بناء على غواية آدم لها في ذلك وتقليدها إياه ، أما آدم فقد أكل من الشجرة بناء على غواية الشيطان له . . فالفعل الذي قام به كل من آدم وحواء واحد . . ولكن الفرق بينهما كبير .

وما دور حواء في الحياة الدنيا وقد جعل الله تعالى على آدم مسئولية السعى للحصول على الرزق والكد والشقاء في الدنيا؟

دور حواء أعظم وأسمى من دور آدم . . فإذا كانت مسئولية الكد والتعب في الحصول على الرزق ورزق الأسرة على عاتق آدم ، فعلى عاتق حواء مسئولية أعظم . . هي مسئولية استمرار النوع ، واستمرار الحياة على هذه الأرض ، ومسئولية تربية الأجيال ، وإضفاء الحب والعطف والحنان على البشرية كلها ، إنها الأخت والزوجة والابنة ، وهي الأم أولا وأخيرا ، ولها عند الله تعالى مكانة عظيمة . . وجعل لها عند أولادها مكانة أعظم ، فقد أخرج الإمامان ابن ماجه وأحمد أن النبي ﷺ قال : « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

وعندما أهبط الله تعالى آدم وحواء إلى الأرض وأخرجهما من الجنة ، لم يجعل لآدم مع الجنة صلة ، ولم يجعل للرجال من ذرية آدم مع الجنة صلة ، إلا عن طريق حواء في شخص أمهاتهم ، وعوض حواء وبناتها عن حرمانهن من الجنة بسبب خطأ ارتكبه آدم ، فجعل بينهن في الدنيا وبين الجنة اتصالاً ، فجعل الجنة تحت أقدامهن في

* فلقد عهد الله تعالى إلى آدم وأمره ألا يأكل من الشجرة المحرمة ، قبل أن يأكل منها ، إلا أن الشيطان أنساه أمر ربه ، فآدم لم يعص ربه إلا بنسيان وليس بعمد ، إلا أنه لم يكن له عزم على التحفظ والاحتراز عن الغفلة .

الدنيا . وجعل الرفق بهن من قبل أبنائهن ، وخفضهم جناح الذل لهن من الرحمة ، طريقاً للناس جميعاً إلى دخول الجنة ، وسبيلاً إلى مغفرة الله ورضوانه ، وجعل الله تعالى سعى زوجها إلى إرضائها ، سعيًا عند الله مشكوراً ، وطاعة لرسول الله ﷺ الذي أوصى الناس جميعاً بأمھاتھم وزوجاتھم قال : «استوصوا بالنساء» .

ولماذا أدخل الله تعالى آدم وحواء الجنة ، ثم أزلھما الشيطان عنها ، وأخرجھما من الجنة؟
إنھا الدرس الأول فی المعركة بين الخير والشر ، بين الإنسان والشيطان ، وهى معركة دائمة دائبة منذ بدء الخليقة وحتى عصرنا هذا وإلى يوم القيامة ..

ويعترض بعض العلماء على ما ذكرناه ويقولون : إن إبليس وسوس أيضاً لحواء وليس لآدم وحده ، كما جاء فى قول الله عز وجل : ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فوسوس لھما الشيطان ليُبدي لھما ما ووري عنھما من سوءاتھما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمھما إني لكما لمن النصحين * فدلأھما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لھما سوءاتھما وطفقا يخصفان عليھما من ورق الجنة وناداهما ربھما ألم أنھكما عن تلکما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لکما عدو مبين ﴿ (الأعراف: ١٩-٢٢) ونرد على ذلك ونقول :

(١) الوسوسة كانت من الشيطان لآدم وزوجته ، وفى سورة طه ذكر وسوسة الشيطان إلى آدم وحده . وليس هناك تعارض بين الآيتين فإن وسوسة إبليس تصل إلى القريب الحاضر وإلى البعيد الغائب ، كما يصل تأثير السحر إلى القريب الحاضر ويصل إلى البعيد الغائب أيضاً .

لقد وسوس لآدم مباشرة .. ووصلت وسوسته لحواء بطريق غير مباشر لذلك وقع العصيان على آدم ولم يقع على حواء كما قال تعالى : ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ * ثم اجتباہ ربه فتأب عليه وھدى ﴿ (طه : ١٢١ ، ١٢٢) . وفى هذه الآية الدليل على أن آدم إذ عصى ربه فى الجنة لم يكن نبياً .. وإنما جعله الله تعالى نبياً بعد خروجه من الجنة فقال : ﴿ثم اجتباہ ربه فتأب عليه وھدى﴾ اجتباہ أى اصطفاہ وفى ذلك معنى النبوة .

(٢) قال تعالى : ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (الأعراف: ١٩) .
﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (البقرة: ٣٥) .

قوله تعالى ﴿اسْكُنْ أَنْتَ﴾ أمر بالسكنى وأكد ذلك بكلمة ﴿أَنْتَ﴾ وبعد ذلك عطف بالزوجة فقال : ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ معطوف بواو العطف ، ليقرر أن سكنى الزوجة تبع ، والعطف هنا يدل على أن المعطوف (وهو زوجه) لا يباشر فعل الأمر ، لأنه وقع تبعاً ، ويغترف فيه للتابع «حواء» ما لا يغترف فى المتبوع «آدم» .

(٣) النهى بعد التحريم ، هو للتنبيه على أن آدم هو المقصود بالحكم فى جميع الأوامر وأن حواء تبع له ، لذلك قال بعض الشراح : لا يصح ذكر كلمة «زوجك» بدون حرف عطف .

(٤) قال تعالى فى سورة الأعراف عن الشيطان : ﴿فَوَسَّوسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ (الأعراف: ٣٠) أى لآدم وحواء معاً أما فى سورة طه فقال : ﴿فَوَسَّوسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ﴾ (طه : ١٢٠) . فهل بين الآيتين تعارض؟ نقول : لا تعارض لأن «الوسوسة له» غير «الوسوسة إليه» فالوسوسة لهما أى لأجلھما .. فهى تدل على أن الوسوسة لم تكن مباشرة . ومن هذا نفهم أن الوسوسة لم تكن مباشرة لحواء أما قوله تعالى : ﴿فَوَسَّوسَ إِلَيْهِ﴾ (طه : ١٢٠) ، أى وسوس إليه مباشرة وأنهى إليه الكلام .



أخرج الإمام أحمد في المسند والإمام مسلم في صحيحه عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لما صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه ، فجعل إبليس يطيف به ، ينظر ما هو . فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك » أى خلقاً ضعيفاً .

كان العلماء حتى أواخر القرن التاسع عشر يعتقدون أن الذرة مصمتة ، إلا أن العلم فى العصر الحالى اكتشف حقيقة علمية ، وما كان أحد يتخيلها من قبل ، وهى أن الذرة معظمها فراغ . وأن حجم النواة والإلكترونات بالنسبة لحجم الذرة لا تزيد على عُشر مليار . فالذرة بأنواعها الكثيرة تشبه المجموعة الشمسية فى صفات كثيرة . فالمجموعة الشمسية معظمها فراغ كونى . . فيوجد فراغ كونى هائل بين الكواكب ، فالمسافة التى تفصلنا عن الشمس نحو ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال . والمسافة التى تفصلنا عن زحل مثلاً نحو ثمانمائة وثمانية وثمانين مليوناً من الأميال ، وعن بلوتو نحو ثلاثة آلاف وستمائة وستين مليوناً من الأميال .

فالمجموعة الشمسية شبه فراغ كونى ، به شمس واحدة ، تدور حولها تسعة كواكب سيارة على أبعاد شاسعة جداً منها . وكذلك الذرة شبه فراغ . وإذا أردنا أن نشبه حجم الذرة بحجم عمارة ضخمة من عشرة طوابق ، فإن نواة الذرة تكون مثل بيضة دجاجة وسط العمارة ، والإلكترونات كهارب كحبات من الرمال تدور حولها خارج جدران العمارة . ويقول علماء الفيزياء أن حجم الذرة يعادل ألف بليون ضعف حجم نواة الذرة . . وتشكل نواة الذرة الجزء الأعظم من كتلة الذرة . . بينما معظم حجم الذرة فراغ ، تدور حوله كهارب (إلكترونات) فى أفلاك حول النواة . والذرة هى الوحدة المكونة لأى عنصر من العناصر التى تتألف منها كل مادة . والذرة نفسها تتكون من جسيمات وكهارب دقيقة جداً . ووحدات الكتلة فى نواتها جسيمات بالغة الدقة فى الحجم تسمى بروتونات وهى موجبة الشحنة ، وجسيمات أخرى تسمى نيوترونات متعادلة الشحنة . وعدد الإلكترونات يماثل عدد البروتونات فى النواة وبذلك تكون الذرة متعادلة تماماً .

وما زالت الطريقة التى تتماسك بها نويات العناصر والقوى الهائلة المحدثه لهذا التماسك ، من أكثر الأمور غموضاً حتى الآن ، وقد أمكن فى عصر العلم الحالى تحطيم نويات ذرات بعض العناصر الثقيلة وإطلاق طاقاتها . وحجم الذرة يعادل ألف بليون ضعف حجم النواة . . والبروتونات الموجودة فى النواة تتماثل شحنتاتها ، فلا بد أن تتنافر ، لذلك فإن التماسك الهائل بين الوحدات المكونة للنواة من أعجب الحقائق العلمية . . وينشأ من ذلك التماسك النووى قوى هائلة جداً . تعادل فى بعض الأحيان فى شدتها قوة انفجار ملايين الأطنان من أقوى المتفجرات . . فمثلاً تحتوى ذرة اليورانيوم على اثنين وتسعين بروتوناً ، وذرة الرصاص تحتوى على اثنين وثمانين بروتوناً ، ومن المفروض أن تحدث قوة تنافر هائلة داخل النواة ، بينما هى فى نفس الوقت تشتمل على قوى جذب جبارة تفوق كثيراً قوى التنافر هذه . . وهذا يفسر قوى جذب الشمس لكواكبها . . وقد أطلق العلماء على قوى الجذب الموجودة فى نواة الذرة اسم (قوى الجذب ذات المدى القصير) ولا يعلمون عنها إلا أنها فى بالغ القوة وبالغ العنف وبلا حدود معروفة .

ونعجب من كلام على بن أبى طالب - رضى الله عنه - وهو يتحدث عن عظمة الله تعالى وقدرته قال : (فأقام الله من الأشياء أودها . ونهج حدودها . ولاءم بقدرته بين متضاداتها) . . وهذا علم تعلمه من رسول الله ﷺ لم يكتشف سره إلا علماء الذرة فى عصر العلم الحالى .

. . ولما كان كل شىء فى السماوات والأرض مكوناً من ذرات ، والذرات تحتوى هذه القوى الهائلة من التماسك فإن هذا يعطينا تفسيراً علمياً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ (فاطر : ٤١) .

ومدارات الإليكترونات حول النواة تشبه مدارات الكواكب حول الشمس . . وكان رذرفورد أول من ذكر ذلك فى محاولته فهم أسرار تركيب الذرة . واكتشف علماء الذرة أن مدارات الإليكترونات حول النواة ليست دائرية تماماً ، واكتشفوا أيضاً أن مدار الإليكترون كلما اقترب من النواة زادت سرعة دورانه حولها . . وفى عصر العلم الحالى نجد تماثلاً بين النظام الذرى والنظام الشمسى . . كلاهما على نفس الفطرة ونفس النظام فى الخلق . . على ماذا يدل ذلك؟ . . إنه يدل على وحدة النظام فى الخلق ، التى تدل على وحدانية الخالق وأنه لا إله إلا الله ، لأنه لو كان مع الله آلهة أخرى يشاركونه فى ملكه لجعل كل إله لنفسه نظاماً فى الخلق ، ولتعددت أنظمة الخلق ولتضاربت . . ولكننا نرى نظاماً واحداً يدل على إله واحد لا شريك له ، كما قال الله عزوجل : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ (المؤمنون : ٩١ ، ٩٢) .

وذكر العالم الأمريكى جون أونيل O'Neil فى كتاب أصدره سنة ١٩٤٥ عن الذرة (صاحبة الجلالة الذرة) أن ملامح الحقائق العلمية فى القرون الوسطى جاءت من العلماء المسلمين . وأنه تعجب مما قاله الصوفى الإسلامى على أبو الحسن الذى عاش فى القرن الثانى عشر الميلادى الذى قال : «إذا فلقت الذرة وجدت فى قلبها شمساً» . بل إننا إذا قارنا بين الذرة والمجموعة الشمسية والمجرة ، لوجدنا تماثلاً فى حركة الطواف حول المركز . . فى الذرة تطوف الإليكترونات حول النواة . وفى السماء تطوف الكواكب حول الشمس ، وتطوف النجوم حول مركز المجرة . وتطوف المجرات جميعاً حول مركز الكون . والملائكة حافين من حول العرش . من هذا ندرك التماثل التام فى فطرة خلق الكون كله من الذرة إلى المجرة وأن الكون كله فى حالة طواف مستمرة لا تنقطع أبداً . . وهذا من فطرة الخلق والفطرة هى الدين كما قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم : ٣٠) . من هنا نفهم المغزى العلمى فى حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «الطواف صلاة إلا أن الله عزوجل أحل فيه الكلام فمن تكلم فلا يتكلم إلا بخير» . ولقد انتهى العلماء إلى اتفاقهم على أن أى مادة مكونة من ذرات ، وأن كل ذرة معظمها فراغ (الفضاء الذرى) من هذا ندرك أن كل جسم من الأجسام معظمه فراغ . . ونأخذ الجمل مثلاً . . إنه مكون من آلاف الملايين من الخلايا ، وكل خلية مكونة من ملايين الذرات . إذن فالجمل الضخم ليس فى جسمه من المواد الصلبة إلا عُشر مليار من الحجم الذى نراه به الآن . وإذا افترضنا فرضاً مستحيلاً أن الإليكترونات فى ذرات جسم الجمل توقفت عن الدوران ، وانجذبت بالتالى إلى النواة بفعل جاذبيتها ، لاختفى الفراغ فى الذرة فصارت مصمتة . ماذا يحدث حينئذ؟ . . إن جسم الجمل سيختفى من أمام أعيننا ، يصير فى حجم شعرة من صوف ، لا يزيد طولها عن عدة سنتيمترات ، ولكنها فى الكتلة ، تعادل كتلة الجمل نفسه . ويمكننا أن ندخل هذه الشعرة من ثقب إبرة بسهولة . إنه فرض علمى مستحيل الحدوث ، ضرب مثلاً باستحالة دخول الكفار الجنة . . هذا بعض ما فى قوله تعالى من علم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ (الأعراف : ٤٠) .

وجسم الإنسان أيضاً مكون من ذرات ، فهو فى حقيقته فراغ أجوف . . ولو افترضنا نفس الفرض العلمى مستحيل الحدوث السابق . لصار جسم كل إنسان لا يزيد عن حجم رأس دبوس! . .

وإذا وضعنا التقدم العلى فى خدمة التفسير لفهمنا من الحديث النبوى الشريف ما لم نفهم من قبل . فقد أخرج الإمام أحمد فى المسند ومسلم فى صحيحه عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «لما صور الله آدم فى الجنة ، تركه ما شاء الله أن يتركه ، فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو ، فلما رآه أجوف ، عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك» أى خلق خلقاً ضعيفاً .

* كتاب «العلوم الذرية فى ضوء القرآن الكريم» للمهندس اللواء أحمد عبدالوهاب .

قال المفسرون قديماً : إن إبليس لما رأى آدم صاحب جوف ، فهم أنه خلق خلقاً ضعيفاً ، ولا نعتقد أن هذا التفسير صحيح ، لأنه لا علاقة بين جوف الجسم وضعف خلقه ، وهل لو خلق جسم الإنسان بدون جوف ، كان خلقه أقوى؟ وكيف علم إبليس أن آدم أجوف وهو يدور حوله ينظر ما هو؟ . ولو كان المعنى جوف آدم (تجويف الصدر وتجويف البطن) لدخل إبليس داخل جوفه ينظر ما هو . ولكنه لم يدخل في جوفه ، وإنما طاف حوله ينظر ما هو ورآه أجوف . قال رسول الله ﷺ :

«فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو . فلما رآه أجوف ، عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك» .

(يطيف به) فى اللغة : أى يطوف حوله . وطاف يطيف ويطوف طوفاً فهو طائف .. وأصل الطيف الجنون أو الغضب وفى التنزيل ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ ﴾ (الأعراف: ٢٠١) . أى اضطراب وجنون وغضب و(يطيف به) تعبير لغوى يدل على أن إبليس جعل يطوف حوله وقد مسه طيف - أى غضب وجنون - والحديث النبوى الشريف يشير إلى أن إبليس جعل يدور حول جسد آدم وهو ما يزال طيناً .. ينظر ما هى مادة خلقه .. فلما علم أنها ذرات جوفاء ، علم أن جسد آدم خلق أجوف ، خلقاً لا يتمالك ..

ودليل طواف إبليس حول جسد آدم وأنه كان فى غضب وجنون ، أنه عصى ربه .. وكان من أكثر خلق الله عبادة لله ، ولا يعصى ربه مخلوق مخلص فى عبادته لله إلا إذا كان فى غضب وجنون .. وقد حمل لنا الحديث النبوى الشريف كل هذه المعانى .. وهناك دليل آخر على صحة ما وصلنا إليه من تفسير علمى للحديث النبوى الشريف ، أن الله عز وجل عندما أمر إبليس بالسجود لجسد آدم ، اعترض على أمر الله تعالى له ، لا لأن آدم خلق له تجويف بطنى وتجويف صدرى ، ولكنه احتج على أمر الله تعالى له ، بالسجود لمخلوق خلق من ذرات جوفاء .. إنه احتج على مادة الخلق نفسها وليس على شكل الجسم كما أخبرنا الله تعالى عنه قال : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِيناً ﴾ (الإسراء: ٦١) .. وقال تعالى أيضاً فى نفس الموقف : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ (الأعراف: ١١) . وقال تعالى أيضاً : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مُّسْنُونٍ ﴾ (الحجر: ٣٢، ٣٣) ، وقال تعالى أيضاً : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيَّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ (ص: ٧٥ ، ٧٦) وفسر رسول الله ﷺ ذلك بقوله : «لما صور الله آدم فى الجنة ، تركه ما شاء الله أن يتركه ، فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو .. فلما رآه أجوف ، عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك» .

وقال بعض العارفين : إن سبب رفض إبليس السجود لآدم إذ أمره ربه ، أنه رأى نور النبوة فى صلبه (نور النبى محمد ﷺ فيه) ، وكان إبليس يطمع فى أن يكون نور النبوة فى صلبه هو ، فتملكه الغضب والجنون والإحباط ، . وكان من أمره ما كان .

هل كان لآدم أب وأم؟

نقول : لا .. لم يكن لآدم أب وأم . لأن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ

قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران: ٥٩) . فقد خلق الله آدم على جبل عرفة من طين وتركه أجلاً حتى صار طيناً لازباً ، ثم حمأ مسنوناً ، ثم صلصال كالفخار ونفخ فيه من روحه فصار بشراً . فآدم لم يخرج من رحم أم ، ولم يولد من بطن أم مثل سائر البشر . وفى ذلك الدليل على أن آدم لم يكن له أم وبالتالي لم يكن له أب ، فقد خلقه الله تعالى بشراً سوياً ليس على مثال سابق .



من الإعجاز العلمي في الحديث

النبي في ما يخص المرأة



١ مكانة المرأة فى الإسلام

حتى ندرك أبعاد الإعجاز العلمى فى الأحاديث النبوية التى تخص المرأة ، ينبغى أن ندرك تمامًا أن الإسلام حفظ للمرأة كرامتها ومكانتها فى المجتمع الإنسانى ، بعد أن كانت قد أهدرت فى العصور التى سبقت نزول الرسالة على النبى محمد ﷺ .

ففى عصر الإغريق كانت المرأة من سقط المتاع ، ولا وظيفة لها إلا الولادة وتربية الأطفال ، ولم تكن سيدة لمنزل زوجها . وفى العصر الرومانى لم يكن للمرأة أى أهلية أو شخصية قانونية ، فقد كان القانون الرومانى يعتبر الأنوثة سببًا لانعدام الأهلية . . وليس لها ملكية لأى مال فى بيت الزوجية ، حتى «الدوطة» التى كانت تدفعها لزوجها عند الزواج ، تنتقل ملكيتها لزوجها مباشرة . فهى فى سيادة زوجها . . وبعد زواجها تنقطع صلتها بأسرتها الأولى وتفقد لقب أسرتها أيضًا ويلحق بها لقب زوجها .

وفى الجاهلية فى المجتمع العربى كانوا لا يرحبون بميلاد الأنثى وكانوا يثدنون البنات . . وإذا كبرت وتزوجت لم يكن لها أى وزن . . وكانت تورث بعد وفاة زوجها ، كما يورث المتاع . وكانت المرأة فى العصور الوسطى فى أوروبا مهذرة الكرامة ، وكانوا يعتبرونها مخلوقة ملعونة وأنها الخطيئة مجسمة . . وناقش بعض الناس هل للمرأة روح مثل الرجل ، أم هى بلا روح ، ولم يكن للمرأة أى حقوق أو كرامة أو احترام . ولما نزلت الرسالة على النبى ﷺ أعاد للمرأة كرامتها وإنسانيتها وحقوقها :

- (١) فهى تتساوى مع الرجل فى الحقوق والواجبات كما قال تعالى فى سورة الحجرات (١٣) : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ .
- (٢) المرأة مساوية للرجل فى الإنسانية كما فى قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء : ١) .

لقد قررت الآية الكريمة إنسانية المرأة من جميع الوجوه ومساواتها للرجل فى الحقوق والواجبات .

- (٣) للمرأة نفس الحقوق الشرعية ، وعليها نفس التكاليف الشرعية مثل الرجل تمامًا . . وبالتالى فهى متساوية مع الرجل فى الأهلية . . الأهلية الشرعية والأهلية الاقتصادية للتملك والتصرف ، وجعلها صاحبة الحق المطلق فى أملاكها وأموالها ، وليس لزوجها أى سلطان عليها فى ذلك .

ولها حق التملك بالميراث بعد أن كانت محرومة منه فى الجاهلية والأم السابقة .

- (٤) للمرأة أهليتها الاجتماعية ، فإذا بلغت سن الرشد زالت عنها ولاية وليها سواء كان أبًا أو غيره ، ويكون لها حرية التصرف فى كل شىء . . وهذا يدل على ثقة الإسلام المطلقة فى كفايتها وأهليتها وحسن تصرفها ،

كما فى الرجل تماماً وليست أقل منه فهما أو كفاية أو حسن تصرف ، وهذا مبلغ من الكرامة والأهلية الاجتماعية لم تبلغه المجتمعات الغربية حتى يومنا هذا .

أردنا أن نذكر المرأة - فى هذه الكلمة الوجيزة - أن الإسلام أرجع لها كرامتها وعزتها وحقوقها وإنسانيتها ، ما لم يحققه لها أى عصر من العصور السابقة والحاضرة . . . إلا أنه يجب ألا تنسى المرأة أنها ليست متساوية مع الرجل فى كل شىء . . . وليس الرجل مساوياً للمرأة فى كل شىء ، فلقد لعن الله المتشبهين بالنساء من الرجال ولعن الله المتشبهات بالرجال من النساء ، كما فى الحديث النبوى الشريف . فإن فطرة خلق كل من الرجل والمرأة لها خصائصها ، فقد جعل لكل من الرجل والمرأة صفات ووظائف مختلفة . . . فإن المرأة من طبيعة خلقها تختلف عن الرجل . لذلك فالأحاديث النبوية المشرفة التى تكلمت عن المرأة وضعت فى الاعتبار كل ذلك . . . فهى لا تحط من قدر المرأة ، ولكنها تضعها حيث يجب أن تكون . . . كما تضع الرجل حيث يجب أن يكون . فالمرأة لها تكاليفها الشرعية المختلفة عن تكاليف الرجل . ولها واجباتها التى تختلف فى بعضها عن واجبات الرجل . . . ولها فى غرائزها وعاطفتها وحنانها ما يختلف به مع غرائز وعاطفة الرجل . إن الرجل والمرأة ليسا سواء . . . فهناك اختلافات فى كل منهما عن الآخر . . . وذلك لا يقلل من شأن الرجل كما لا يقلل من شأن المرأة .

٢ النساء ناقصات عقل ودين

أخرج البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال :
« ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن » .
قلن : وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله ؟ قال ﷺ :
« أليست شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل » ؟ قلن : بلى . قال : « فذلك من نقصان عقلها . أليست إذا حاضت لم تصل ولم تصم » ؟ قلن : بلى . قال : « فذلك من نقصان دينها » . .
أخرج البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال :
« النساء ناقصات عقل ودين . أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل » . قلنا : بلى . قال : « فذلك نقصان عقلها » كما قال تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ﴾ (البقرة : ٢٨٢) .
ولكن كيف تكون النساء ناقصات فى خلقهن ؟ والله تعالى يقول : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (التين : ٤) والإنسان يعنى الرجل والمرأة ؟ . . وتفسير الحديث النبوى له جانب علمى وجانب دينى فما معنى نقصان عقلها ؟

(١) التفسير العلمى :

لم يدرك معظم المفسرين المغزى العلمى فى هذا ، وذلك لقصور فهمهم لماهية العقل . . فما هو العقل ؟ العقل طاقة من الوعى والإدراك والفهم ، منحها الله تعالى للإنسان دون غيره من مخلوقاته المادية ، يستطيع بها أن يفرق بين الخطأ والصواب والحرام والحلال . . فالعقل مناط التكليف فى الإنسان . . ولولا العقل ما كان الإنسان عن أعماله مسئولاً . . وما كان مكلفاً . . وفى سورة الأحزاب قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (الأحزاب : ٧٢) والأمانة هى مناط التكليف وهى العقل . . وأين يوجد العقل فى الإنسان ؟ هل يوجد فى المخ ؟ . . لا . . لا يوجد دليل على أن

العقل موجود فى المخ . . إلا أن المخ هو طريق العقل إلى الإنسان . . وبينه وبين المخ صلة . . ومن الدواب ما فيه مخ يشبه مخ الإنسان تماما ، مع أنه لا عقل فيها بنص الآية الكريمة . .

ولكن من الحيوان ما يتمتع بذكاء كبير مثل الكلب مع أنه لا عقل له . . وهذا يعطينا مؤشراً علمياً إلى أن العقل شىء والذكاء والفطنة شىء آخر . . وإن كان بينهما تعلق لا ندرى كنهه . . فكم من الناس أذكىاء ، وكم منهم أغبياء ، مع أنهم جميعاً يحملون أمانة العقل .

وهناك اختلاف بين العلماء فى ماهية العقل ، فالعلماء المسلمون يعتقدون أنه هو القوة المدركة فى الإنسان ، وأنه مظهر من مظاهر الروح ، فحيث يكون الروح يكون العقل . . ومن هنا فالدواب لا عقل فيها ولا روح . أما الماديون فيعتقدون أن العقل نتيجة الشعور فى الإنسان . . وزعموا أن بالحيوان روحاً . وهذا خطأ فلم يقل أحد من العلماء أن الله تعالى نفخ فى الدواب من روحه وجعل لها الخلود . فالروح سر الخلود .

وقال بعض فلاسفة العرب : العقل عقلان (عقل غريزى) مكتسب ، خلقه الله للإنسان وهو الأصل ، يتعلق بالتكليف والغريزة .

وعقل يستفيد به الإنسان - وبه الذكاء والفطنة والنبوغ - وهو الفرع . . فإذا اجتمعاً معاً قوى كل منهما الآخر . . وبعض الناس له عقل غريزى مكتسب هو مناط التكليف ، ولكن به نقصان فى العقل الفرع الذى فيه الذكاء والفطنة والنبوغ . . وبعضهم يجمع العقلين معاً ، ومن النساء من هن ناقصات لعقل التكليف ، كاملات لعقل الذكاء والفطنة والعلم . ومن الرجال من هم كاملون لعقل التكليف ، ناقصون لعقل الذكاء والنبوغ . . وبذلك يتساوى الطرفان ؛ الرجل والمرأة . وقال الإمام على عليه السلام :

رأيت العقل عقلين	فمطبوع ومسموع
فلا ينفع مسموع	إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس	وضوء العين ممنوع

وقال الماوردى :

العقل المكتسب هو العقل الحقيقى ، وهو مناط التكليف الشرعى ، لذلك عطف الحديث النبوى على نقصان العقل فى النساء بنقصان التكليف الشرعى لها ، وبنقصان طاقة التحكم فى العاطفة . . وهذه أمور لا دخل للمرأة فيها . . فالمرأة من طبيعتها أكثر سرعة فى إظهار عاطفتها ، وأكثر رحمة وبراً وصبراً من الرجل ، وأكثر تأثراً بالمواقف الإنسانية . لذلك فشهادتها فى قضية ما ، لا بد أن تختلط بسرعة تأثرها بالمواقف الإنسانية وقلة تحكم فى عواطفها . . وهذه من غرائز المرأة التى لا حيلة لها فيها ، وهى ليست نقصاً وعيباً وإنما هى من سمات خلقها وغرائزها التى لا تصلح لدورها فى الحياة بدونها . أما من ناحية نقص الدين : فالمرأة أقل من الرجل صياماً ، وأقل منه جهاداً فى سبيل الله . وأقل منه عبادة . . وأقل منه تكليفاً فى إعالة الأسرة بما أمر الله تعالى . . قال تعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا﴾ (النساء : ٣٤) فليس على المرأة واجب الإنفاق على الأسرة إلا تطوعاً ، لأن واجب الإنفاق يقع على عاتق الرجل وجوباً . .

وأخرج البخارى عن السيدة عائشة قالت : خرجنا إلى الحج فلما كنا بمكة حضت فدخل على رسول الله ﷺ وأنا أبكى . فقال : مالك؟ أنفست؟ قلت : نعم . قال : «هذا أمر كتب به الله على بنات آدم فاقضى ما يقضى الحاج غير أن تطوفى بالبيت» وضحى رسول الله عنها ببقرة . . وأخرج ابن ماجه عن السيدة عائشة قالت : قلت يا رسول الله أعلى النساء جهاد؟ قال : «نعم عليهن جهاد لا قتال فيه : الحج والعمرة» .

إذن فمعنى (النساء ناقصات عقل ودين) أنهن ناقصات فى العبادة والفرائض . وهذا أمر لا دخل لهن فيه ،

فهو أمر كتبه الله على بنات آدم ، ولا يعنى نقصاناً فى ذكائها وفطنتها ونبوغها وعلمها . . فقد تتفوق بعض النساء فى ذلك على الرجال . .

(٢) التفسير الدينى:

رتب الله تعالى الشهادات بحكمته فى الحقوق المالية والبدنية والحدود ، فجعل الشهادة فى كل المعاملات شاهدين ، إلا فى الزنا فقرن ثبوته بأربعة شهداء ، وفى الديون قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾ (البقرة : ٢٨٢) ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا ﴾ أى أن تنسى إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى .

والحديث الشريف يفسر الآية الكريمة و يجعل لها امتداداً . . وموضوع الشهادة هنا هو عن العقود والمعاملات ، وعدم اهتداء امرأة إلى الشهادة الصحيحة أو نسيانها ، وهذا يكون فى أغلب الأحوال بسبب قلة خبرة المرأة بموضوع التعاقد دون غيرها ، مما يجعلها لا تستوعب كل دقائقه وملابساته . . وبالتالي لا يكون من الوضوح فى عقلها ، بحيث تؤدي عنه شهادة دقيقة إذا دعيت للشهادة فتذكرها المرأة الأخرى بما نسيته من ملابسات الموضوع كله .

وموقف الشهادة على معاملات مالية ، يستلزم التجرد من العاطفة ، والوقوف عند الوقائع بإعمال العقل وحده ، وطرح أى تأثير عاطفى جانباً . . والرجل فى كل ذلك أقوى من المرأة .

وإننا إذا فهمنا كلاً من التفسير العلمى والتفسير الدينى للحديث الشريف «النساء ناقصات عقل ودين» لأدركنا أن الحديث الشريف لا يقلل من شأن المرأة أو يحط من قدرها . . ولكن العكس هو الصحيح . . إنه يمتدحها ويمتدح الرقة والحنان والإحساس فى فطرة خلقها . . وليست النساء ناقصات عقل إلا فى العقل الغريزى ، وفى جزئية واحدة فقط ، هى جزئية المعاملات المالية والديون . . ولم يقلل من كمال عقلها المكتسب الذى لا تقل فيه عن الرجل بل قد تزيد أحياناً . .

رخصة الإفطار للحامل والمرضع

أخرج الإمام البخارى والأئمة أصحاب السنن عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله عزوجل وضع عن المسافر الصوم وشرط الصلاة ، ووضع عن الحامل والمرضع الصوم» .
ما الحكمة العلمية فى ذلك؟

الأم الطبيعية تفرز من ثدييها نحو ثلاثة أرباع لتر من اللبن يوميًا . . وصناعة هذا القدر من اللبن فى الثدي يستنفد كثيراً من عناصر الغذاء من دم الموضع . . لذلك لابد لها من أن تتناول كمية إضافية من الطعام والشراب فوق القدر الذى يحتاجه جسمها هى ، تكون كافية لصناعة ذلك القدر من اللبن كل يوم . وإذا قلت تغذية الأم ، أو تناولت ما يكفى احتياجات جسمها من الغذاء فقط ، فإن إفراز اللبن من الثدي يقل ، كما أن العناصر اللازمة لصناعة اللبن فى الثدي ، تستمد من جسم الأم . . لذلك تتعرض لأمراض سوء التغذية . . فإذا قل غذاء الأم الموضع ، تضار هى ويضار الطفل أيضاً . . وهذه حقائق علمية لم يكتشفها علماء الأغذية إلا فى مطلع القرن العشرين . . ولم تكن معروفة من قبل ذلك أبداً . ومن هنا يبدو من الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى الشريف : «إن الله عزوجل وضع عن المسافر الصوم وشرط الصلاة ووضع عن الحامل والمرضع الصوم» ولماذا الحامل : لأن الجنين فى بطن أمه يتغذى على مواد الغذاء الموجودة فى دم أمه ، وخاصة فى شهور الحمل الأخيرة . . فالصيام

يضرها . . وقد يعترض أحدهم ويقول : ولكن الحامل فى الشهور الأولى يكون الجنين فى بطنها صغيراً ، ولا يستنفد غذاء ذا قيمة ملحوظة من دم الأم ، فلماذا تفطر إذن؟

نقول : معظم الحوامل فى الشهور الأولى تحدث لهن أعراض مرضية كالغثيان والقيء والصداع والدوار . . وهى بذلك تكون فى عداد المرضى . . والقرآن أعطى الرخصة للمريض أن يفطر ، يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (البقرة : ١٨٥) .

النار أكثر أهلها النساء

أخرج البخارى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : «أريت النار فإذا أكثر أهلها النساء» . فكيف يستقيم المعنى مع حديث آخر يقول : «إن الجنة تحت أقدام الأمهات» . وحديث شريف آخر أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ يريد الجهاد فقال له رسول الله ﷺ : «هل أحد من والديك حى؟» . فقال : أمى فقال : «تريد الجهاد تبتغى دخول الجنة» قال نعم قال ﷺ : «ارجع والزم رجلها فثم الجنة» . . هل بين هذه الأحاديث والحديث الأول تعارض؟

نقول لا . . لا تعارض : فالجنة تحت أقدام الأمهات لأولادها فى الدنيا . وهذه علاقة عبد بعبد . . أما فى الآخرة فقد تكون فى النار ، وهذه علاقة عبد بربه .

ولماذا كانت النار أكثر أهلها من النساء؟ لأن النساء باب غواية إبليس للرجال فى الدنيا ووسيلته إليهم يوقعهم فى المعاصى ، ولا يجب أن ننسى أن أكثر النساء من أهل جهنم هن النساء غير المؤمنات والعاصيات ، وما أكثرهن فى الدنيا .

أصحاب الجنة

أخرج البخارى والإمام مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر . ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ، ولا يمتخطون ، ولا يتفلون ، أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوة ، وأزواجهم الخور العين ، على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم طوله ستون ذراعاً» . إن سر خلق الإنسان لا يحيط بعلمه سوى الذى خلقه وهو الله عز وجل . لذلك لا نعلم عن خلق الإنسان شيئاً إلا من مصيد العلم الوحيد عنه وهو القرآن والسنة . وفهمنا أن الإنسان قبل خلقه فى الدنيا كان نفساً واحدة وليس من ذكر وأنثى . . ثم خلقه الله تعالى فى الدنيا وجعله من ذكر وأنثى لهدف التكاثر والتناسل . كما قال الله عز وجل فى سورة الحجرات : (١٣) : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ أى : خلقناكم فى الحياة الدنيا من ذكر وأنثى ، وبعد الحياة الدنيا يعود الإنسان كما كان قبل الحياة الدنيا نفساً واحدة وليس من ذكر وأنثى .

وذات الإنسان مكونة من ثلاث ملكات : النفس والعقل والروح . . ولا تستطيع الذات الإنسانية أن تعيش فى الحياة الدنيا - عالم المادة - إلا داخل إطار مادى . . مثلها فى ذلك مثل راكب يسافر من بلد إلى بلد ؛ إنه يركب سيارة ويسوقها فيصل إلى البلد الذى يريد أن يصل إليه هو من دون السيارة لن يصل ، والسيارة بدونه لا تتحرك . وجسم الإنسان فى هذا المثل كالسيارة والذات البشرية المدركة الواعية كالسائق . . الذى لا يستطيع أن

يعيش فى عالم المادة إلا بواسطة جسم مادى هو السيارة . وعندما يصل إلى هدفه ، يترك السيارة فلم يعد فى حاجة إليها . . وهكذا الإنسان فى حياته الدنيا يحتاج إلى جسد مادى ، وعندما يترك الدنيا وينطلق إلى العالم الآخر لن يكون فى حاجة إلى هذا الجسد ، فقد انتهت مهمته بانتهاء الحياة الدنيا . وقال رسول الله ﷺ : « ما أنا والدنيا إلا كراكب راحلة فى يوم صائف استظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها » والراحلة كناية عن الجسم وراكب الراحلة كناية عن الذات البشرية ، والشجرة كناية عن الحياة الدنيا ، و«ساعة» كناية عن عمر الإنسان فى حياته الدنيا . «ثم راح وتركها» أى ترك الشجرة وترك الدنيا وترك جسده المادى فيها . ولا يختلف الرجال عن النساء فى الذات الإنسانية «المكونة من النفس والعقل والروح» والاختلاف بينهما فى الدنيا فى الجسم فقط . . فالمساواة التامة بين الرجال والنساء كانت قبل الحياة الدنيا ، وستكون فى الآخرة أيضاً . .

وماذا سيحدث للإنسان يوم البعث والحساب؟
سيكون يوماً رهيباً . . ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ الحج (٢) . . إنه يوم المحاكمة الإلهية الكبرى ، وسيمثل كل إنسان أمامها ، وسيبعث الله تعالى كل جسد لكل إنسان كان فى الدنيا ، لتدخل ذاته البشرية فيه ، يمثل أمام المحكمة ويجب عن الأسئلة فى موقف الحساب . . ويدخل أصحاب الجنة إلى الجنة وأصحاب النار إلى النار . وكيف يعيش أصحاب الجنة بأجسامهم فى الجنة؟ . .

هذه من الغيبيات التى لا ينبغى أن يجتهد فيها أحد . . ولا يجب أن يتكلم أحد فيها إلا بناء على مصدر العلم الوحيد عنها وهو القرآن والسنة . يقول الله تعالى عن أصحاب الجنة فى سورة يس ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ﴾ ونجد الضمير فى آيات كثيرة فى القرآن الكريم عن أصحاب الجنة يعود على الرجال وليس على النساء . . ولكن أصحاب الجنة من الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات . . إذن فلا بد أن يكون الضمير فى أصحاب الجنة يعود على الإنسان المؤمن الذى كان فى الدنيا من ذكر وأنثى . . وصار فى الجنة عبداً مؤمناً من أصحاب الجنة .

فأصحاب الجنة من الرجال والنساء الصالحين والصالحات الذين كانوا فى الدنيا وأخبرنا الله تعالى فى سورة البقرة (٨٢) .
﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ وقال عن أصحاب الجنة فى سورة هود (٢٣) .
﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

﴿أَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أى خضعت قلوبهم إلى ربهم واطمأنت إلى قضائه . وقال عنهم أيضاً فى سورة الأحقاف (١٤) .
﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فأصحاب الجنة هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم وقالوا ربنا الله ثم استقاموا . . وإذا قيل إن الضمير فى الآيات التى تتحدث عن أصحاب الجنة يعود على الرجال وليس النساء .

نقول : أصحاب الجنة من الرجال والنساء ، فلا بد أن الضمير فى الآيات التى تتحدث عن أصحاب الجنة يعود على المؤمنين والمؤمنات .

هل ستكون النساء المؤمنات زوجات لأزواجهن المؤمنين الذين كانوا فى الدنيا؟ يقولون إن ذلك صحيح لقول الله عز وجل فى سورة الزخرف (٧٠) : ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ . ونحن نقول :

ليس معنى الآية الآية الكريمة أن الزوجة المؤمنة فى الدنيا ستدخل الجنة مع زوجها المؤمن وستكون هى زوجته فيها . لا . . ليس زوجات أصحاب الجنة زوجاتهم المؤمنات فى الدنيا . . نفهم ذلك إذا فهمنا معنى كلمة «الزوج»

الزوج هو الفرد الذى له قرين . والزوجان اثنان كل زوج منهما قرين للآخر . فالمرأة زوج لزوجها والرجل زوج لامرأته . والزوجان فى اللغة الضدان أو القرينان . . فإن كان المعنى الضدين :
فالسما والارض زوجان . والشتاء والصيف زوجان . . والشاطئ والبحر زوجان . .

وإن كان معنى الزوجين النظيرين أو القرينين فالمعنى ظاهر فى الآية الكريمة : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ الزخرف (٧٠) أى أنتم ونظراؤكم فى الإيمان . . وليس المعنى ادخلوا الجنة أنتم وزوجاتكم اللاتى كن فى الدنيا من المؤمنات . ونفس المعنى فى سورة الصافات (٢٢ ، ٢٣) : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى احشروهم ونظراءهم فى الكفر ، وليس المعنى زوجاتهم من نسائهم اللاتى كن فى الدنيا .

ومن هن زوجات أصحاب الجنة؟

إنهن الحور العين . . هكذا أخبرنا القرآن الكريم وأخبرنا الحديث النبوى الشريف . . ولا اجتهاد مع نص وخصوصاً إذا كان الأمر يتعلق بالغيبيات . . قال تعالى فى سورة الدخان (٤٧ - ٥٠) : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ زَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ ، وفى سورة الطور (١٧) : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَكِّينَ عَلَى سُرُرٍ مُصْقُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ .

من هن الحور العين؟

لا نعلم عنهن شيئاً إلا من الأحاديث النبوية المشرفة . . فلنقرأ تلك الأحاديث المشرفة ونفهم منها من هن الحور العين .

أخرج الإمام مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال عن أهل الجنة : «يدخل بيته فى الجنة فتدخل عليه زوجته من الحور العين فتقولان الحمد لله الذى أحياك لنا وأحيانا لك» . وأخرج الطبرانى بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن لكل واحد من أصحاب الجنة زوجتين من الحور العين» ونفهم من السنة النبوية المشرفة أن الحور العين مخلوقات جميلات بدرجة لا تخطر على قلب بشر ، أعدهن الله تعالى لأصحاب الجنة فى الجنة . وهن واسعات العيون حوراوات «والحور : اشتداد بياض العين واشتداد سوادها» «والعين : جمع عينا وهى واسعة العينين» .

وروى الإمام على كرم الله وجهه أن رسول الله ﷺ قال :

«إن فى الجنة لمجتمعاً للحور العين . يرفعن بأصوات لم يسمع الخلائق بمثلهن يقلن : نحن الخالدات فلا نبيد ، ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له» .

وهل سيدخل أهل الجنة بأجسامهم التى كانوا عليها فى الدنيا؟

لا يستطيع أحد أن يجيب على ذلك ؛ إلا بناء على المصدر الوحيد عن الغيبيات وهو القرآن والسنة . وإذا وجدنا نصاً فى القرآن الكريم أو السنة المشرفة عن ذلك ؛ فلا اجتهاد مع نص . لأن الله عزوجل أعلم بخلقهم بما لا علم لنا به .
ينحبرنا الحديث النبوى الشريف أن أصحاب الجنة لن يدخلوا الجنة بأجسامهم التى كانوا عليها فى الدنيا ، وسيكونون بأجسام أخرى لها صفات أخرى . وكل أصحاب الجنة من رجال ونساء كانوا فى الدنيا - كلهم على

خلق واحد ، وشكل واحد ، وهيئة واحدة ، لا فرق بين ذكر وأنثى ، ولن يكون فى أجسام أصحاب الجنة جهاز بولى أو جهاز تناسلى أو جهاز هضمى مثل تلك الأجهزة التى فى أجسامنا نحن الآن فى الدنيا . .
فأصحاب الجنة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ولا يتفلون ولا يتناسلون . . إذن فلا بد أن يكون أصحاب الجنة بأجساد أخرى لها صفات أخرى .

ولكن كيف تكون أجساد أهل الجنة التى هي على صفات واحدة وشكل واحد وهيئة واحدة؟
ينبغى أن نرجع للإجابة عن ذلك إلى المصدر الوحيد للعلم عن ذلك وهو القرآن والسنة . . فيخبرنا الحديث النبوى الشريف بحقيقة علمية هي فوق تصور الخيال . . يخبرنا أن أصحاب الجنة لن يكونوا رجالاً ونساءً ، بل هم جميعاً خلق واحد على هيئة واحدة وشكل واحد . . فقد أخرج الإمام البخارى والإمام مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

«أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ، ولا يمتخطون ولا يتفلون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوة ، وأزواجهم الحور العين ، على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم وطوله ستون ذراعاً»
«والألوة العود الذى يتخربه» .

هذا الحديث النبوى الشريف حديث صحيح رواه الشيخان . . فهو يتحدث عن قول حق ، وأمر حق ، ووصف لأصحاب الجنة حق وصدق ويقين . . ولكن لا نستطيع أن نتخيله ونحن فى عالم المادة ، وأجسادنا وأعضاء أجسامنا من المادة ، ولا نستطيع أن نفكر فى عالم غير عالم المادة . ولا أن نتخيل منه شيئاً إلا بما أخبرنا به القرآن والسنة .
إذا كان لأصحاب الجنة زوجات من الحور العين فمن للنساء؟

للنساء المؤمنات اللاتى سيدخلن الجنة زوجات من الحور العين أيضاً . . ففى الجنة مساواة تامة بين عباد الله المؤمنين ، وهم كانوا فى الدنيا غير متساوين ، وبجنسين مختلفين ، أما فى الجنة فليس هناك حاجة للتناسل والتكاثر ، لأنه لا موت فى الجنة ففيها الخلود ، لذلك فلا معنى لوجود الذكر والأنثى . . هذا ما فهمناه من مطالعتنا للأحاديث النبوية الصحيحة والآيات القرآنية الكريمة . . ومن يقول غير ذلك يكون مجتهداً برأيه . . ولا اجتهاد مع نصٍّ وخصوصاً فى الغيبيات . وأخبرنا الحديث النبوى الشريف أن أصحاب الجنة جميعاً على خلق واحد ، وبأجسام أخرى تماماً عن أجسامنا فى الدنيا ، وعلى عمر واحد ووصف واحد . . فقد أخرج الأئمة الترمذى والطبرانى والبيهقى عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال : «إن أهل الجنة جُرْدُ مُرد جُعَاد لهم لحية ، جُعَاد أى على أخلاق حسنة متواضعون . وزوجات أصحاب الجنة هن الحور العين كما سبق أن ذكرنا . ولا يمكن أن نتخيل ونحن فى عالم المادة أحوالنا فى الجنة . فقد جاء فى الحديث القدسى الشريف قال رسول الله ﷺ يحكى عن ربه : «قال الله عزوجل أعددت لعبادى الصالحين فى الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» ، لذلك أدعو أى إنسان يتكلم عن الغيبيات ، وعن أحوال أصحاب الجنة من هم ، ومن هن زوجاتهم ألا يجتهد برأيه ، وإنما يرجع إلى مصدر العلم الوحيد عن ذلك وهو القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف .

وهل ينام أهل الجنة ويستيقظون كما كانوا يفعلون فى الدنيا؟
نقول لا . . لا ينام أهل الجنة . . لأن رسول الله ﷺ سئل عن ذلك : «أينام أهل الجنة يا رسول الله قال : لا . . فالنوم أخو الموت والجنة لا موت فيها» .

خفض البنات

ذكر الإمام النووي في فتح القدير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأم عطية التي كانت تخفض البنات في المدينة إذ سألته عن صنعتها قال لها : « اخفضي ولا تنهكي فإنه أنضر للوجه وأحظى عند الزوج » .. والخفض يكون للبنات والختان يكون للذكور .

وأخرج الإمام أبو داود في سننه عن عبد الملك بن عمير عن أم عطية الأنصارية إذ سألت رسول الله - أنها تخفض البنات في المدينة - قال « اخفضي ولا تنهكي » أي لا تبالغى في الخفض « اخفضي ولا تنهكي فإن ذلك أحظى للمرأة وأحب للبعل » .

وفى رواية أخرى :

« أَشْمَى وَلَا تَنْهَكِي » أى يجب أن يكون الخفض بقطع يسير جداً . شبهه بمجرد الشم . وشم الشيء لا ينقص منه شيئاً . « أَشْمَى » أى اتركى الموضع كما هو مرتفعاً ، واقطعى أقصاه الأعلى فقط ولا تبالغى ..

وقال الإمام النووي : فانظر إلى جزالة اللفظ فى الكناية فى قوله ﷺ : « اخفضي ولا تنهكي » وفى قوله « أَشْمَى وَلَا تَنْهَكِي » فجعل الشم كناية عن القدر اليسير جداً من الخفض - إذا كان الخفض ضرورياً - وقال الإمام النووي : أمر ﷺ بعدم المبالغة إطلاقاً فى الخفض ، لأن الخفض إذا كان مبالغاً فيه يضعف شهوة المرأة ، وبالتالي يجعل زوجها يضيق بها .

وهذا ما يسير عليه الأطباء فى عصر العلم الحالى . فالأطباء النفسيون يقولون إن المبالغة فى خفض البنات مضر جداً ، فهو يسبب لكثير منهن بروداً جنسياً ، الأمر الذى يكرهه الزوج ولا يرضيه ، وبالتالي تحدث مشكلات عائلية شتى .. وقال بعض الباحثين إن ذلك سبب من أسباب الطلاق .. ويقول علماء الاجتماع إن المبالغة فى خفض البنات ، هو السبب فى إقبال أزواجهن على تعاطى المخدرات ، أو عقاقير أخرى تساعد على ما يلاقونه من البرود الجنسى لدى زوجاتهم ، أو تعينهم على مقاومة ذلك ..

إن المبالغة فى خفض البنات مشكلة كبرى لا يجب أن نستهيى بها ، لأنها تجر وراءها مشكلات شتى ، لأن تلك العملية تستأصل عضواً فى جسم المرأة لم يُخلق فيها عبثاً ، وإنما خلقه الله عز وجل فى جسدها ليكون سبباً فى متعتها واستمتاع زوجها بها .. فذلك قوله ﷺ : « فإنه أنضر للوجه وأحظى عند الزوج » وفى رواية أخرى « فإنه أحظى للمرأة وأحب للبعل » . « أحظى للمرأة » أى إن عدم المبالغة فى خفض المرأة يجعل لها حظوة عند زوجها أى منزلة وصحبة .. وقرباً له فى قلبه .

وخفض البنات عادة جاهلية تدل على التأخر والجهل .. لذلك لم يخفض رسول الله ﷺ بناته ، والرسول ﷺ معصوم فى كل قول وعمل وتقرير ، ولا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى .

الرأى السائد بين الأطباء فى العصر الحالى ، أن خفض البنات لا يكون أبداً إلا فى حالات نادرة ، عندما يكون مكان الخفض متضخماً بدرجة غير طبيعية يحول دون متعة المرأة ، ودون استمتاع زوجها بها . فيستأصل الأطباء الزيادة غير الطبيعية فقط ، ولا يستأصلون ماعداً ذلك .. وحديث سيدنا رسول الله ﷺ هو ما يتبعه الأطباء اليوم فى البلاد الإسلامية ، بل فى العالم بأسره .. وهذا هو الاعتقاد السائد الآن بين الأطباء فى العالم كله ، بالنسبة للغالبية العظمى من البنات .

قيل إن الرسول لم يخفض بناته وأمر بخفض البنات؟ وقالوا : إن الرسول خالف أمره فعله . وحاشا لسيدنا رسول الله ﷺ أن يخالف فعله أمره أو يخالف أمره فعله .. ولا يمكن أن يكون هناك تناقض

فى السنة النبوية المشرفة . . لأن الحق لا يناقض بعضه بعضاً . . ولأن الصدق المطلق لا يتعارض مع بعضه البعض . . وحتى يفهم العامة ذلك ، عليهم أن يدركوا الحد الفاصل بين كلام الناس وكلمات الوحي الإلهى فى القرآن والسنة .

ما الحد الفاصل والفرق الجوهرى بين ما يقوله الناس جميعاً ، وما يقوله القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف؟ كلام أى إنسان لإنسان آخر لا يكون له إلا معنى واحد ، أى وجه واحد من العلم وهدف واحد ، ويكون موجهاً إلى شخص معين أو أشخاص معينين ، فى زمن معين ، ولهم مستوى معين من العلم والفهم والفكر . . أما كلمات القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف فتختلف تماماً عن كلمات البشر فى كثير من الأوجه ، منها : أولاً : لكل حديث شريف خصوص السبب ، وعموم الحكم والتشريع . . مثله فى ذلك مثل الآيات القرآنية الكريمة ، وكلاهما وحى من الله تعالى لرسوله . . وكلاهما يقوم عليه التشريع الإسلامى . ولا يقوم التشريع الإسلامى على القرآن وحده . .

ثانياً : كلمات الوحي الإلهى فى القرآن والحديث النبوى ، مثلها مثل الجواهر ، لها أكثر من وجه من وجوه العلم . . وكل وجه يحمل علماً عظيماً ونوراً مبيناً . . فإلى أى وجه نظرنا رأينا علماً عظيماً ونوراً مبيناً . ثالثاً : الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية المشرفة واجبة التطبيق فى كل عصر وزمان ومكان وإلى يوم القيامة .

وننظر إلى الحديث النبوى الشريف الصادر من سيدنا رسول الله ﷺ لأم عطية . . أم عطية تخفض بنات المدينة . . فهذه صنعتها . . وقد أتت رسول الله وهى تعلم يقيناً أنه لم يخفض بناته . . وبذلك صار عدم خفض البنات سنة نبوية لها حكم وتشريع ، فلماذا أتته وسألته عما تفعل هى من خفض للبنات؟ إنها أتته لتسأل وتتعلم هل فيما تفعله حُرمة . . فأجابها رسول الله ﷺ « اخفضى ولا تنهكى » إلى آخر الحديث الشريف .

الذى يجب أن نفهمه من ذلك أن خفض البنات غير مستحب وتركه أفضل ، وإذا كان لابد من خفض لأسباب طبية - ذكرناها من قبل - فلا بد أن يكون خفضاً يسيراً جداً ، يزيل ما زاد عن الحجم الطبيعى ولا أكثر ، بحيث لا يزيل سبب المتعة للمرأة ، واستمتاع زوجها بها .

نقرأ الحديث النبوى الشريف ، ونفهم معناه أو معانيه على ضوء ما ذكرنا من التوضيح . قال ﷺ لأم عطية : « اخفضى ولا تنهكى فإنه - أى الخفض اليسير جداً - أنضر للوجه وأحظى عند الزوج » وفى رواية أخرى : « اخفضى ولا تنهكى ، فإن ذلك أحظى للمرأة وأحب للبعل » وفى رواية أخرى : « أشمى ولا تنهكى » أى أن الخفض إذا كان لابد منه فليكن فى أيسر اليسير ، أو لأقل القليل من العضو المراد خفضه . .

وحديث رسول الله ﷺ واجب الحكم والتشريع . . لقد سَنَّ رسول الله ﷺ السنة الواجبة وهى عدم الخفض ، إلا أنه أعطى الرخصة لأم عطية لتخفض البنات إذا كان ذلك ضرورياً ، وبشروط ذكرها الحديث الشريف . وذكر لها ضمناً أن خفض البنات إذا كان لضرورة فلا حُرمة فيه ، فقد أعطى الرخصة فيه ، ولكنه بشروط لا يجب أن يخرج عنها أحد .

وحديث سيدنا رسول الله ﷺ لا يخاطب أم عطية وحدها . . ولكنه يخاطب الأمة الإسلامية جميعاً ، فى كل عصر وزمان ومكان ، ويشرع لها فى هذا الموضوع الذى يهم كل امرأة ، ويخاطب الأطباء فى عصرنا هذا أيضاً . ولولا أن رسول الله ﷺ أعطى الرخصة فى خفض البنات عند الضرورة ، وبشروط محدودة وواجبة ، ليس لأحد أن يخرج عنها ، لولا ذلك ، لكان خفض البنات فى حالات صحية معينة لابد للخفض فيها محرماً مهما كانت الأسباب والأحوال .

أخرج الإمامان البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «استوصوا بالنساء ، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شيء فى الضلع أعلاه إن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء» .

يقول العلماء : إن حواء خلقت من ضلع من أضلاع جسد آدم ، وهذه حقيقة غيبية ، ليس لنا من مصدر للعلم عنها إلا القرآن والحديث النبوى ، ولا تخضع لعلم تجريبي إلا ما كان بطريق الاستدلال العلمى .

جاء ذكر خلق حواء من جسد آدم ونفسه فى سورة الأعراف (١٨٩) فى قول الله عز وجل : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ وفى سورة الروم (٢١) فى قول الله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ .

الآيتان الكريمتان تبينان أن جسم حواء خلق من جسيم آدم ليسكن كل منهما للآخر . ولقد أخبرنا الحديث النبوى الشريف أن حواء خلقت من ضلع .

وهذه حقيقة غيبية لاشك فيها ، ونجد لها من خلال التقدم العلمى فى عصرنا الحالى تفسيرات علمية : الأول : نظام الشفرة الوراثية فى خلايا جسم الرجل ، هو نفسه طبق الأصل نظام الشفرة الوراثية فى خلايا جسم المرأة ، مما يدل على أنهما خلقا من أصل واحد .

الثانى : نجد فى علم الأحياء أجسامًا تتخلق من أجسام أخرى ولا تنقص منها شيئًا ، مثل التكاثر الانقسامى فى الأوليات وحيدة الخلية «مثل البراميسيوم» ، ومثل عمليات التبرعم فى الهيدرا ، يُخلق حى من حى بطريق انقسام جزء منه وانفصاله بعد ذلك عنه ، ولا ينقص منه شيئًا .

الثالث : أثناء تكاثر خلايا الأجسام الحية ينشط الحامض النووى إلى شطرين ، يتجه كل شطر منهما إلى طرف من أطراف الخلية ، وسرعان ما تنقسم الخلية إلى خليتين ، وفى كل خلية يكمل شطر الحامض النووى نفسه بشطر آخر مطابق له تمامًا ، وبهذه الطريقة من الانقسام يخلق الله تعالى خلية جديدة من الخلية الأم طبق الأصل منها ، ولا تنقص الخلية المخلوقة من الخلية الأم شيئًا .

ولقد أخبرنا الحديث النبوى الشريف أن حواء خلقت من ضلع أعوج . وبالأستدلال العلمى ندرك أنه ضلع من أضلاع آدم ، ولم ينقص ذلك من جسم آدم ضلعًا .

وأخرج الإمامان مسلم والترمذى عن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «استوصوا بالنساء . فإن المرأة كالضلع إذا ذهبت تقيمها كسرتها ، وإن تركتها استمتعت بها وفيها عَوَج» بفتح العين والواو .

وأخرج الإمامان البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع . وإن أعوج شيء فى الضلع أعلاه ، إن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء» .

وأخرج الإمام أحمد رواية أخرى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «لا تستقيم لك المرأة على خليفة واحدة ، إنما هى كالضلع إن تقيمها تكسرها وإن تتركها تستمتع بها وفيها عَوَج» بفتح العين والواو .

قرأ كثير من الناس هذه الأحاديث النبوية الشريفة ، وفهموا منها أنها تشير إلى أن خلق المرأة ناقص ومعوج ، وأن خلق الرجل كامل وفي أحسن تقويم . وبذلك فهموا هذه الأحاديث النبوية المشرفة فهمًا مخطئًا ، فلا هم فهموا ما جاء فيها من إعجاز علمي ، ولا هم أدركوا ما فيها من إعجاز بلاغي ، ولا هم علموا من مقاصدها ومعانيها شيئًا صحيحًا .

الله عز وجل يقول : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين : ٤) .

وقال تعالى أيضًا : ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (السجدة : ٧) .

والإنسان رجل وامرأة ، فلا يستقيم المعنى في الآيتين إذا كان نصف الخلق ناقصًا ومعوجًا . فالقرآن العظيم يقرر أن خلق كل من الرجل والمرأة في أحسن تقويم . . والحديث النبوي الشريف يفسر القرآن الكريم ، ويوضح معانيه ، ويبين مقاصده ، ولا يمكن أن يتعارض الحديث النبوي الصحيح مع القرآن الكريم أبدًا ، لأن كليهما من قبس واحد هو الوحي الإلهي لرسوله .

وفي رأينا أن الأحاديث النبوية التي ذكرناها ، تشير إلى اختلاف تكوينها عن تكوين الرجل ، وكلاهما خلق على الفطرة السليمة وفي أحسن تقويم . . وكلمة «عَوَج» بفتح العين والواو ، في اللغة تعني كل منتصب وقائم في استقامة ويكون فيه ميل ، وميل العود مثلاً لا يدل على نقص في صناعته وخلقه ، وإنما يدل على اختلاف في موضعه وصفاته . . وكذلك الأمر في المرأة . . هي تختلف عن الرجل في الصفات والوظائف ، ولكن خلقها في أحسن تقويم . ونجد ذلك في الحديث النبوي الشريف لو تدبرنا معناه جيداً ، قال رسول الله ﷺ : «لا تستقيم لك المرأة على خليقة واحدة إنما هي كالضلع» ، أي أن في صفاتها ما يختلف عن صفات الرجل وبينهما اختلافات كثيرة . . فالرجل فيه صفات الرجولة وغرائزها وميولها وطباعها ومميزاتها ، والمرأة فيها صفات الأنوثة وغرائزها وميولها ومميزاتها ، التي تختلف عن صفات الرجولة اختلافاً كبيراً ، إذن فهي لا تستقيم للرجل على خليقة واحدة ، ولا يدل هذا على أن في خلقها نقصاً أو عيباً ؛ ولو خلقت المرأة بنفس صفات الرجل وغرائزه وميوله وطباعه ، ما سكن الرجل إليها ، وما سكنت هي إليه . . فكلاهما يكمل الآخر ، وكلاهما لا غنى له عن الآخر . ولو كانت صفات المرأة وطباعها مثل صفات وطباع الرجل ، ماتحملت متاعب الحمل والرضاعة راضية ، وما تحملت مشقة تربية الأولاد مختارة ، الأمر الذي يستلزم وجود فيض من العطف والصبر والحنان ، وهي صفات فطر الله تعالى المرأة عليها ، وهذا كمال في خلقها وليس نقصاً .

قال رسول الله ﷺ : «إن تقيمها تكسرهما وإن تركتها تستمتع بها وفيها عَوَج» الحديث الشريف لا يشير إلى عيب في خلق المرأة أو في صفاتها وطباعها ، وإنما يدل على اختلاف المرأة عن الرجل في الصفات والميول والغرائز ، وإن كان بها نقص فهو نقص في الشدة والبأس وقوة العضل . ومثال ذلك أننا لا نجد جيشاً من النساء يحارب في ميدان القتال .

ولماذا شبه الحديث النبوي الشريف خلق المرأة بالضلع الأعوج ، مادام ليس في خلقها نقص ؟ حتى نفهم ذلك نعود إلى علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء ، فنجد أن الله تعالى خلق في جسد كل من الرجل والمرأة اثني عشر ضلعاً تكون مع العمود الفقري وعظمة القفص الصدري ، وخلق الضلوع على شكل قوس نصف دائري . . لذلك يتقابل كل ضلع مع الضلع المقابل له في الجهة الأخرى . . وبذلك يكون اعوجاج الضلوع من الناحيتين قفصاً محكمًا ، يحفظ القلب والأوعية الدموية الكبرى ، والرئتين والشعبات . وكلها من أهم أجهزة الجسم التي لا بد من سلامتها وحفظها لاستمرار حياة الجسم .

من هذا ندرك أن في خلق الضلوع على عوج ، اتقاناً في الخلق وكمالاً لحسن التقويم ، فاعوجاج الضلع

استقامته على فطرة الخلق السليمة . ولو خلق الله تعالى الضلوع مستقيمة ما صلحت لوظيفتها ؛ فاعوجاج ضلوع الصدر يحمي القلب والرئتين ويحشو عليهما ، ويحافظ عليهما ، ويرد عنهما أى ضربة خارجية .

وكان الضلوع المنحنية أمّا تحفظ وليدها بيديها ، وتحمي وتدافع عنه ، فاعوجاج الضلع فيه معنى الحماية والحنو والرعاية . . فوصف المرأة بأنها خلقت من ضلع أعوج ، يشير إلى كمال خلقها وقام حنوها وشدة رعايتها . . ولو حاولنا أن نقيم الضلع ليكون مستقيماً لكسرناه ، ولفقد وظيفته وفائدته ، فذلك قوله ﷺ : «إِنْ ذَهَبَتْ تَقِيمُهُ كَسَرْتَهُ وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ» ، ولو حاول الرجل أن يغير من طباع المرأة من اللين إلى الشدة ، ومن الحنو إلى العنف ، ومن الرأفة إلى القسوة ، فإن الرجل لن يميل ولن يسكن إليها ، ولن يستريح لها ويستمتع بها ويسعد بوجودها معه ، فذلك حديث النبي ﷺ : «المرأة كالضلع إذا ذهب تقيمها كسرتها وإن تركتها استمتعت بها وفيها عوج فاستوصوا بالنساء» وأخرج الإمام أحمد عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : «المرأة كالضلع إن أقمته كسرتها وهي يُستمتع بها على عوج فيها» ، هذا الحديث الشريف يشير إلى أن العوج فيها هو سر استمتاع الرجل بها واستمتاعها به .

والمرأة فى نظر الرجل أجمل مخلوق فى الوجود . وأخرج الإمام مسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «ألا إن الدنيا متاع وخير متاع الدنيا الزوجة الصالحة» ، فالمرأة وبها عوج خير متاع الدنيا ، بما سبق نفهم أن وصف خلق المرأة من ضلع أعوج ، صفة مدح وليست صفة ذم .

٦ الحيض والمرأة الحائض

أخرج البخارى عن منصور بن صفية أن أمه حدثته أن عائشة رضى الله عنها حدثتها «أن النبي ﷺ كان يتكئ فى حجرى وأنا حائض ثم يقرأ القرآن» ، والمراد بالاتكاء وضع رأسه فى حجرها ، قال ابن دقيق العيد ، فى هذا الفعل إشارة إلى أن الحائض لا تقرأ القرآن لأن قراءتها لو كانت جائزة لما توهم امتناع القراءة فى حجرها حتى احتاج الأمر إلى النص عليها ، وفيه جواز ملامسة الحائض ، وأن ذاتها وثيابها على الطهارة مالم يلحق شيئاً منها نجاسة .

أخرج البخارى عن أم سلمة رضى الله عنها قالت :

بينما أنا مع النبي ﷺ مضطجعة فى خميلة إذ حضت ، فانسلت فأخذت ثياب حيضتى . قال : «أنفست؟» قلت : نعم . فدعاني فاضطجعت معه فى الخميلة .

وفى الحديث الشريف سمي الحيض نفاساً ، و«النفاس» هو الأصل فى تسمية الدم الخارج ، والتعبير به تعبيراً بالمعنى الأعم ، أما التعبير عنه بالحيض فهو تعبير بالمعنى الأخص ، فعبر النبي ﷺ بالمعنى الأعم ، وعبرت أم سلمة بالمعنى الأخص ، والخميلة هى الطنفسة ؛ وقال الخليل : الخميلة ثوب له حمل أى هذب ، «انسلت» أى ذهبت خفية ، قال النووى كأنها خافت وصول شئ من دمها إليه ، أو تقذرت نفسها ولم ترضها لمضاجعته لذلك قالت فى حديثها «فدعاني» أى أذن لها فى العود .

وأخرج البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت فى حديث لها : «وكان يُخرج رأسه إلىّ وهو معتكف فأغسله وأنا حائض» .

وأخرج البخارى عن عبد الله بن شداد قال سمعت ميمونة تقول : «كان رسول الله ﷺ إذا أذن أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فاتزرت وهى حائض» أمرها أى أمرها بالابتزاز .

فى باب كيف تغتسل الحائض ، أخرج البخارى عن عائشة رضى الله عنها أن امرأة سألت النبي ﷺ عن

غسلها من الحيض فأمرها كيف تغتسل قال : «فخذى فِرْصَةً من مِسْكٍ فتطهري بها» قالت : كيف أتطهر؟ قال : «تطهري بها» ، قالت : كيف؟ قال : «سبحان الله» فاجتذبتها إلى فقلت لها : تتبعى بها أثر الدم . و«الفِرْصَةُ» قطعة قماش من صوف أو قطن عليها صوف . «من مِسْكٍ» أى من قطعة جلد ، قوله ﷺ «سبحان الله» يفيد التسبيح عند التعجب ، ومعناه كيف يخفى هذا الظاهر الذى لا يحتاج فى فهمه إلى فكر ، واكتفى بلسان الحال عن لسان المقال ، وفهمت السيدة عائشة رضى الله عنها ذلك عنه فتولت تعليمها .

وفى باب الاستحاضة أخرج البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : قالت فاطمة بنت أبى حبيش لرسول الله ﷺ : يا رسول الله إني لا أطهرُ ، أفادعُ الصلاة؟ قال رسول الله ﷺ : «إنما ذلك عِرْقٌ وليس بالحيضة ، فإذا أقبلت الحيضة فاتركى الصلاة ، فإذا ذهب قَدْرُها فاغسلى عنك الدم وصلّى» . وأخرج الإمام مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : بينما رسول الله ﷺ فى المسجد قال : «يا عائشة ناولينى الثوب» . فقالت : إني حائض ، فقال : «إن حيضك ليس فى يدك» ، فناولته الثوب ولبسه .

أذى الحيض

قال الله عز وجل : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ البقرة : (٢٢٢) فى زمن نزول هذه الآية كان العرب يقلدون بنى إسرائيل فى تجنب مجالسة المرأة الحائض ، وتجنب مشاركتها فى طعام أو سكن أو فراش ، وكانت اليهود يتجنبون المرأة الحائض .

وذكر الطبرى أن سبب نزول الآية الكريمة أن ثابت بن الدحداح سأل رسول الله ﷺ عن الحائض ، وقيل غيره ، وسبب السؤال أن العرب فى المدينة وما حولها كانوا يفعلون ما يفعل اليهود فى تجنب مؤاكلة الحائض ومساكنتها فنزلت الآية . . وفى صحيح مسلم عن أنس : أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها فسأل أصحاب النبى ﷺ فنزلت الآية فبلغ ذلك اليهود فغضبوا وقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه . وقال العلماء : كانت اليهود والمجوس تجتنب الحائض ، وكانت النصارى يجامعون الحائض فأمر الله تعالى بالقصد بين هذين .

وأجمع العلماء على أن الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ، لحديث السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : (كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة) أخرجه مسلم .

وتعلم المسلمون من النبى ﷺ كيف يتعاملون مع المرأة الحائض ، وكانت السنة النبوية غنية بالدروس والتوجيهات للمسلمين فى هذا الموضوع وفى كل موضوع .

ونقرأ فى تاريخ مصر القديمة أن المرأة الحائض كانوا يعتبرونها نجسة ، تأكل وحدها ، وتنام وحدها ، ويتجنبها زوجها ، لا اعتقاده أن جسدها يفرز سموماً ، فقد زعم الكهنة أن سقى أى شجرة بماء اختلط بدم الحيض يؤدي إلى موت الشجرة ، لأن دم الحيض مجموعة من السموم ، وصار ذلك الزعم عقيدة راسخة لدى المصريين القدماء ، وظلت عبر العصور حتى عصور الإغريق ، بل إن الإغريق اعتقدوا بوجود أرواح شريرة تتلبس المرأة أثناء فترة الحيض ، لذلك كانوا يتجنبونها فى المأكل والمشرب والسكن ، وكان علماء الإغريق وفلاسفتهم يعلمون تلك المعتقدات للأجيال حتى عصر جالينوس وما بعده من عصور ، أما اليهود فقد تعلموا تلك الأساطير الخاطئة من المصريين القدماء عندما كانوا وافدين على مصر ، إلا أنهم كانوا أكثر من المصريين تشدداً حتى أنهم ساووا بين الحيض والاستحاضة .

وفى الإصحاح الخامس عشر فى تراجم التوراة فى سفر اللاويين ذكر أن المرأة الحائض نجسة ، فلا تلمس ولا

تشارك فى أكل أو شرب أو مجلس أو سكن ، ولا يقترب منها زوجها إلا بعد أن ينتهى الحيض تماماً وتغتسل منه ، وتمر سبعة أيام بعد ذلك . . أى أن الرجل يتجنب امرأته ولا يشاركها فى طعام أو شراب أو سكن أو فراش نحو أسبوعين كل شهر ، أسبوع الحيض وأسبوع يمر بعد الحيض . . ويأتى العلم الحديث ويثبت أن الحائض ليست نجسة ولا يفرز جسدها سمّاً ، وليس فى دم حيضها سم ، ولا شىء فى لمسها ومشاركتها الطعام والشراب والمساكن والفراش ، ويتجلى الإعجاز العلمى فى السنة المشرفة التى علمت الناس أن الحيض ليس نجساً والحائض ليست نجسة . . ففى الصحيح عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان رسول الله ﷺ يتكىء فى حجرى وأنا حائض فيقرأ القرآن . وقراءة الرسول ﷺ القرآن تأكيد منه ﷺ على عدم نجاسة الحائض وأن لمسها ولمس ثيابها إذا كانت طاهرة لا يمنع الإنسان من قراءة القرآن ، وإن كانت هى لا تقرأه .

وظل اعتقاد الإغريق بوجود سموم فى دم الحيض حتى أوائل القرن العشرين ، ففى سنة ١٩٠٠ كان الاعتقاد الشائع بين العلماء أن سموماً لا تخرج فى دم الحيض فحسب ، بل تخرج أيضاً فى عرق الحائض ولعابها ، وفى سنة ١٩٤٠ أعلن عالم يدعى جورج سميث أن فى دم الحيض سمّاً قاتلاً ، وقال إنه حقن بعض الحيوانات بدم حيض فماتت . . فى سنة ١٩٥٣ أعلن العالم برنارد زوندك أن موت تلك الحيوانات كان بسبب وجود جراثيم ضارة فى دم الحائض وليس سمّاً . . إلا أن اليهود ظلوا على اعتقادهم - حتى منتصف القرن العشرين - أن دم الحيض يحتوى على سموم قاتلة!

وكان لدى العرب قبل نزول الرسالة على سيدنا رسول الله ﷺ نفس معتقدات الإغريق ، ونفس معتقدات اليهود ، ولما ساد الإسلام ساد الحق ، وانتهت تلك المعتقدات الخاطئة ، وذكر القرآن الكريم كلمة «الحيض» مصدر حيض بمعنى سَئِلَ ، والمحيض هو الحيض وزمانه ومكانه ، وذكر القرآن الكريم أن فى الاتصال الجنسى بالمرأة الحائض أذى ، والأذى هو كل ما يتأذى منه من قدر أو مرض أو مكروه أو ضرر ، واشترط القرآن الكريم شرطين لاستئناف الاتصال الجنسى بالمرأة إذا حدث لها حيض .

الأول : الطَّهْر وهو انقطاع الدم .

والثانى : التطهر وهو الاغتسال بالماء .

وهناك فرق بين الحيض والاستحاضة ، فالحيض هو نزول الدم فى أيامه المعروفة لدى المرأة . والاستحاضة نزول الدم فى أيام غير معلومة أو أوقات غير محددة أو متوقعة .

وقول الله عز وجل : ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ ﴾ هو الامتناع عن مباشرة الاتصال الجنسى أثناء الحيض دون الامتناع عن أى شىء آخر ، وأجمع العلماء أنه يحل للرجل من امرأته الحائض ما فوق الإزار ، أما قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ ﴾ فإذا قيل لا تقرب «بفتح الراء» كان المعنى لا تَلْبَسَنَّ بالفعل ، وإن كان بضم الراء كان المعنى : لا تَدْخُلَنَّ منه .

وما الأذى الذى ينتج عن الاتصال الجنسى أثناء الحيض؟

كان الاعتقاد من قبل أن الأذى هو من القدر والرائحة وما إلى ذلك ، فضلاً عن الاعتقاد بما فى دم الحيض من السموم ، حتى إن أحد العلماء الفرنسيين وكان يدعى جواتييه أكد سنة ١٩٠٠ أن سموم الزرنيخ هى من أهم السموم التى تخرج فى دم الحيض ، وفى سنة ١٩٦٧ نشر د . جينكوت كتابه «أسس أمراض النساء» وذكر فيه أن بعض الشعوب - يقصد الشعوب الإسلامية - تعلم بناتها وجوب غسل المهبل بالماء بعد الانتهاء من الحيض ، وقال إن ذلك خطأ ، فما ينبغى أن يغسل المهبل بالماء بعد الحيض أو فى أى وقت آخر ، لأن ذلك مضر صحياً ، فالماء يزيل أسباب الوقاية الطبيعية فى ذلك المكان ، وأضاف : لم يثبت أى ضرر من الاتصال الجنسى بالمرأة

الحائض ، وكثير من الناس تفعل ذلك ، ولن ينتج عن ذلك أذى ، وبعد ذلك التاريخ اكتشف العلماء الأذى المحقق من الاتصال الجنسي أثناء الحيض ، وأنه يجب اعتزال النساء في الحيض ، وبذلك توصلوا إلى اكتشاف السر العلمى فى قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النَّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ والسر العلمى فى السنة النبوية المشرفة فى هذا الموضوع ، وبذلك لم يتوصل العلماء إلى الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف فى موضوع الحيض إلا حديثاً جديداً ، وذكرت الآية الكريمة أن فى الاتصال الجنسي بالحائض أذى ، ونهت عنه واشترطت لاستئناف الاتصال انقطاع الدم والتطهر بالماء النقى بعد ذلك ، أى غسل المكان جيداً ، وزاد السنة النبوية توضيحاً ، ما أخرجه البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن امرأة سألت النبى ﷺ عن غسلها من الحيض فأمرها أن تغتسل قال : «خدى فِرْصَةً من مسك فتطهري بها» . قالت : كيف أتطهر؟ قال : «تطهري بها» . قالت : كيف؟ قال «سبحان الله ، تطهري» فاجتذبتُها إلىَّ وقلتُ لها : تتبعى بها أثر الدم .

وأخيراً جدّاً توصل العلماء إلى السر العلمى فى أذى الحيض الذى نصت عليه الآية الكريمة ، فما هو؟ فى دراسة علمية عن «أذى الحيض بين الحقيقة القرآنية ومزاعم اليهودية» للدكتور محمد عبداللطيف ، أن العلماء اكتشفوا حديثاً جديداً دورات حياة للجراثيم الضارة ، وميكروبات مفيدة توجد فى قناة المهبل تتغير خلال الدورة الشهرية ، بتغير الدورات الشهرية لهرموني الإستروجين والبروجيستيرون oestrogen and progesterone وهى هرمونات المبيض .

والميكروبات الضارة ميكروبات سبحية وعنقودية ، وتسبب التهابات موضعية حادة . أما الميكروبات المفيدة فهى عصويات دودلين ، وتعمل كخط دفاع ، فهى تسبب وسطاً حامضياً يقتل الجراثيم الضارة بقناة المهبل ، ويقول العلماء : إن عصويات دودلين تستنفد السكر المخزن فى خلايا جدار المهبل ، وتفرز حامض اللاكتيك فى قناة المهبل الذى يسبب الوسط الحامض القاتل للجراثيم الضارة ، وتزداد كمية السكر المخزن فى خلايا جدار المهبل فى منتصف الدورة الشهرية ، وتقل كثيراً جداً قبيل فترة الحيض ، وتختفى تماماً أثناءها ، لذلك فإن الميكروبات المفيدة «عصويات دودلين» تصل إلى قمة تكاثرها ، وبالتالي يصل الوسط الحامض القاتل للجراثيم الضارة ، فى منتصف الدورة ، ويقل كل ذلك قبيل فترة الحيض ، ويختفى أثناءها . . وتكون قناة المهبل فى وسط قلوى ، وبالتالي تجد الجراثيم الضارة الفرصة مواتية لها للتكاثر أثناء فترة الحيض .

يتضح مما سبق أن فتحة قناة المهبل الخارجية أثناء الحيض ، تصير مكاناً خصباً لتكاثر الجراثيم الضارة حتى أن عدد الجراثيم فى السنتيمتر المربع الواحد يصل إلى ستين مليوناً ، وفى هذا الوسط القلوى والمرعى الخصب للجراثيم الضارة بقناة المهبل ، يكون المكان ممهداً تماماً لتكاثر طفيليات تسمى التريكوموناس ، وهى طفيليات وحيدة الخلية لا ترى إلا بالميكروسكوب العلمى ، وتسبب التهابات إضافية موضعية ورائحة كريهة .

لذلك فإن الاتصال الجنسي بالمرأة أثناء الحيض ، ضار ولا تحمد عواقبه ، ومن هذه الأضرار التهابات بالجهاز التناسلى والبولى فى المرأة ، كما أن طفيل التريكوموناس غالباً ما ينتقل إلى الجهاز التناسلى الخارجى للرجل ، بما سبق يمكننا فهم المغزى العلمى لقوله تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النَّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾

ذكرت الآية الكريمة الطهر والتطهر . . والطهر هو انقطاع الدم وانتهاء فترة الحيض ، أما التطهر فهو الاغتسال بالماء ، واقتفاء أثر الدم كما فهمنا من الحديث الشريف . والتطهر يزيل الجراثيم الضارة التى استقرت فى المهبل بعد توقف سيل الدم الذى كان يدفع تلك الجراثيم إلى الخارج ، لذلك كان التطهر ضرورياً ليزيل تلك الجراثيم

الضارة التى تخلفت . واقتفاء أثر الدم بالاغتسال بالماء يطهر المكان من كل إفرازات قلوية وجراثيم ضارة وطفيليات . وإذا تطهر المهبل ، تهيأت الفرصة من جديد للميكروبات المفيدة للتكاثر وحماية المهبل من الجراثيم الضارة والطفيليات غير المرغوب فيها .

ومن هذا نفهم السر العلمى فى اشتراط الطهر ثم التطهر بعد انتهاء الحيض لاستئناس الاتصال الجنسى بالمرأة ، ومن هذا أيضاً يتضح لنا أذى الحيض الذى ذكرته الآية الكريمة ، واعتزال النساء فى الحيض هو اعتزال المباشرة الجنسية معهن وليس اعتزال الحياة معهن كما كان الحال مع اليهود وغيرهم من الأمم كما ذكرنا من قبل ، فقد قال رسول الله ﷺ : «يا عائشة ناولينى الثوب» فقالت : إني حائض ، فقال : «إن حيضك ليس فى يدك» ، فناولته الثوب ولبسه ، فأذى الحيض أذى موضعى وليس أذى عامًا فى بدن المرأة كلها ، وهذا ما اكتشفه العلماء فى عصر العلم الحالى وعلمنا إياه الحديث النبوى الشريف من قبل .

وهكذا فسرت السنة النبوية المشرفة قول الله عز وجل : ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ بأنه اعتزال الاتصال الجنسى معهن وليس اعتزال مؤاكلتهن ومساكنتهن .

ولا تقربوهن : أى لا تجاوروهن فتقوموا بأفعال تؤدى إلى الاتصال الجنسى معهن .
فالاعتزال هنا هو اعتزال المباشرة الزوجية ، والحذر من الاقتراب بأفعال تؤدى إليها ، وهكذا اكتشف العلم الكثير من حقائق العلم التى لم تكن معروفة من قبل أبدًا ؛ وأشار إليها القرآن الكريم ؛ وتحدث بها الحديث النبوى الشريف .

٧ الأم الحاضنة والرحم المستأجر

عن السيدة عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال :
«الولد للفراش وللعاهر الحجر» .

وأخرج الإمام أبو داود أن رسول الله ﷺ قال :
«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقى ماؤه زرع غيره» .

البحث فى موضوع الأم الحاضنة أو الرحم المستأجر «الرحم الظئر» ، بحث وافد علينا ، لا يحدث فى البلدان الإسلامية ، وإنما هو فى البلاد غير الإسلامية فى العالم الغربى .

والحمل بهذه الطريقة يكون للضرورة القصوى فى تلك البلاد ، عندما ينقطع الأمل تمامًا فى حدوث الحمل . والوضع الطبيعى للحمل أن يكون الرحم طبيعياً ، وأنبوتاه طبيعيتين ومفتوحتين ، وأن يكون منى الرجل طبيعياً ، ولا يحول حائل بينه وبين التقائه مع البويضة . وفى حالات غير طبيعية تكون أنبوتات الرحم مسدودتين تمامًا ، الأمر الذى يحول بين التقاء المنى بالبويضة . والحالة الثانية : العيب لا يكون فى أنبوتات الرحم فحسب ، ولكن العيب يكون فى الرحم أيضاً ، كأن يكون ضامراً أو مصمتاً أو يكون مستأصلاً .

فى الحالة الأولى : «انسداد أنبوتات الرحم ، والرحم سليم» يكون العلاج فى عملية «طفل الأنابيب» ؛ شفت بويضة من مبيض الزوجة ، وتوضع فى طبق اختبار فى المعمل وتعرض لمنى الزوج فى ذلك الطبق ، فتلتحم إحدى أمشاج المنى ، وتتكون البويضة الملتحمة «أول درجة فى تكون النطفة» خارج الرحم ، وتترك أياماً لتتقسم ازدواجاً حتى تصل إلى ثمانى خلايا ، ثم تنقل بمنتهى العناية إلى داخل الرحم ؛ رحم الزوجة من خلال عنق الرحم ، لتعلق النطفة بجدار الرحم وتنغرس فيه ، ويكتمل الحمل بعد ذلك طبيعياً .

الحالة الثانية : يكون العلاج بنفس الطريقة الأولى ، حتى مرحلة تكون النطفة الأولى فى الطبقة فى المعمل ، ويصل إلى ثمانى خلايا ، ويودع فى رحم طبيعى لامرأة أخرى ، فتعلق النطفة بجدار رحم تلك المرأة الحاضنة ، أو الرحم المستأجر وتنغرس فيه ، ويستمر الحمل بعد ذلك طبيعياً ، ويولد بعد ذلك .

وهنا تثور قضية نسب ذلك الطفل ، وعلاقة الأم الحاضنة به ، تلك القضية التى هى محل جدال بين العلماء ، واختلاف فى الآراء . فمن أم الطفل؟ هل هى المرأة التى ولدت (الأم الحاضنة) أم صاحبة البويضة؟ ومن أبوه؟

فريق من العلماء يقول : إن الأم هى صاحبة البويضة ، وأبوه صاحب المنى . وهذا هو رأى السائد بين العلماء .

فريق آخر من العلماء يقول : إن الأم هى الأم الحاضنة التى ولدت ، وأبوه قد يكون غير صاحب المنى .

وكل فريق من العلماء يعتمد على أدلة شرعية وبراهين علمية على رأى الذى يقول به .

الرأى القائل أن الأب هو صاحب المنى والأم هى صاحبة البويضة :

هو رأى يستند إلى حقائق علم الوراثة فى عصرنا الحالى ؛ فالنطفة الأولى تنمو فى الرحم ، وقد تكونت أصلاً من أمشاج الزوج والزوجة ، وفى كل منهما نصف عدد الكروموسومات ، وباتحادهما معاً تتكون البويضة الملقحة الأولى ، وهى خلية بشرية كاملة وراثياً ، بها العوامل الوراثية من كل من الأم والأب ، ولا دور للرحم فى اكتساب أى صفات وراثية «على قدر علم الإنسان حتى الآن» .

الرأى القائل : إن الأب قد يكون غير صاحب المنى والأم قد تكون الأم الحاضنة :

الرأى الشرعى أن الولد ابن من تلده ، والقرآن الكريم يقول : إن الأم هى التى تحمل وتلد . نزلت هذه الحقيقة فى

ست آيات ، قال تعالى فى سورة النجم (٣٢) : ﴿ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ ، وبعد ذلك نزلت فى سورة

لقمان (١٤) : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حِمْلَتْهُ أُمُّهُ وَهَئَا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ ، وفى سورة الأحقاف (١٥) : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ

كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ ، وفى سورة الزمر (٦) : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ ، وفى سورة النحل (٧٨)

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ ، وفى سورة المجادلة (٢) : ﴿ الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ

أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ . ويقول رسول الله ﷺ : «يجمع أحدكم فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ...» إلى

آخر الحديث الشريف . نفهم من ذلك أن أطوار الخلق خلق الجنين من النطفة إلى الولادة إنما تكون فى رحم أمه .

فالأمومة ليست معتمدة على العوامل الوراثية وحدها ، فإن النمو فى الرحم له أثر كبير أيضاً ؛ فالأمومة أكثر

من كونها بويضة ، بل هى أوسع من ذلك وأشمل . قال ذلك كثير من العلماء منهم أ. د. زكريا البرى^(١) . ولقد

أجمع العلماء على أن زرع جنين «طفل الأنبوب» فى رحم امرأة غريبة عن صاحب المنى وصاحبة البويضة حرام

بالإجماع ، وأن ذلك يعتبر كأنه زنا ؛ لأن الرجل وضع منيه فى رحم امرأة غريبة عنه .

ويرى الدكتور ماهر حتوت^(٢) أن الجنين بصرف النظر عن أصل البويضة ليس نتاج الكروموسومات الوراثية

فقط ، فقد ثبت طبيياً فى أمريكا الآن أن الإنسان نتاج العوامل الوراثية وتفاعلها مع البيئة المحيطة بها ، وأشد هذه

البيئات تأثيراً عليه ، نموه فى رحم أمه سواء أكانت حاضنة أم شرعية ؛ فالسلوك الوراثى يتأثر بالبيئة ، ومثال على

ذلك : إنسان يحمل صفات وراثية تجعل عنده استعداداً لمرض السكر ، إلا أنه لا يمرض بالسكر إذا عاش فى بيئة

(١) ندوة الإنجاب فى ضوء الإسلام بالكويت فى ٢٤ يناير ١٩٨٣ .

(٢) أستاذ أمراض باطنية فى كاليفورنيا ومن الدعاة الإسلاميين بالولايات المتحدة الأمريكية .

مريحة له بدنيًا ونفسيًا . أما الذى عاش فى بيئة مرهقة له بدنيًا ، مؤذية له نفسيًا ، فإن السكر يصيبه . وبالمثل الطفل يحمل الشفرة الوراثية الخاصة بالمبيض الأصيل ، ولكن تكوينه البدنى والنفسى قد تأثر ببيئة الرحم الذى حمّله ونما فيه ، وتغذى فيه من دم الأم الحاضنة ، فالفكرة من الناحية الطبية غير مستغربة ، وينبغى أن ينسب الولد للأم التى حملته وولدتها كما قال الله عزوجل فى سورة المجادلة (٢) : ﴿ إِنَّمَا أُمَمَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدَتْهُمْ ﴾ .

وقد ظهرت دراسات حديثة تؤكد تأثير طعام الإنسان على تغيير صفاته وطباعه وسلوكه (Diet and Behavior) (Nutrition and Behavior) ونجد نحن الليل على هذا فى دراستنا ليرقات النحل ، فإذا تغذت يرقات النحل على لبن النحل صارت تلك اليرقات شغالات وذكورًا ، أما إذا تغذت على الماء الملكى (Royal Jelly) صارت تلك اليرقات ملكات ، وهى نوع من النحل يختلف فى صفاته الوراثية عن النحل الشغالات والذكور . من هذا ندرك أن نوع الطعام للجنين وحتى للإنسان بعد ولادته ، يؤثر على سلوكه وطباعه وصفاته أيضًا ، وذكرت بعض الدراسات ذلك فى مناقشة أسباب تحريم أكل لحم الخنزير .

ومن غير المعقول أن نعتبر المرأة التى ترضع طفلًا غير طفلها ، يصير ابنها من الرضاع وتكون هى أمه من الرضاع ، ولا نعتبر الأم الحاضنة التى يولد الجنين فى بطنها ويولد منها أمًا له من الحمل والولادة ويكون هو ابنها من الحمل والولادة أيضًا ، والأم هى التى تلد كما نصت الآية الكريمة ولا اجتهاد مع النص .

وذكر أ . د . أحمد شرف الدين^(١) الحكم التكليفى لأسلوب الرحم المؤجر فقال :

أولاً : مبدأ الحرمة :

الرحم الظئر ، سواء كان بمقابل مادية أو بغيره ، هو عنصر أجنبى تدخل فى عملية إنجاب أوجب الشرع أن تكون عملية بين زوجين يستخدم فيها من جانب ماء الزوج ومن جانب آخر بويضة زوجته ورحمها . ومن المبادئ الشرعية للإنجاب ، أن الهيئة الشرعية للأبوة والأمومة لها مقومات يترتب على تخلف واحد منها تشوه هذه الهيئة ، بحيث لا يثبت النسب تلقائيًا بين الوليد ومن يراد أن يكون ابنًا لهما ، فإن أثبت النسب مع ذلك فإنه يكون نسبًا مزورًا إن جاز التعبير . وهو الأمر الذى يؤكد حرمة أسلوب الرحم الظئر إذا كانت صاحبه غير مرتبطة برابطة زوجية بصاحب المنى ، فهذا الأسلوب يخالف أحكام الشرع فيما يتعلق بالهيئة الشرعية للأبوة والأمومة والتى تتطلب قيام الزوجية بين صاحب المنى وصاحبة البويضة ، وعلى أن تكون هذه الأخيرة هى أيضًا صاحبة الرحم .

كما أن الاتفاق مع الرحم المؤجر ، سواء كان لزوجة أخرى للرجل أو غيرها ، يثير الشك فى تحديد أى المرأتين - صاحبة البويضة أم صاحبة الرحم - تكون أمًا للوليد؟ فقد أسهمت كل منهما فى وجوده ، وبالتالي فقد تتمسك صاحبة البويضة بأن أصل الطفل يرجع إليها وهى مصدر صفاته الوراثية ، فى حين تحتج المرأة الحاضنة بأنها احتوت الجنين فى رحمها وأنه تغذى من دمها ، وقد كابدت المتاعب من أجله . فهل يمكن أن ينسب الوليد إليهما معًا فتكون صاحبة البويضة أمًا بالدم ، وتكون صاحبة الرحم أمًا بالرحم؟ فإذا أثبتنا الأمومة فرضًا لصاحبة البويضة فإن هذا ؛ وقد أزال ضرر عدم الولد عندها إلا أنه حرم صاحبة الرحم من التمتع بثمرة حملها وولادتها وعنائها ، فكأننا أزلنا الضرر بضرر آخر وهذا غير جائز .

(١) أستاذ ورئيس قسم القانون المدنى بكلية الحقوق جامعة عين شمس .

ثانياً: قضايا في النزاع على الأمومة والحضانة:

ففي قضية (١) عرضت على إحدى المحاكم الأمريكية «بولاية نيوجيرسى» تتلخص وقائعها في قيام زوجين بالتعاقد مع امرأة أجنبية عنهما تعهدت بمقتضاها بتأجير رحمها لحمل بويضة الزوجة الملقحة بمنى زوجها لوقت الولادة حيث تسلم الوليد للزوجين مقابل عشرة آلاف دولار . وحدث بعد ولادة الطفل أن رفضت الأم الحاضنة تسليم الطفلة الوليدة ، وأكدت حقها في حضانتها ومن ثم أخفقتها عن الزوجين ، فرفع الزوجان الأمر إلى المحكمة المختصة التي أصدرت حكمها مشككة من ناحية في صحة تأجير الرحم وقابليته لإنتاج آثاره لتضمنه شرط دفع الأجر لصاحبة الرحم . . وأمرت من ناحية أخرى بتسليم الوليد للزوجين على أساس أنهما المؤهلان مادياً أكثر من المرأة التي حملت الطفلة وهو ما يوفر لها تربية أفضل . وعلى حين اعترفت المحكمة بنسب الطفلة للزوج فإنها تجنبت الفصل في مسألة النسب من جهة الأم ، وربما رجع ذلك إلى عدم وضوح الأمر بشأنه إزاء تعدد روابط الوليد مع المرأتين (٢) ، ورأت المحكمة أن الأهم من ذلك - في ضوء المكون القيمي للبيئة التي حدثت فيها الواقعة - هو إلحاق الطفلة بالمرأة الأقدر من الأخرى على كفالة تربية أفضل لها ، فاستندت بذلك إلى اعتبارات مادية بحتة لا علاقة لها بالجنائب البيولوجية أو العاطفية الثابتة في القضية ، ولكن المحكمة أثبتت حق الحاضنة في رؤية الوليد أسبوعياً .

ثالثاً: آثار الاتفاق على الرحم المؤجر:

رأينا أن الاتفاق على الرحم المؤجر يصطدم بمبادئ أساسية في المجتمع ، مستمدة من عقيدته الدينية ، الأمر الذي يجعله مخالفاً للنظام العام والآداب وبالتالي باطلاً بطلاناً مطلقاً . ورغم حرمة مثل هذا الاتفاق وبطلانه إلا أن التساؤل قد ثار من ناحية عن أحكام تنفيذه إذا كان لا بد واقعاً ، ومن ناحية أخرى عن ماهية الضوابط التي يجب أن يحاط بها تنفيذه لتقليل الأضرار المترتبة عليه إلى حدها الأدنى . ويجب أن نبادر إلى القول : إن وضع ضوابط وأحكام لممارسة الرحم المؤجر لا يعنى على الإطلاق أنه جائز ومباح ، فما وضعه الفقهاء من هذه الضوابط والأحكام كان بمناسبة التعرض لتساؤل مفاده حكم هذا الأسلوب إذا وقع (٣) .

وقال الشيخ معوض عوض إبراهيم (٤) : الزوجة الأولى أخذنا منها بويضة أعطيناها لامرأة أخرى ، فنما الجنين في بطنها وولدت ، فمن الناحية الشرعية يكون الطفل المولود للوالدة وليس لصاحبة البويضة . وقال الشيخ بدر المتولى (٥) : إننى أقطع بأن الأم هي الأم الحاضنة والوالدة ؛ لأنه لا اجتهاد مع نص ، ولا يمكن إثبات نسبه إلى الأم صاحبة البويضة ولا إلى الأب صاحب المنى ، لأن الشريعة اعتبرت أن أية علاقة بين رجل وامرأة لا تستند إلى

(١) وهي القضية المعروفة تحت اسم (Baby M) . وكانت محكمة أول درجة قد حكمت بصحة العقد وقضت بحق الحضانة للأب الطبيعي وصرحت لزوجته بتبني الطفل ولكن المحكمة العليا لولاية نيوجيرسى عدلت هذا الحكم ورأت أن العقد يخالف القانون والنظام العام وأن الحكم في الإنجاب لا يتضمن بالضرورة حق الحضانة : راجعنا هذين الحكمين في 537 Atlantic Reporter. 2e series NJ, p 1227. وقد نشرت أجزاء من القضية في جريدة الأهرام في ١٥/٤/١٩٨٧ ص ٧ تحت عمود مجرد رأى للأستاذ صلاح منتصر وأيضاً بتاريخ ١٤/٢/١٩٨٨ ص ٧ في نفس الموضع . والحكم منشور باللغة الإنجليزية في :

537 Atlantic Reporter. 2e series NJ. p 1227.

- Y. Kasper. The statutory construction controlling the Baby M. decision. creighton law. review vol. 21 (3). 993 (1988).

- G. Annas. Baby M. Babies (and justice) for sale. Hasting Canter Report. June 1987 p.13.

(٢) وإن كان حكم المحكمة العليا قد اعتبر دور صاحبة الرحم لا يزيد عن كونه دوراً مساعداً لحصول الزوجين على وليد ، وقالت : إنه يكفي صاحبة الرحم أنها قد أشبعت رغبتها بمجرد حمل الوليد في رحمها .

(٣) أثار هذا التساؤل الأستاذ الدكتور حسان حنحو ، قضايا علمية تنتظر أحكامها الشرعية ، مجلة العربي العدد ٢٢ يناير ١٩٧٨ ص ١٦ وتصدى الشيخ الدكتور يوسف القرضاوى ، مجلة العربي العدد ٢٣٢ - مارس ١٩٧٨ ص ٤٤ لهذا التساؤل أورد في إجاباته ضوابط وأحكام الرحم المؤجر إذا وقع . ورغم أن ما قاله الشيخ القرضاوى في هذا الصدد ، كان في معرض الإجابة عن التساؤلات المعروضة بصيغة الأمر الذى وقع إلا أن الشيخ عبدالله بن زيد آل محمود انتقد بشدة موقف الشيخ القرضاوى بمقولة أنه قد يستنتج منه إباحة أسلوب الرحم المؤجر . والواقع أن الشيخ القرضاوى كان صريحاً في أن الفقه الإسلامى لا يرحب بهذا الأمر المبتدع ولا يطمئن إليه ولا يرضى عن نتائجه وثماره .

(٤) رئيس قسم الوعظ بوزارة الأوقاف بالكويت سابقاً ومن علماء الأزهر .

(٥) رئيس إدارة الفتوى بوزارة الأوقاف بالكويت وأستاذ بكلية الشريعة بالأزهر سابقاً .

وجه شرعى ، علاقة مهذرة ، والنسب الذى يقرره الشرع لابد أن يكون مبنياً على عقد صحيح ، وبناء على هذا يرفض الشرع نسبه إلى الأب صاحب المنى وإلى الأم صاحبة البويضة ، وإنما إلى الوالدة والحاضنة ويكون بلا أب . وحكمه حكم اللقطاء . وجاء فى الحديث النبوى الذى روته السيدة عائشة أن النبى ﷺ وسلم قال «الولد للفراش وللعاهر الحجر» ، والحجر أى الخيبة ؛ أى أن الولد ينسب إلى الرجل صاحب الفراش ، وللزانى الخيبة والحرمان ، فإذا كان هناك زوج للمرأة الحاضنة ، ينسب الولد له ، وقد يقال : كيف يثبت الشارع نسب ذلك الطفل إلى الرجل صاحب الفراش ، ومعلوم أنه نشأ من ماء رجل آخر؟ الجواب : الشارع يتشوف للنسب ، فقد أعطى للرجل صاحب الفراش الذى اعتدى على فراشه ، الحق أن يقبل نسب الطفل إليه أو ينفى ذلك النسب ويلاعن^(١) عليه وتنتهى المسألة ، وبذلك يكون الولد ابن أمه التى ولدت له ولا أب له ويكون حكمه حكم اللقطاء .

وخلاصة القول فى المرأة الحاضنة أن ماء الرجل الملقح وضع فى رحم محرم عليه . وروى الإمام أبو داود أن رسول الله ﷺ قال : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقى ماءه زرع غيره» . فإذا كانت المرأة الحاضنة متزوجة بزواج ، فإن زوجها يسقى هذا الحمل ماء ليس لزوجه . وعلى هذا فإن حالة المرأة الحاضنة لا تخرج أصلاً عن حالة شبيهة بالزنا فى المفهوم الإسلامى لأن الرجل صاحب المنى وضع خلاصة مائه فى رحم محرم عليه .

إلا أن بعض العلماء قال برأى آخر : إن هناك فرقاً بين هذه العملية والزنا :

أولاً : لا يوجد فيه اختلاط أنساب «كما هو الحال فى الزنا» .

ثانياً : مادة الأمشاج التى توضع فى رحم الأم الحاضنة غير المادة التى توضع فى الزنا ، مادة الزنا أن يقذف الرجل ماءه فى بطن تلك المرأة الغريبة باتصال جنسى ، وينتج عن ذلك حمل ، فالفرق بعيد بين ذلك والزنا . ولعلماء الوراثة والخلية رأى آخر مختلف يعتمد على حقائق علم الوراثة البحتة ، ويتجاهل الأحكام الشرعية تماماً ، فهم يقررون أن النسب الصحيح هو نسب الأم صاحبة البويضة ؛ لأن الطفل الوليد من الأم الحاضنة سيحمل الخصائص الوراثية من صاحبة البويضة وصاحب المنى ، ولا يحمل من الأم الحاضنة أى صفات وراثية . وقالوا إن قضية الأم الحاضنة قضية مستحدثة ، وقالوا إن النبى ﷺ قال : «يجمع أحدكم من بطن أمه» والآن يجمع هذا الشخص فى غير رحم أمه . يجمع فى طبق .

ونرد على ذلك نقول : إن الجمع لا يكون فى أسبوع فى طبق فى المعمل ولكن النبى ﷺ قال : « يجمع أحدكم فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم ينفخ فيه الروح ويأمر بأربع رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد » ، إذن فالجمع يستغرق الأربعة أشهر وليست الأيام الأولى فقط . فإذا التحم ببويضة فى طبق فليس معنى هذا أن جمع الجنين كله قد تم ، وهكذا فإن الذين قالوا إن النبى قال «يجمع أحدكم فى بطن أمه» يكون كمن قال : «لا تقربوا الصلاة» .

إن علماء الوراثة لا يعترفون إلا بالعوامل الوراثية للجنين ، والطفل الوليد الذى من أمشاج زوج وزوجة . ويحتكمون إلى تكوّن النطفة الأولى فى المعمل ، سواء ألقيت تلك النطفة فى رحم الزوجة نفسها أو فى رحم امرأة غريبة ، ويعتقدون أن الأب هو صاحب المنى الملقح ، وأن الأم هى صاحبة البويضة ويتجاهلون أى شىء آخر كعوامل الوراثة أو الأحكام الشرعية الإسلامية . ورأيهم هذا يطابق رأى المفكرين فى العالم الغربى الذين لا يرون أى غضاضة فى موضوع الأم الحاضنة أو الرحم الظئر ، فالأم فى نظرهم هى صاحبة البويضة والأب فى نظرهم هو

(١) الملاعنة بين الزوجين : إذا قذف الرجل امرأته أو رماها بالزنا فالقاضى يلاعن بينهما ، ويبدأ الرجل فيقول : أشهد أنها زنت بفلان ، وإنى صادق فيما أقول . فإذا قال ذلك أربع مرات وقال فى الخامسة فعليه لعنة الله إن كان من الكاذبين فيما رماها به . ثم تقوم المرأة فتقول أيضاً أربع مرات : أشهد بالله أنه لمن الكاذبين فيما رمانى به من الزنا . ثم تقول فى الخامسة : وعلى غضب الله إن كان من الصادقين . فإذا فرغت من ذلك بانته منه ولم تحل له أبداً . وإن كانت حاملاً فجاءت بولد فهو ولدها ولا يلحق بالزوج . لأن السنة نفتته عنه «الولد للفراش وللعاهر الحجر» . الشريعة تتشوف إلى إثبات النسب .

صاحب المنى . وكل من علماء الوراثة وعلماء الدين متمسك برأيه ، لذلك سيظل الخلاف فى رأى قائماً فى هذا الموضوع إلا أن الجميع فى العالم الإسلامى متفقون على أن هذه العملية حرام قطعاً .

وخلاصة القول: إن علماء الشريعة يؤمنون أن الحكم النهائى هو الحكم الشرعى ، وأن له الاعتبار الأول والأهم ، أما علماء الخلية والوراثة فهم يتمسكون بالرأى العلمى ويؤكدونه ويصرون عليه . أما رأى عندى* فهو أن الحكم الشرعى هو الحكم الفصل وهو الذى ارتضاه الخالق عز وجل الذى خلق كل نوااميس الكون ، يعلم كل شىء جملة وتفصيلاً ، أما علم العلماء فهو مهما بلغ علم ناقص فهو بجانب علم الله المطلق لا يزيد عن قطرة ماء من بحر محيط لا نهائى ، وسوف يأتى زمان فى المستقبل تتغير فيه نظرة العلماء وفكرهم إلى نظرة أخرى مختلفة ، وفكر آخر مختلف ، وقد علمنا من خلال دراستنا فى تاريخ العلوم أمثلة من ذلك لا تعد ولا تحصى ، ودائماً وأبداً لا يكون رأى العلمى صحيحاً إلا إذا وافق ما جاء به القرآن والسنة من حق .

٨ زواج الأقارب

أخرج ابن ماجه فى كتاب النكاح عن الحارث بن عمران الجعفرى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «تخيروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم» . وفى رواية البخارى عن السيدة عائشة مرفوعاً : «تخيروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء» . أخرجه أبو نعيم من حديث عمر .

وأخرج ابن ماجه عن محمد بن عجلان عن ابن وثيمة البصرى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض» . الحديث أخرجه الترمذى .

ولا نجد فى الحديث النبوى ما يدل على التحذير من زواج الأقارب . وروى الديلمى أن رسول الله ﷺ قال : «تخيروا لنطفكم وانظر فى أى نصاب تضع ولدك فإن العرق دساس» .

قضية زواج الأقارب

١- تاريخ الزواج الإنسانى بالنسبة لزواج الأقارب

كان زواج الأقارب محل اهتمام الشعوب منذ أقدم العصور . . وكان نظام القبيلة وتقاليدها هو الذى يحرم أو يحلل زواج الأقارب ، ودرجة القرابة فى الزواج ، فمثلاً قبائل الشوشون وهم من الهنود الحمر بأمريكا الشمالية ، يحرمون زواج بنت العم وبنت الخال منذ العصور القديمة لاعتقادهم أنهن فى حكم الأخوات الشقيقات وزواج الأخت محرم عندهم . . وفى العصر الفرعونى ، وفى قبائل ألانكا القديمة فى بيرو كان زواج الأخت بأخيها مرغوباً فيه وخصوصاً فى الأسر الملكية .

إلا أنه ظهر عبر العصور من كان يحرم زواج الأقارب المقربين وحتى الدرجة الرابعة من القرابة . . وفى كتاب «تاريخ الزواج الإنسانى» كتب وستر مارك أن الزواج بالأقارب يسبب ظهور أمراض وراثية بالذرية . . إلا أن العالم مالىنوفسكى قال إن الزواج بالأقارب شىء سيئ جداً ، لأنه فضلاً عن ظهور الأمراض الوراثية بالذرية فإنه يدمر علاقات الحب العائلى البعيدة عن الجنس . . ووافقه فى ذلك الفيلسوف الإنجليزى لورد بولنج يروك ، الذى قال إن

* رأى المؤلف .

زواج الأقارب المقربين من شأنه تدمير الود بين أفراد الأسرة بإدخال الغريزة الجنسية فيه . . وذلك سيؤدي حتماً إلى إضعاف احترام الأبناء للآباء . . وهكذا اختلفت معتقدات الشعوب في موضوع زواج الأقارب : البعض يحلله على الإطلاق حتى زواج الأخ بأخته . . والبعض الآخر يحرمه تحريماً قطعياً حتى الدرجة الرابعة ، أى يحرم حتى زواج بنات العم والعمة ، وبنات الخال والخالة ، إلا أن الإسلام حرم زواج الرجل من قريبات الدرجات الأولى والثانية والثالثة . . نقرأ عن ذلك في سورة النساء : (٢٣) : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ . حددت الآية الكريمة القريبات اللاتي يحرم الزواج بهن . . ولقد وجدنا أن ذلك يتفق مع ما توصل إليه علم الوراثة في عصر العلم الحالي . .

وفي عصرنا الحاضر تختلف نسبة زواج الأقارب في مجتمع ما عنها في مجتمع آخر .
فهي $\frac{1}{3}$ في الألف في المدن الأمريكية و ٧٠٪ في المناطق الريفية في صعيد مصر . . أما في حضر مصر فهي نحو ٣٤٪ وتتعدى نسبة زواج الأقارب في دول الخليج العربي ٥٠٪ أما في المدن الكبرى في أوروبا فلا تتعدى نسبة زواج الأقارب ١٪ .

٢. الأسباب التي اعتمد عليها المعارضون لزواج الأقارب

في نواة كل خلية تسكن كل عوامل الوراثة . . والعوامل الوراثية هي المسئولة عن ظهور الصفات الوراثية في الجسم . . وتختلف العوامل الوراثية في القوة والفاعلية ، فبعض عوامل الوراثة سائد وبعضها الآخر متنح .
والعوامل الوراثية السائدة هي تلك العوامل أو المورثات التي لها القدرة -وهي منفردة- على الظهور بمعنى أن عاملاً وراثياً سائداً واحداً إذا انتقل إلى أحد الأبناء ، تظهر عليه الصفة الوراثية التي يحملها ذلك العامل الوراثي السائد ، مثل صفة اللون الأسود للجلد تحملها مورثات سائدة ، فإذا انتقل العامل الوراثي السائد للون الأسود سواء من الأب أو من الأم فستكون الذرية ذات جلد أسود اللون ، إذاً العامل الوراثي السائد يعبر عن نفسه منفرداً . .
أما العوامل الوراثية المتنحية : فهي تلك العوامل الوراثية أو المورثات التي ليست لها القدرة على الظهور إلا إذا اجتمعت مع صفة متنحية أخرى . . إذاً العامل الوراثي المتنحي لا يعبر عن نفسه منفرداً . . ولا بد أن يكون زوجاً من العوامل الوراثية المتنحية لتظهر الصفة الوراثية . . وبعض العوامل الوراثية المتنحية تحمل صفات صحية حسنة وبعضها الآخر يحمل صفات مرضية . . ويقول كثير من العلماء إن الصفات الوراثية المتنحية تتجمع في الأقارب . . فإذا استمر زواج الأقارب جيلاً بعد جيل فإن الصفات المتنحية من كلا الأبوين تتجمع في الأبناء والأحفاد ، وينتج عن ذلك أمراض وراثية في الذرية . . وتدل الإحصائيات الصحية أن أولاد العمة والعم وأولاد الخال والخالة ، يحملون نفس العامل الوراثي المتنحي بنسبة ١ : ٨ وهذه النسبة تقل في غير الأقرباء . . وتزداد أكثر وأكثر في الأقرباء من الدرجات الأقرب أى أقرباء الدرجات الثلاثة الأولى . .

٣. الأدلة على أن زواج الأقارب ليس هو المسئول وحده عن الأمراض الوراثية في الذرية

دلت الدراسات الصحية أن زواج الأقارب ليس وحده المسئول عن الأمراض الوراثية في الذرية ، وهناك أدلة كثيرة على ذلك :

أ - إن ظهور الأمراض الوراثية فى الذرية - بسبب انتقال الصفات الوراثية المرضية المتنحية من كلا الأبوين - ليس فى زواج الأقارب فقط . . ولكنها تعتمد أساساً على مدى انتشار العامل الوراثى المرضى المتنحى بين أفراد الأسرة من ناحية ، وأفراد المجتمع من ناحية أخرى . فإذا كانت تلك العوامل منتشرة فى أفراد الأسرة أعلى من انتشارها فى أفراد المجتمع يكون الزواج من الأبعد أفضل ، وإذا كانت تلك العوامل منتشرة فى أفراد المجتمع ، أكثر من انتشارها بين أفراد الأسرة ، فإن زواج الأقارب يكون أفضل .

نأخذ مثلاً على ذلك مرض الأنيميا المنجلية يزداد انتشاره فى ذرية زواج الأقارب ، إذا كانت العوامل المرضية المتنحية منتشرة بين أفراد العائلة أكثر من انتشارها فى المجتمع . . أما إذا كانت العوامل المرضية المتنحية لمرضى الأنيميا المنجلية منتشرة فى المجتمع أكثر من انتشارها بين أفراد العائلة ، فإن زواج الأقارب يكون أفضل . . وفى بعض مناطق إيطاليا ينتشر العامل الوراثى المرضى المتنحى لمرض الأنيميا المنجلية بنسبة ١٠٪ . . وفى بعض مناطق نيجيريا يصل إلى ٤٠٪ . . فلو فرضنا أن أسرة أو قبيلة هناك كانت نقية وراثياً من تلك العوامل الوراثية المرضية ، فإن زواج الأقارب يكون أفضل وأكثر ضماناً من زواج الأبعد . . وقس على ذلك فى كثير من الأمراض الوراثية التى تنتقل بواسطة العوامل الوراثية المرضية المتنحية . .

ب - فى بعض الأحوال تكون فى الأسرة صفات وراثية مرغوبة ، مثل صفات الجمال أو الذكاء أو القوة أو طول العمر . . حينئذ يكون زواج الأقارب أفضل من زواج الأبعد لضمان ظهور تلك الصفات المرغوبة فى الذرية . . ولقد كانت كليوبترا التى كانت تتصف بالطول والجمال والذكاء نتيجة زواج اثنى عشر جيلاً متتابعاً من زواج الأقارب الأقربين . . وفى عصرنا هذا تعيش بعض القبائل على جبال كنتكى بأمريكا وزواج الأقارب المقربين شائع بينهم ، ومع ذلك ظهرت أجيال تتميز بصفات بدنية وعقلية ممتازة .

والعكس صحيح أيضاً إذا كان بالأسرة عوامل وراثية مرضية ، فزواج الأبعد يكون أفضل من زواج الأقارب . إذاً تتساوى الاحتمالات فى زواج الأقارب وزواج الأبعد حتى فى هذه الحالات . . .

ج - الأمراض التى تنتقل بالعوامل المتنحية لا تشكل إلا نسبة صغيرة من الأمراض الوراثية ، أما غالبية الأمراض الوراثية ، فلا دخل لزواج الأقارب أو الأبعد بها . . مثل الأمراض الوراثية التى تنتقل بعامل وراثى مرضى سائد واحد من الأب أو من الأم ، مثل مرض التعظم الغضروفى Achondro plasia ومرض التصلب الدرني Epilaia ومرض الداء البوليبى المعوى Polyposis ومرض مارفان . . وغير ذلك من الأمراض الوراثية . .

د - هناك أمراض يولد الطفل بها ليس لها علاقة بزواج الأقارب أو الأبعد بصفة مطلقة . . مثل الأمراض الناتجة من اختلاف عامل يسوس بين الزوجين . . وأمراض ناتجة عن تكسر الصبغيات أو قلة عددها أو زيادتها . . ومن الأمراض التى يولد الطفل بها بسبب خلل كروموسومى . يعنى خللاً بالصبغيات مثل ما يسمى بالطفل المنغولى . وقد ثبت إحصائياً أن طفلاً واحداً من بين مائتى طفل يولد حياً به خلل كروموسومى . . ومن الأمراض الناتجة من قلة أو زيادة عدد الصبغيات الحاملة للعوامل الوراثية مرض Tuner والمولود يكون أنثى لا تنضج جنسياً . بالإضافة إلى صفات غير طبيعية كثيرة فى الجسم ، ومرض كلا ينفلتر ، والمولود يكون ذكراً ولا ينضج جنسياً ويكون متخلفاً عقلياً . وأمراض أخرى كثيرة . .

إذاً فزواج الأقارب ليس سبباً على الإطلاق فى الغالبية العظمى من الأمراض الوراثية .

٤. زواج الأقارب مفيد على المدى البعيد

إننا إذا نظرنا إلى زواج الأقارب من الناحية الوراثية البحتة لوجدناه يلعب دور مفتش المباحث فى الكشف عن الجريمة . . فزواج الأقارب يجمع فى الأقارب الجينات المرضية المتنحية فى أفراد الأسرة

وإظهارها فى الجيل الذى يأتى من بعدهم . . إذا فزواج الأقارب ليس السبب فى حدوث هذه الأمراض ولكنه السبيل إلى ظهورها .

ولا يجب أن ننسى أن زواج الأقارب يفعل ذلك فى الأمراض الوراثية التى تنقلها الجينات المرضية المتنحية فقط ، أما الأمراض الوراثية التى تنقلها الجينات المرضية السائدة - وما أكثرها - فإن زواج الأقارب لا يلعب فيها دوراً مطلقاً . .

والفرق بين الجينات المتنحية والجينات السائدة هو أن فى الأولى لا تظهر الصفة الوراثية إلا إذا تجمعت الجينات المتنحية أزواجاً - يعنى من الأبوين معاً - أما فى الثانية فإن الصفة الوراثية تظهر بسبب وجود جين سائد واحد فقط من الأم أو من الأب . .

وجدير بالذكر أن كل إنسان فى العالم يحمل فى المتوسط من ٥ إلى ٨ جينات مرضية متنحية قاتلة ، إذا وجدت متزاوجة فى جنين أدت إلى وفاة الجنين . . وهذا الجينات تتجمع فى الأقارب أكثر من الأبعد . . فإذا كان زواج الأقارب شائعاً فى مجتمع ما من قديم الزمان ، فإنه يكون قد أدى منذ زمن بعيد إلى إحداث الأمراض الوراثية الناتجة من الجينات المتنحية القاتلة فى الذرية . . وبذلك يكون قد خلّص المجتمع فعلاً من مورثات متنحية قاتلة ، ونقى المجتمع من ذلك منذ زمن بعيد . . أما إذا كان زواج الأقارب نادراً فى مجتمع ما ، فإن ذلك سيؤدى إلى بقاء كثير من أفراد ذلك المجتمع وهم يحملون مورثات مرضية متنحية قاتلة أو مورثات متنحية لمرض معين . . ومن ثم استمرار ارتفاع نسبة ظهور تلك الأمراض الوراثية فى ذلك المجتمع والأمر نفسه بالنسبة للجينات القاتلة أنها ستظل منتشرة فى المجتمع ، فلم يتخلص المجتمع منها . .

وبما سبق نصل إلى نتيجة مهمة : وهو أن منع زواج الأقارب أو إباحته لن يمنع ظهور الأمراض التى تتحكم فيها الجينات المتنحية . . وسواء شاع زواج الأقارب فى المجتمع وقل زواج الأبعد ، أو شاع فيه زواج الأبعد وقل فيه زواج الأقارب ، واستمر الحال هكذا زمناً طويلاً ، فإنه يبقى جيل يضحى من أجل جيل آخر .

فإذا حرّمنا زواج الأقارب زمناً طويلاً ، فالأجيال الأولى ستقل فيها تلك النوعية التى أشرنا إليها من الأمراض الوراثية فى الذرية ، وستكون الأجيال القادمة هى التى ستعانى من زيادة نسبة تلك الأمراض وشيوعها فيها . . وإذا أبحنا زواج الأقارب زمناً طويلاً فإن الأجيال الأولى هى التى ستعانى من تلك الأمراض وتضحى من أجل صحة ونقاء الأجيال القادمة منها . . من هنا نفهم أن الإسلام إذ أباح زواج الأقارب إباحة متحفظة ، أى فى الأقارب من الدرجة الرابعة فما فوقها ، ومشروطة أيضاً بالاختيار ، فإن الإسلام يكون قد حقق التوازن الطبيعى والتوازن الحياتى فى الأجيال جميعاً .

٥. القول الفصل فى قضية زواج الأقارب

ولا يوجد حديث نبوى يحذر من زواج الأقارب . وإن القول (اغتربوا لا تضووا) ليس حديثاً نبوياً ، ولكنه قول أحد الصحابة وقد يكون عمر بن الخطاب رضي الله عنه ربما قاله لعائلة يجرى فيها بعض الأمراض الوراثية . . لا ندرى . . أما الأحاديث النبوية الصحيحة فقد أمرت بالاختيار قبل الزواج . . والاختيار قد يكون فى أمور كثيرة ومختلفة ، مثل الاختيار للصفات الخلقية أو الدينية أو الخلقية أو غير ذلك . . فقد روى البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها وجمالها ودينها فاظفر بذات الدين تربت يداك» . . إذا فالإنسان عندما يختار شريكة حياته فإنه يختار فيها صفات وأموراً . . والرسول أمر بالتخير ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض» فالتخير هنا فى الخلق والدين .

وفى الأحاديث التى قالها النبى ﷺ فى شأن الزواج أمر بالتخير الوراثى وأشار إلى ذلك إشارة واضحة فقال :

«تخيروا لنطفكم» فالتخير هو فى مجال خلق النطفة . . ومن المعلوم أن خلق النطفة يكون نتيجة لالتقاء أمشاج الذكر والأنثى . . وتلك الأمشاج تحمل العوامل الوراثية السائدة والمتنحية . . فالتخير للنطفة هو أن يتحرى الإنسان أن يكون الشريك الآخر خاليًا من العيوب الخلقية والأمراض الوراثية على قدر طاقة التخير فى الإنسان - والله يخلق ما يشاء ويختار - قال ﷺ : «تخيروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم» . . وفى عصرنا الحاضر يكون التخير الوراثى ليس بوساطة الفراسة والملاحظة فحسب ولكن بطرق علمية أكثر دقة ويقينًا ، مثل ما يحدث فى الاستشارة الوراثية قبل الزواج فى المراكز الطبية المتخصصة لذلك ، إذا كانت الحاجة تدعو إلى ذلك ضمانيًا لحسن الاختيار ، وذلك بناء على الرغبة الشخصية ولا إلزام فيه ولا إجبار . . وهذا ما يحدث فى معظم الدول المتقدمة . . والتحرى والتخير الوراثى ذكر فى حديث نبوى آخر رواه الديلمى قال رسول الله ﷺ : «تخيروا لنطفكم وانظر فى أى نصاب تضع ولدك فإن العرق دساس» ومعنى الحديث قد اتضح فى عصر العلم الحالى بتقدم علم الوراثة وظهور علماء الاستشارة الوراثية . .

ولاشك أن زواج الأقارب مرغوب فيه فى معظم الأحوال . . ولو لم يكن كذلك ما تزوج النبى ﷺ من السيدة زينب بنت جحش بن رثاب وهى بنت عمه الرسول أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم ، فأما عمه شقيقة لسيدنا رسول الله . . والرسول لا يتزوج إلا بوحي ، وأكبر دليل على أن الزواج من أفراد الدرجة الرابعة من القرابة فأبعد ، أمر لا ضرر فيه هو ما جاء فى سورة الأحزاب (٥٠) فى قول الله عزوجل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمِكَ وَبَنَاتِ عِمَاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ . .

٦. ليست كل الأمراض التى يولد بها الطفل أمراضًا وراثية

يولد كثير من الأطفال بتشوهات خلقية . . بعضها غير وراثى وبعضها الآخر وراثى . بعض الأطفال يولدون بتشوه فى إحدى الذراعين مثلاً . . وهذا لا يكون وراثيًا وإنما هو بسبب خلل أثناء تكوين هذه الذراع أثناء فترة الحمل . . كما تحدث تشوهات خلقية بالأجنة بسبب تعرض الأم أثناء الحمل للحصبة الألمانية مثلاً أو لشرب الكحول أو غيره من الخمر والمخدرات . . أما التشوه الوراثى فهو بسبب تغير فى أحد العوامل الوراثية التى من وظيفتها تكوين الذراعين مثلاً فيولد الطفل بتشوه فى الذراعين معًا وليس فى ذراع واحدة . .

خلاصة:

مما سبق ندرك أن أفراد العائلة لو كانوا أنقياء وراثيًا . . وهذا هو الغالب فى العائلات ، فلا ضرر من زواج الأقارب وحتى لأجيال عديدة . . أما إذا كان هناك مرض وراثى فى أحد أجيال الأسرة وكان أفراد المجتمع من حولهم أنقياء وراثيًا ، فإن الزواج من الأبعد يكون أفضل . . والعكس إذا كان هناك مرض وراثى شائع فى مجتمع ما . . وكان أفراد العائلة أنقياء منه وراثيًا فالزواج من الأقارب أفضل . .

ويجب ألا ننسى أن معظم الأمراض الوراثية لا علاقة لها بزواج الأقارب أو الأبعد ، فلا بد إذا من الاستشارة الوراثية لكل زوجين قبل الزواج للوقاية من تلك الأمراض الوراثية فى الذرية . . وهذا ما توصل إليه علماء الوراثة حديثًا وبذلك يكونون قد توصلوا إلى ما أخبرنا به الحديث النبوى الشريف من قبل «تخيروا لنطفكم» . .

٩ ولادة السيدة مريم عليها السلام

أخرج البخارى فى كتاب أحاديث الأنبياء عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما من بنى آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد ، فيستهل صارخاً من مس الشيطان ، غير مريم وابنها» ثم قرأ أبو هريرة ﴿وَأَنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (آل عمران : ٣٦) .
وأخرج البخارى عن عبدالله بن جعفر قال سمعت علياً رضي الله عنه يقول : سمعت النبى ﷺ يقول : «خير نسائها مريم ابنة عمران وخير نسائها خديجة» .

واستدل بعض التابعين بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ على أن مريم كانت نبيه . . وقالوا إن الله ذكرها مع الأنبياء ولا يمنع وصفها بأنها صديقة . . فقد وصف النبى يوسف بذلك . . وقال القرطبى : الصحيح أن مريم نبيه ونقل عن الحسن قوله : ليس فى النساء نبيه . وقوله ﷺ «خير نسائها مريم» أى نساء أهل الدنيا فى زمنها . . وقد رواه النسائى من حديث ابن عباس بلفظ «أفضل نساء أهل الجنة» فعلى هذا المعنى خير نساء أهل الجنة مريم . وفى رواية «خير نساء العالمين» وهو كقوله تعالى : ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ . وقوله ﷺ : «وخير نسائها خديجة» أى نساء هذه الأمة . . وقال القاضى أبو بكر بن العبرى : خديجة أفضل نساء الأمة مطلقاً لهذا الحديث . .

وأخرج النسائى بإسناد صحيح عن ابن عباس : «أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة ومريم وآسية» وأخرج البخارى عن جنادة بن أبى أمية عن عبادة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» . (كلمته التى ألقاها إلى مريم) قوله كن فيكون . . وقال النووى : هذا حديث عظيم الوقع وهو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد . . «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» أى أدخله الله الجنة على حسب أعمال كل منهم فى الدرجات . .
وأخرج البخارى عن هلال بن على عن عبد الرحمن بن أبى عمرة عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد» .

إخوة لعلات : أى غير أشقاء .

وأخرج مسلم عن جنادة بن أبى أمية عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : «من قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق وأن النار حق ، أدخله الله من أى أبواب الجنة الثمانية شاء» .

ذكرت السيدة مريم عليها السلام فى القرآن الكريم فى إحدى عشرة آية . . وهى ابنة عمران ، وكان من علماء بنى إسرائيل ، وعظيماً من عظمائهم ، وصاحب صلاتهم فى زمانه . . وكانت زوجته (حنة) وكانت من العابدات الطاهرات . . وكانت عاقراً فتضرعت إلى الله تعالى أن يهبها ولداً ليكون خادماً للمعبد ، فاستجاب الله تعالى وحملت فى ابنتها مريم . فنذرت الجنين الذى فى بطنها محرراً لخدمة الهيكل . . ولما ولدت مريم وعلمت أنها أنثى ، حزنت فقد كانت تتمنى أن يكون المولود ذكراً . . فتوجهت إلى ربها تعبر عن أسفها ، فيردها الله تعالى إلى الحق . قال تعالى فى سورة آل عمران (٣٥ ، ٣٦) : ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا

فَتَقَبَّلَ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِنَّ الذَّكَرَ كَأْلَاُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمِيتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّا .

شكرت أمها عطاء الله تعالى لها ، ودعته أن يحصنها وذريتها من غواية الشيطان الرجيم ، فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنشأها على الصلاح والتقوى والعفة والطهر . . . وكان ذلك مقدمة لا بد منها لأمر عظيم ينتظرها في المستقبل ، وهو اصطفاء الله تعالى لها على نساء العالمين ، وتكون أمًا لمولود لا أب له وهو سيدنا المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام .

ومات عمران والد السيدة مريم وهي طفلة صغيرة ، فكفلها زوج خالتها النبي زكريا عليه السلام ، الذي اتخذ لها محرابًا في المسجد لا يدخل أحدٌ عليها سواه ، وأجرى الله تعالى على يدي مريم الكثير من المعجزات كان النبي زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقًا لا وجود لمثله بين الناس في ذلك الوقت من السنة فيسألها . وفي ذلك يقول الله عز وجل في سورة آل عمران (٣٧) : ﴿ كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

لقد كانت مريم عليها السلام متصلةً بالله تعالى . . . ولما بلغت السيدة مريم مبلغ النساء كانت تجتهد في العبادة ، فلم يكن لها نظير في الاجتهاد في العبادة . . . حتى إن الملائكة كانت تنزل عليها تبشرها باصطفاء الله تعالى لها على نساء العالمين ، وتبشرها بأن الله تعالى طهرها وشرفها وحفظها من كل ما لا يليق بها ، وتحثها على المثابرة على العبادة والقنوت لله تبارك وتعالى .

وهكذا نشأت سيدتنا مريم عليها السلام على الطهر ، والسمو ، والفضيلة ، والشرف ، محروسةً بعناية الله تعالى نقرأ عن ذلك في سورة آل عمران (٤٢) : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ .

كما بشرتها الملائكة بأن الله تعالى سيهبُ لها غلامًا بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، وسيكون خلقه والحملُ به وولادته على غير مثال سابق ، وسيكون له مكانة عالية ، وجاه وشرف في الدنيا ، وعلو في الآخرة وتعجبت مريم أنى يكون لها ولد وهي العذراء التي لم تتزوج ، وسألت الملائكة ، فأخبرتها الملائكة بالجواب . . . وفي ذلك يقول الله عز وجل في سورة آل عمران (٤٥ - ٤٧) .

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

وماذا حدث في حمل السيدة مريم العذراء؟

إنه أعجبُ حمل لأعجب ولادة لمولود عظيم قال تعالى في سورة مريم (١٦ - ٢٢) .

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ .

إنها الفتاة الصغيرة العذراء الطاهرة ، تخلو إلى نفسها وهي لا تتوقع أي مفاجأة لها ، وإذا بها تفاجأ مفاجأة عنيفة ملأت قلبها الطاهر خوفًا ، لقد رأت أمامها - وهي وحدها في ذلك المكان - رجلاً قويًا كامل البنية ، فحسبته

بشراً كما قال الله تعالى ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (رُوحَنَا) أى الروح الأمين ، روح القدس وهو سيدنا جبريل عليه السلام ، وهذا يختلف عن معنى (رُوحَنَا) فى قوله تعالى فى سورة التحريم ، ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ . (روحنا) هى روح من أمر الله التى ينفخها الملك فى الجنين فى رحم أمه بعد أربعة أشهر رحمية فيصير بذلك بشراً . أما فى خلق سيدنا المسيح فنفخ الملك الروح على الفور . وهذه معجزة أخرى من المعجزات التى أجراها الله تعالى على المسيح عليه السلام .

لما أرسل الله تعالى سيدنا جبريل للسيدة مريم انتابها الفزعُ ولجأت إلى ربها تستعيذ به ، وتستنجد بالتقوى فى الرجل ، وهى لا تدرى أنه أشرفُ الملائكة عند الله قدراً . قال الله تعالى يحكى عن ذلك (مريم : ١٩) : ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ . قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا .. ولنا أن نتخيل مقدارُ الفزع الذى أصاب السيدة مريم عليها السلام ، وهى فى ذلك الموقف العصيب الذى زلزل حياتها ، وهى الفتاة الرقيقة الطاهرة العفيفة الشريفة ، وكأنها لم تصدق مقالة سيدنا جبريل أنه رسولٌ من الله لها ليهب لها غلاماً زكياً . فتسأله كيف تحمل بغلام دون أن يمسيها بشرٌ ؟

فيجيبها جبريلُ عليه السلام كما قال الله تعالى : ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ .

فالروح الأمين يخبرها بأن هذا أمر هين على الله تعالى ، وأنه تعالى أراد أن يجعل الغلام آية للناس ورحمة من الله لهم ، رحمة لبنى إسرائيل خاصة ، وللبشر عامة . إنه الرحمة وإنه السلام ، أرسله الله تعالى على غير مثال سابق فى الحمل والولادة والنشأة ، ليكون معجزة فى خلقه ، تدعو الناس جميعاً إلى تصديقه واتباعه .. وانتهى الحوار .. وانتهى الموقف .. وكان أمراً مقضياً ..

قد يتساءل البعض عن التفسير العلمى لحمل السيدة مريم عليها السلام دون أن يمسيها بشر . الجواب : كان حملُ السيدة مريم دون أن يمسيها بشر بأمر الله عز وجل ، معجزةٌ وليس إعجازاً فى الخلق .. والفرق بين الإعجاز والمعجزة كبير . فالمعجزة تخرق كل قوانين الخلق . وقوانين الفطرة ونواميس الوجود .. لأنها أمر من الله ، أما قوانين الخلق ونواميس الوجود ، فهى مخلوقة ، ولا يخضع أمرُ الله لقوانين خلقه .. والمعجزة شىء يعجز الناس عن أن يأتوا بمثله ، ولا دخل فيها لإرادة الذى تُجرى عليه المعجزة . فهى خالصة لله تعالى .. لا دخل فيها لأحد سواه . أما الإعجاز العلمى فهو أن يكتشف العلماء إحدى الحقائق الكونية فى عصرنا هذا ، لم يكن أحد يعلمها من قبل ، وإذا بهم يجدونها مذكورة فى القرآن الكريم أو الحديث النبوى الشريف . بما يدل على أن الذى خلق هذه الحقيقة الكونية هو منزلُ هذا القرآن على عبده ورسوله محمد ﷺ .

وللنخلة فسيلة إذا انتزعت من النخلة الأم . وزرعت فى الأرض ، نمت وصارت نخلة لها أم وليس لها أب . ولعل ولادة السيدة مريم إلى جذع النخلة إشارة إلى تشابههما فى التناسل . فكما تنبت النخلة من فسيلة بدون أب ، فكذلك ولدت السيدة مريم ابنها عيسى بدون أب أيضاً .

هل كان حمل السيدة مريم طبيعياً كما تحمل النساء ؟

لم يكن حمل السيدة مريم عليها السلام بطفلها حملاً طبيعياً ، ولم تكن فترة الحمل طبيعياً أيضاً .. فقد خرجت من بيت أهلها عذراء . وكانت لا تحيض كما قال أحد السلف الصالح ، فقد طهرها الله تعالى من الحيض .. وهذا رأى معقول ، فإن الحمل بسيدنا المسيح كان معجزة ، والمعجزة لا تتم إلا بغيب الأسباب .. ولو تحققت المعجزة بواسطة أسباب لما كانت معجزة .. لقد خرجت السيدة مريم عليها السلام من بيت أهلها ، وقيل أنها كانت ابنة خمسة عشر عاماً خرجت عذراء ، وعادت فى نفس اليوم تحمل طفلها على كتفها . كما قال كثير

من السلف الصالح رضوان الله عليهم .

كم كانت مدة الحمل؟

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : (ما هو إلا أن حملت به فوضعت) وهذا تفسير معقول لأن الله تعالى يقول : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مِّنْهَا * فَأَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي ﴾ نجد ثلاثة أفعال للحمل والولادة (فحملته ، فانتبذت ، فأجاءها ،

فنادها من تحتها) وكل فعل منها مسبوق بفاء العطف الذى تدل على الترتيب مع التعقيب فى الزمن .
إذاً فحمل السيدة مريم بسيدنا المسيح عليه السلام كان معجزة من المعجزات ، والمعجزة تكون بين الكاف والنون ، فى كلمة الله (كن) ، ولا تكون متعلقة بأى سبب آخر من الأسباب ، ولا تخضع لزمن .

وهل كانت الولادة مختلفة أيضاً عن ولادة غيرها من النساء؟

الإجابة : بعد خلق سيدنا عيسى بغير أب بأمر الله عز وجل الذى قال : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ انتهت المعجزة . . معجزة الخلق ، وجاءت عملية الولادة - وكانت ولادة طبيعية كآى سيدة تلد طفلها إلا أنها ولادة أحاطت بها ملايسات عجيبة . فعندما جاء المخاض السيدة مريم عليها السلام ، شعرت بالولادة الوشيكة فاستندت إلى جذع نخلة ، وهى منهوكة القوى ، وفى حيرة بالغة وألم نفسى كبير قال الله عز وجل فى سورة مريم (٢٣) : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مِّنْهَا * فَأَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهَزَيْ إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ فى الآية الكريمة عشرة أوجه من الإعجاز العلمى ؛ إن حمل السيدة مريم بسيدنا المسيح عليهما السلام ، أعجب حمل ، وأعقبه أعجب ولادة لأعجب وأكرم مولود .

ولماذا ذكر جذع النخلة فى قصة ولادة السيدة العذراء ولم يذكر جدار أو سرير؟

لأن جذع النخلة كان أداة معجزة أخرى ، أجراها الله عز وجل لمريم عليها السلام ، لقد كان جذعاً يابساً من النخل . . وقفت السيدة مريم بجانبه ساعة ولادتها . . ولقد ضرب الله تعالى بالنخلة مثلاً للكلمة الطيبة كما قال تعالى فى سورة إبراهيم (٢٤) : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ ، فكان وقوف السيدة مريم عليها السلام بجانب النخلة فى موقفها هذا ، رمز لوقوفها بجانب الكلمة الطيبة ، وبجانب الحق .
وقال ابن عباس والسدى : كان جذعاً يابساً من النخل ميتاً ، فقال الله تعالى لمريم هزيه فهزته ، فإذا هو بأمر الله نخلة نضرة مثمرة ، فتساقط الرطب منها بين يدي مريم عليها السلام .

وقال محمد بن سهل بن عساكر : كان ذلك فى فصل الشتاء ، وهو فصل لا يثمر فيه نخل . . وقول ابن عساكر قول صحيح لأن مولد سيدنا المسيح كان فى فصل الشتاء . . وهذه معجزة أخرى لا يقدر عليها إلا الله عز وجل . ولعل هذا يكون متجانساً مع ما حدث لمريم عليها السلام ، فقد حملت بطفل دون أن يمسه بشراً ، وكان الحمل فى لمح البصر ، وكذلك حملت النخلة بالثمر ، دون أن تلقح بذكر النخيل ، وفى لمح البصر أيضاً ، إذاً هناك توافق وتجانس بين الحداث . . وحقيقة المعجزة فى الآية الكريمة ، أن الله تعالى أمر السيدة مريم عليها السلام بأن تهز جذع النخلة . . وذلك يحتاج إلى قوة عدد من الرجال الأشداء ، بينما هى فى حالة المخاض والضعف البين ، فوق ما بها من ضعف طبيعى فى المرأة ، فإذا بها تضع يدها على جذع النخلة . . وإذا بالنخلة تهتز تحت يديها وكأنها عدد من القش . . وفى هذا الحادث المعجز الدليل على أن الله تعالى يجرى أمره فى خلقه بغير أسباب . . لأن الأسباب مخلوقة ، ولا تخضع إرادة الخالق لقوانين خلقه . . فوجب أن يكون أمر الله فوق الأسباب . .

وماذا عن الآلام النفسية التى عانت منها السيدة مريم عليها السلام ؟
 فى ذلك الموقف العصيب عانت من آثار المخاض والولادة . . وعانت من آلام نفسية عنيفة هزت قلبها الطاهر هزاً ،
 فإن ولادتها بملود من غير أب ، أمر لن يصدق أهله ، ولن يصدق الناس جميعاً أيضاً ، وسيرمونها بأقسى اتهام تتهم
 به امرأة . . كما أنها عانت حينئذ من الحيرة والاضطراب النفسى ، والخوف والافتقار إلى الملجأ والمعين من الناس .
 وكل هذه المشاعر مجتمعة أدت إلى حالة من الإحباط النفسى أصابت السيدة مريم . ونحن نعلم فى الطب
 النفسى فى عصرنا هذا ، أن حالة الإحباط النفسى تدفع صاحبها إلى محاولة التخلص من الحياة ، وتمنى الموت ،
 وهذا ما عبرت عنها الآية الكريمة أدق تعبير فى قول الله عز وجل : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا
 لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِياً مَنْسِياً ﴾ . . وفى الآية إعجاز علمى عجيب ، فإن العلماء قبل عصر العلم الحالى لم
 يتوصلوا إلى أن الإحباط النفسى - أو الاكتئاب النفسى كما يسمى أحياناً - يدفع المصاب به إلى تمنى الموت وما
 عرف ذلك إلا بعد عصر فرويد فى القرن التاسع عشر .

ما الأشياء التى كانت السيدة مريم فى حاجة ملحة لها فى ذلك الموقف العصيب؟
 أولاً : كانت فى حاجة إلى علاج نفسى سريع يشفيها من الإحباط النفسى .
 ثانياً : كانت فى حاجة إلى من يرعاها أثناء الوضع وبعده ويعالجها من النزيف إذا حدث . .
 ثالثاً : كانت فى حاجة إلى ماء وغذاء مناسب للمرأة فى حالة الوضع وبعده ، وقد وفر الله تعالى لها كل ما
 كانت فى حاجة إليه .
 وكيف كان ذلك؟

أما عن العلاج النفسى فقد منحها الله تعالى إياه على الفور ، فأول ما أمرت به ، هو ترك سبب الإحباط
 النفسى الذى أصيبت به وهو الحزن الشديد . قال تعالى : ﴿ فَادَّأَهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ
 سَرِيًّا ﴾ وكان هذا على الأرجح هو نداء سيدنا المسيح وعمره دقائق ، أنطقه ربه عز وجل بالشفاء لأمه : « لا تحزنى
 يا أمى » لم يقل لها : لا تضطربى أو لا تقلقى ، أو تشجعى . . فهذا كله ليس سبباً فى حالة الإحباط أو الاكتئاب
 النفسى الذى تمت بسببه الموت ، وإنما كان الحزن الشديد ﴿ فَادَّأَهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي ﴾ .
 ولا شك أن السيدة مريم عليها السلام ، دهشت دهشة هائلة وهى تسمع طفلها الوليد يناديها من تحتها .
 ويطمئنها ويذكرها بربها ويرشدها إلى شفاها ، فكان أول عمل لسيدنا المسيح عليه السلام فى الدنيا هو إعطاء أمه
 العلاج الشافى لها . .

ولماذا لم يقل لها : لا تخافى وقد شعرت بالخوف الشديد؟
 هناك فرق بين الخوف والحزن ، فالإنسان يخاف من شىء مؤلم يتوقع حدوثه مستقبلاً ، والخوف يحدث قلقاً
 نفسياً ولا يحدث إحباطاً نفسياً . أما الحزن ، فالإنسان يحزن على شىء مؤلم حدث ، وانتهى وهذا يسبب
 الإحباط النفسى ، والسيدة مريم عليها السلام شعرت بالخوف عندما رأت جبريل عليه السلام يبلغها أمر ربها . .
 وخافت مما سيحدث بعد تحقيق أمر الله تعالى لها بأن تحمل بالمسيح عليه السلام . . ولم يكن أحد معها حينئذ
 يقول لها : لا تخافى . . أما بعد أن حملت ووضعت فالخوف انتهى وحل مكانه الحزن . . لذلك ناداها المسيح من
 تحتها : ﴿ أَلَّا تَحْزَنِي ﴾ .

وماذا عن العلاج المادى؟
 كانت السيدة العذراء فى ذلك الموقف العصيب فى حاجة إلى طعام يناسب حالتها ، وفى حاجة إلى ماء

وفير . . فرزقها الله تعالى بطعام يناسب حالتها تماماً وهو الرطب . . ولماذا كان الرطب أنسب طعام للسيدة مريم حينئذ؟ لأنه غذاء مثالي للمرأة وقت الولادة وبعدها ، ففي كل مائة جرام رطب يوجد الآتى :

٣٠ جرام سكر ، جرام واحد من البروتين ، ٣،٠ جرام دهون ، ٥٠ مللى جرام كالسيوم ٣٠ مللى جرام فوسفور ، ٢،٣ مللى جرام حديد ، ٤٥٠ مللى جرام بوتاسيوم بالإضافة إلى الكثير من الفيتامينات .

والسكر فى الرطب معظمه من الجلوكوز والفركتوز ، سهل الهضم سريع الامتصاص ، ويعطى الجسم طاقة حرارية مطلوبة فى الحالة التى كانت فيها السيدة مريم عليها السلام (فكيلو الرطب يعطى الجسم ١٦٥٠ سعراً حرارياً) والحديد فى الرطب سهل الامتصاص وهو ضرورى لتكوين دم جديد يحل مع الدم الذى نzf وقت الولادة وبعدها . ويوجد بالرطب كمية كبيرة من مواد تشبه هرمون الأوكسيتوسين Oxytocin الذى يفيد فى عملية الولادة ، فيزيد من انقباض عضلات الرحم ، وينشط مفعوله بوجود سكر الجلوكوز الذى تناولته فى الرطب . كما أن الهرمون المذكور يمنع فى نفس الوقت حدوث نزيف بعد الولادة ، بالإضافة إلى أنه يساعد على سرعة إدرار اللبن من ثدى الوالدة . وكمية البوتاسيوم الكبيرة فى الرطب مفيدة جداً ، فهى تحفظ توازن السوائل فى الجسم ، وتحافظ على ثبات قلبية الدم ، ويدخل فى عملية انقباض العضلات .

ويزود الرطب الجسم بالكثير من الأملاح المعدنية والفيتامينات . . كما يحتوى الثمر على مواد عضوية تهدئ الأعصاب ، وكانت السيدة مريم عليها السلام فى حاجة ملحّة لها . وفضلاً عن كل ما سبق فإن الرطب يحتوى على قدر من الألياف السليولوزية التى تمنع الإمساك الذى كثيراً ما يحدث بعد الولادة ، فالرطب هو أنسب طعام للسيدة مريم فى حالتها أثناء الولادة وبعدها ، لذلك جعل الله تعالى الرطب يتساقط بين يديها الطاهرتين . . فكان فيه التغذية للجسم ، وفيه التهذئة للأعصاب ، فذلك قول الله عز وجل :

﴿ وَهَزَيْتُ إِلَيْكَ الْجِدْعَ النَّخْلَةَ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾

والمرأة فى حالة الوضع ، فى حاجة ملحّة إلى الماء الطهور . . ولا غنى لها عنه أبداً لذلك فجر الله عز وجل تحتها جدولاً من الماء . . ويسمى فى اللغة «السرى» ، قال تعالى يحكى عما قاله السيد المسيح عقب خروجه من بطن أمه مباشرة لأمه : ﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهَزَيْتُ إِلَيْكَ الْجِدْعَ النَّخْلَةَ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ .

وجاء فى الأثر أن السيدة مريم قالت لابنها ساعة الولادة :

وكيف لا أحزن وقد ولدتك بدون أب ، وماذا أقول لأهلى وللناس؟

فقال لها سيدنا المسيح وهو لا يزال تحتها : أنا أكفيك الكلام ، وأرد على كل من يوجه لك كلاماً .

نقرأ فى سورة مريم ما جرى من مناقشات وأحداث قال الله عز وجل :

﴿ فَإِذَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا * فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ «يعنى أشارت إلى السيد المسيح» ولاشك أن قومها دهشوا دهشة بالغة ، وظنوا أنها تستهزئ بهم ، وتستخف عقولهم ، وهى تشير إلى طفلها الوليد ، فما عسى أن يفعل ليدفع التهمة عن أمه ويثبت براءتها ، وهو نفسه الدليل الذى ينفى براءتها ويثبت التهمة عليها .

وتحدث المفاجأة للجميع -مفاجأة لم تحدث من قبل- لقد تكلم المسيح فى المهد وخاطب القوم ، قال الله تعالى يحكى عما حدث ، فى (سورة مريم : ٣٠ - ٣٣) : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنَّي عَبْدُ اللَّهِ أَتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا *

وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٩٦﴾
ولماذا أشارت إلى ابنها وهو وليد في المهد؟

ذلك انصياحاً لأمر الله تعالى لها على لسان طفلها السيد المسيح ﴿فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ
لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ . ولقد أشارت إليه وهي واثقة ، لأنها سبق أن سمعته ساعة ولادته وهو
تحتها يقول ﴿لَا تَحْزَنِي﴾ .

والقارئ لهذه الآيات الكريمة ، يتخيل الدهشة التي علت وجوه القوم وهم يرون ابنتهم مريم العذراء ، أكثرهم عبادة
لله وقنوتاً ، يرونها تخرج من القرية صباحاً وهي عذراء ، تعود إلى قومها في نفس اليوم تحمل طفلها على كتفها! .
ولقد كان سيدنا المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام الإنسان الوحيد في تاريخ البشرية كله ، الذي تكلم
في المهد . . وهو الإنسان الوحيد ولد من أم بدون أب ، فهو كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه . . وهو آخر أنبياء
الله ورسله إلى بنى إسرائيل ، كما كان محمد عليه الصلاة والسلام ، آخر أنبياء الله ورسله إلى العالمين .

الرضاعة

أخرج الإمامان البخاري وأحمد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ
في حديثه عن ليلة الإسراء : «ثم أوتيت بإناءين في إحداهما لبن وفي الآخر خمر . فقال : اشرب أيهما
شئت . فأخذت اللبن فشربته فقليل : أخذت الفطرة ، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك» .
أخرج الإمام أحمد والإمام البخاري عن البراء بن عازب قال : لما مات إبراهيم ابن النبي ﷺ :
«إن ابني مات في الثدي وإن له مرضعاً في الجنة» .

أخرج الإمام مسلم والإمام مالك عن السيدة عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال : «إن الرضاعة
تُحرِّم ما تحرم الولادة» .
وفي رواية : «يُحرِّم من الرضاعة ما يُحرِّم من الولادة» .

أخرج الإمامان البخاري ومسلم عن السيدة عائشة - رضى الله عنها - أن عمها من الرضاعة يُسمى أفلح استأذن عليها
فحجبتها . فأخبرت رسول الله ﷺ فقال لها : «لا تحتجبي منه . فإنه يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب» .
أخرج الأئمة أحمد ومسلم وابن ماجه عن عبدالله بن الحارث ، أن أم الفضل قالت إن النبي ﷺ قال : «لا
تحرم الرضعة أو الرضعتان أو المصة أو المصتان» .

وعن السيدة عائشة : نزل في القرآن عشر رضعات معلومات ثم نزل أيضاً خمس معلومات .
أخرج الإمامان البخاري وأحمد عن أنس رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : «إن الله عز وجل وضع عن المسافر
الصوم وشطر الصلاة ، وعن الحامل والمرضع الصوم» .

روى الإمام مالك عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : «لا رضاعة إلا ما كان في الحولين» .
وسئل سعيد بن المسيب عن الرضاعة فقال : ما كان بين الحولين فهو يُحرِّم . وما كان بعد الحولين فإنما هو طعام يأكله .
وقال أيضاً : لا رضاعة إلا ما كان في المهد . . وإلا ما أنبت اللحم والدم .

أخرج الإمام أبو داود في سننه عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : لا رضاع إلا ما أنشز العظم
وأنبت اللحم . (أنشز العظم أى قواه) .

الرضاعة :

- ١ - نبذة عن تاريخ الرضاعة .
- ٢ - اختلاف ألبان الثدييات فى التركيب .
- ٣ - كيف يتكون اللبن فى جسم الثدييات .
- ٤ - تكون اللبن وإداراره من الثدي .
- ٥ - لبن الأم الغذاء المثالى للطفل الرضيع .
- ٦ - إفراز اللبن من الثدي .
- ٧ - مقارنة بين مكونات لبن الأم ولبن البقر .
- ٨ - اللبن - خواصه :
- البروتينات .
- الدهون .
- السكريات .
- الفيتامينات والأملاح المعدنية .
- الخمائر الموجودة فى اللبن .

نبذة عن تاريخ الرضاعة:

لرضاعة الأمهات تاريخ قديم . ونجد فى تاريخ الشعوب اهتماماً برضاعة الأطفال . وهذا من فطرة الخلق التى فطر الله خلقه عليها . ونجد منذ العصور الأولى كيف كان المشتغلون بالطب يبحثون ويجربون أنواعاً من النباتات الطبية ، لزيادة إدرار اللبن من الثدي .

وعثر علماء الآثار على بعض أوراق البردى ، يرجع تاريخها إلى أكثر من ثلاثة آلاف من السنين ، تدل على أن المصريين القدماء كانوا يستعملون أعشاباً طبية تزيد من إدرار اللبن من ثدى السيدة المرضع ، ومع ذلك كان من الأمهات من يجف ثديها ، ويتوقف عن إدرار اللبن لسبب أو لآخر . فكان الناس منذ العصور القديمة يحضرون سيدة مرضعاً غير الأم ، ترضع الطفل . وكان نظام المرضع معروفاً منذ العصور القديمة وخاصة فى قصور الأغنياء ، بسبب امتناع بعض الأمهات عن إرضاع أولادهن على اعتقاد منهن أن فى ذلك ضرراً على صحتهن .

ونقرأ فى القرآن الكريم عن قصة النبی موسى عندما كان طفلاً رضيعاً وألقته أمه فى قارب فى النيل . فحملة التيار إلى قصر فرعون مصر المطل على النيل . فالتقطه آل فرعون . وطلبوا له المرضع لإرضاعه ، فرفض المرضع جميعاً حتى إذا ما أقبلت أمه تعرض نفسها لإرضاعه ، أقبل على ثدى أمه ويقول الله عز وجل : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ ﴾ (القصص : ٧ ، ٨) ، إلى قوله تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ ﴾ . وفى عصر الإغريق كثر

الطلب على المرضعات من جانب نساء النبلاء والأمراء لإرضاع أطفالهن . وفى العصر الرومانى كان للمرضعة مكانة رسمية فى القصور . وابتداءً من القرن الثانى عشر الميلادى أنشئت فى فرنسا مكاتب خاصة لجلب المرضعات وتأجيرهن لإرضاع الأطفال .

وفى إنجلترا عام ١٧٦٢م صدر قانون يمنع أى امرأة مرضع من أن ترضع أى طفل غير طفلها ، إلا بعد أن يبلغ طفلها تسعة أشهر من عمره . ونص القانون على الكشف الطبى الدورى على المرضع ، للتأكد من تنفيذ القانون وللتثبت من خلوهن من الأمراض المعدية .

وكان نظام المرضعات أكثر انتشاراً فى القرن الثامن عشر فى أوروبا ، وذلك لأن نساء الطبقة الغنية كن يعتقدن اعتقاداً منحطاً أن الرضاعة تؤثر تأثيراً سيئاً على صحة الأم وعلى قوام جسمها . وما أن بدأت الثورة الصناعية فى أوروبا حتى توجهت نساء الطبقة الفقيرة إلى العمل بالمصانع ، فقل توفر المرضعات ، وابتدأ التفكير فى إرضاع الأطفال بلبن البقر . وعرف ذلك بالرضاعة الصناعية . وشيئاً فشيئاً بدأ نظام المرضعات فى الاختفاء حتى اندثر تماماً فى بداية القرن العشرين . وبالتالى ازدهرت صناعة الأغذية من ألبان الحيوانات للأطفال بدلاً من لبن الأم .

وكان ذلك الأمر شائعاً في العالم الغربي . أما في العالم الإسلامي فقد ظلت الأمهات ترضعن أولادهن . وهذا هو الغذاء الأمثل للأطفال . بل إن هذه من فطرة الخلق السليمة . وتطبيقاً لقول الله عز وجل : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ (البقرة : ٢٣٣) ، الآية قد صيغت في أسلوب بلاغي تقريرى تقرر حقيقة لا شك فيها . تقرر أيضاً أن أى غذاء للأطفال من غير الرضاع من الأم ، خروج عن الفطرة السليمة .

وفي مطلع القرن العشرين ابتداءً في السويد استخدم لبن الأبقار المجفف في تغذية الأطفال . ومن السويد انتشرت هذه الطريقة إلى بلدان أوروبا ثم أمريكا بعد ذلك .

وفي عام ١٩٠٢ أدخلت أول آلة لتجفيف الألبان في إنجلترا . وفي عام ١٩٠٤ أصدرت الهيئات الصحية الأمريكية بنيويورك تقريراً يؤكد سلامة لبن البقر المجفف في تغذية الأطفال . إلا أنه بعد ذلك بسنوات قلائل تبين للعلماء الآثار السيئة في تغذية الأطفال بلبن الأبقار المجفف ، وذلك بسبب اختلاف التركيب الكيميائي في لبن البقر عنه في لبن الأم . فابتدأت مصانع تجفيف لبن البقر لتغذية الأطفال بمحاولات عديدة لتعديل مكونات لبن البقر ، وذلك بتقليل نسبة البروتين والدهون وأملاح الصوديوم والبوتاسيوم منه ، حتى تقترب من نسبها في لبن الأم ، وإضافة فيتامينات أ ، ج ، د وسكر اللاكتوز ، حتى يقارب تكوين لبن الأم وتركيبه الكيميائي العضوي .

اختلاف ألبان الثدييات في التركيب؛

تختلف الثدييات في صفاتها الوراثية ، وبالتالي تختلف الصفات الوراثية في صغارها . وبالتالي أيضاً تختلف الخصائص والصفات في كل حيوان ثديي عن الحيوان الآخر ، وبين كل إنسان والإنسان الآخر ، لأن تكوين اللبن في الثدي أو الضرع ، إنما هو على أساس النظام الوراثي الموجود في الخلايا ، وعلى أساس العوامل الوراثية المميزة لكل نوع من الثدييات . فلبن المرأة مثلاً يختلف عن ألبان الثدييات الأخرى ، فهو أقل ألبان الثدييات نسبة في الدهون والبروتين ، وأكثرها في كمية السكريات ، وذلك يناسب الطفل الذي يحتاج لكثير من السكريات ولقليل من الدهون والبروتينات . وكما تختلف ألبان الثدييات عن بعضها البعض في مكوناتها من البروتينات والدهنيات والسكريات ، فهي تختلف أيضاً في مكوناتها من الأملاح المعدنية والفيتامينات . فمثلاً نجد أن لبن الأم هو الأنسب لتغذية جسم الطفل ونمو أعضائه المختلفة نمواً سليماً . أما الأطفال الذين يتغذون على ألبان البقر ، فإن أجسامهم تتعرض لمرض الكساح وتسوس الأسنان ، نظراً لقلّة الأملاح المعدنية في لبن الأبقار ، ولذلك فإن مصانع تجفيف ألبان البقر تضيف الكالسيوم وفيتامين «د» لمعالجة ذلك النقص . وبسبب زيادة مستوى أملاح الصوديوم في لبن البقر ، فإن الأطفال الذين يتغذون على ألبان الأبقار يتعرضون لاضطرابات في وظائف الكلى . كما أن زيادة الدهون في لبن البقر يعرض الأطفال الذين يتغذون عليه لأضرار صحية كثيرة ، في طور الطفولة ، وفي مستقبل أيامهم أيضاً . لذلك ولأسباب أخرى نجد أن أنسب غذاء للطفل هو لبن أمه . ومن هذا نفهم المغزى العلمى لقول الله عز وجل : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ .

ولقد جعل الله تعالى من لبن الأم غذاءً كاملاً للطفل الرضيع . كما جعل لبن الثدييات الأخرى من لبن البقر غذاءً كاملاً للإنسان البالغ في طعامه اليومي .

كيف يتكون اللبن في جسم الثدييات؟

لا يتكون اللبن في الثدي أو الضرع ، ولكن المراحل الأخيرة فقط في صناعة اللبن في أجسام الثدييات تتم في خلايا الثدي أو الضرع ، حيث تسبق ذلك خطوات كثيرة في عملية تصنيع اللبن في الجسم . وتوجد خلايا الثدي أو الضرع في حويصلات تسمى الحويصلات الخروبية . . ويحتوى الثدي على نحو مليون حويصلة . وكل

حويصلة تحتوى على آلاف من الخلايا . وكان العلماء حتى إلى عهد قريب يعتقدون أن خلايا الضرع أو الثدي لا تزيد عن كونها مصفاة تصفى اللبن من الدم وتفزره منه إلى قنوات الثدي . ولكن تبين أن الأمر ليس كذلك ، ولكن كل خلية وكل حويصلة مصنع فى غاية الدقة والإعجاز يقوم بعمليات فى غاية الدقة والتعقيد فى صناعة اللبن ، بناء على الصفات الوراثية الموجودة فى نواة كل خلية فى الثدي وكل خلية فى الجسم ككل .

ويمكن تلخيص العمليات الحيوية فى خلايا الثدي أو الضرع لتصنيع اللبن كالآتى :

أولاً : يرشح الماء الموجود بالدم بنسب متساوية لكمية اللبن حسب الشفرة الوراثية الموجودة فى خلايا الثدي .

ثانياً : تقوم خلايا الضرع أو الثدي بانتقاء فسيولوجى للعناصر الموجودة بالدم .

ثالثاً : تصنع خلايا الضرع أو الثدي مواد غير موجودة بالدم مثل سكر اللاكتوز وفى نفس الوقت تفرز مواد أخرى من الدم بنسب محددة ومقننة .

إذن فعملية صناعة اللبن فى خلايا الثدي عملية بيولوجية فى غاية الدقة والإتقان . وهل يمكن صناعة اللبن من عناصره الأساسية فى المصانع؟

لا يمكن صناعة اللبن من عناصره الأساسية فى المصانع . بل إن مصانع العالم جميعاً بكل تقدمها التكنولوجى تعجز عن صناعة قطرة واحدة من اللبن . فليس معنى القول «الرضاعة الصناعية» أن اللبن قد تم تصنيعه . فهو من لبن الحيوانات كلبن البقر ، وتم التعامل معه بالتجفيف ، أو استخراج بعض المواد منه أو إضافة مواد أخرى له . فأى رضاعة للطفل من غير لبن الأم ، بأى لبن آخر ، تسمى رضاعة صناعية .

وفى ثدى المرأة نحو خمس عشرة قناة لبنية رئيسية . تصب فى كل منها قنوات صغيرة ، يصل اللبن إلى كل منها من مجموعة من الحويصلات . . وتنتهى كل القنوات اللبنية الرئيسية فى حلمة الثدي .

وعملية إدرار اللبن استجابة لفم الطفل ، عملية فى منتهى الإعجاز والإبداع . فتوجد نهايات للأعصاب الحسية فى حلمة الثدي ، تنتهى فى أجهزة استقبال مجهرية الحجم للأحاسيس ، تنبه العديد من الغدد الصماء فى الجسم ، إذا ابتدأ الطفل فى الرضاع . فتفرز هرمونات عديدة مثل هرمون البرولاكتين الذى ينشط الغدد اللبنية بالثدى . وفى نفس الوقت تفرز غدد صماء أخرى هرمون الـ oxytocin الذى يسبب انقباض قنوات حويصلات الثدي . فيندفع اللبن فى القنوات الرئيسية . وينزل اللبن من الثدي على شكل قطرات ويسمى هذا «رد الفعل الإفرازى» .

لقد فطر الله تعالى جسم المرأة على أن يكون مجهزاً لحمل الأطفال وولادتهم وإرضاعهم . . ولبن الأم أنسب غذاء للطفل الرضيع . ولا تقوم مقامه ألبان أخرى ، مثل ألبان البقر أو غيرها . ونجد ذلك من بعض المعانى فى قول الله عز وجل : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ .

تكون اللبن وإداره من الثدي؛

تكون اللبن وإداره من ثدى الأم ، عملية أو عمليات فى غاية الدقة والإتقان ، لا يقدر عليها إلا الله عز وجل . وتعتمد جميعاً على أربعة عوامل رئيسية :

الأول : تغذية الأم .

الثانى : الغدد الصماء .

الرابع : عوامل نفسية .

الثالث : عوامل فسيولوجية .

وبدون تغذية الأم الغذاء الكافى لا يصنع اللبن فى ثديها بالقدر الكافى . فمن غذاء الأم يستمد الجسم العناصر الأولية لصناعة اللبن . فلو لم تتوافر العناصر الأولية هذه ، لا تجد خلايا الثدي المواد الخام الذى منها تصنع اللبن . فتغذية الأم الغذاء الصحى اللازم ، هو أول العوامل الرئيسية اللازمة لصناعة اللبن فى الثدي .

ولا أقل من ستة من الهرمونات تدخل فى عمليات تصنيع وإفراز اللبن وإدارته من الثدي . إنها عمليات كثيرة ومتنوعة وفى غاية الدقة والتعقيد ، مما يدل على الإعجاز فى الخلق الذى يدل بالتالى على قدرة الخالق عز وجل .

أما العوامل الفسيولوجية فمنها ما يتعلق بالطفل ، ومنها ما يتعلق بالأم المرضع . فما إن يولد الطفل من بطن أمه أو أى صغير فى عالم الثدييات ، حتى يلهمه الله تعالى السبيل إلى ثدى أمه . فقد فطره الله تعالى على غريزة الإقبال على الرضاع . فما إن يلمس وجه الطفل وشفته أى شىء إلا التقمه ومصه . . وهذا رد فعل فسيولوجى انعكاسى ، يسمى رد الفعل الامتصاصى sucking reflex . ويصاحب هذا عمليات فسيولوجية كثيرة من شأنها إدرار اللبن من الثدي .

ولا يدر الثدي لبناً إلا بعد الولادة . فما إن يولد الطفل حتى تحدث عمليات كيميائية وعصبية وهرمونية ، من شأنها أن تفرز الغدة النخامية الموجودة فى قاع المخ هرمون البرولاكتين ، الذى ينبه الخلايا اللبنية فى الثدي إلى العمل . وسرعان ما تملئ حويصلات الثدي باللبن . وهكذا ، فما إن يولد الطفل حتى يوفر له الله تعالى غذاءه من لبن أمه . إذن ففطرة الخلق ونظام الوجود يهدف إلى أن ترضع الوالدة صغيرها من لبنها فى الإنسان وكل المخلوقات الثديية .

وإذا لم ترضع الأم طفلها ، فإنها تخرج عن الفطرة السليمة . والله تعالى يقول : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ (البقرة: ٢٣٣) . والأم السليمة تفرز من ثديها نحو ثلاثة أرباع اللتر من اللبن يومياً . وصناعة هذا القدر من اللبن تستنفد كثيراً من عناصر الغذاء من دم الأم ، لذلك لابد للأم المرضع من أن تتناول كمية إضافية من الطعام والشراب ، فوق القدر الذى يحتاجه جسمها . بحيث تكون كمية الطعام الإضافية تكفى لصناعة كمية اللبن العادى كل يوم . وإذا قلت تغذية الأم ، أو تناولت الأم ما يكفى احتياجات جسمها فقط من الغذاء ، فإن كمية اللبن تقل . كما أن العناصر اللازمة لصناعة اللبن فى الثدي ، تستمد من غذاء الأم ومن بدنها . فتتعرض لأمراض سوء التغذية . فإذا قل غذاء الأم المرضع ، تضار هى ، ويضار الطفل أيضاً . من أجل هذا أعفى الله تعالى المرأة المرضع من الصوم كما أعفى المرأة الحامل أيضاً لنفس الأسباب . فقد روى الإمام البخارى والأئمة أصحاب السنن عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله عز وجل وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة ، ووضع عن الحامل والمرضع الصوم» .

وهل يمكن أن يستعاض الطفل عن لبن الأم بلبن آخر؟ .. لا . لا يمكن أن يستعاض عن لبن الأم بلبن آخر فى غذاء الطفل ويكون بنفس القيمة الغذائية ، لأن مكونات الألبان فى الثدييات تختلف كثيراً . . فمثلاً لبن البقر يحتوى على عدد من الأحماض الأمينية ثلاثة أمثال ما يوجد فى لبن الأم ، وكذلك الدهون . وكمية السكر والكالسيوم فيه أقل مما هى فى لبن الأم . فإذا تناول الطفل لبن البقر مثلاً بدل لبن أمه ، فإن أعضاء جسمه لا تنمو نمواً صحيحاً ، وبالتالى يتعرض لكثير من الاضطرابات الصحية . فالطفل أو أى صغير لأى حيوان ثديى ، قد صمم خلق جسمه وصممت العمليات الحيوية داخل خلايا جسمه ، على أساس مكونات ألبان أمهاتها . لذلك فالغذاء المثالى لأى وليد هو لبن أمه . وهذا قانون عام فى المخلوقات جميعاً وصدق الله تعالى الذى قال : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ .

لبن الأم الغذاء المثالى للطفل الرضيع؛

يختلف لبن حيوان ثديى ، عن لبن حيوان ثديى آخر فى مكوناته . وذلك بسبب اختلاف الجينات أو المورثات ، فى خلايا جسم حيوان عنها فى جسم حيوان آخر . لذلك يختلف لبن الأم عن ألبان إناث الثدييات فى أمور كثيرة . نجد ذلك فى سكر اللاكتوز مثلاً ، فسكر اللاكتوز فى لبن الأم أكثر كثيراً مما هو فى ألبان الثدييات

الأخرى . وارتفاع مستوى سكر اللاكتوز فى لبن الأم فى غاية الأهمية فى غذاء الطفل ، فهو يؤثر تأثيراً مباشراً على نمو أعضاء الجسم . كما يؤثر على الجهاز الهضمى للطفل . فينشط عمليات الهضم ، ويساعد عمليات الامتصاص . كما أن سكر اللاكتوز مهم جداً لبناء خلايا الجهاز العصبى فى الطفل .

فسكر اللاكتوز فى مائة جرام من لبن الأم ٥٦ وحدة ، بينما هو فى لبن البقر ٣٨ وحدة فقط . لذلك إذا تغذى الطفل على لبن البقر ، حدثت له اضطرابات معوية متكررة ، واضطرابات عصبية متعددة . لذلك تضيف مصانع تعليب ألبن البقر كمية من سكر اللاكتوز بحيث تقارب كميته فى لبن الأم ، كما تقلل من نسبة الدهون والبروتين فيه ، ليكون أقرب تركيباً إلى لبن الأم . وكذلك لبن الأم أغنى بكثيرًا بالكالسيوم وفيتامين «د» من لبن البقر ، الأمر الذى يعمل على نمو العظام والأسنان نمواً صحيحاً . ولماذا تقلل مصانع تعليب ألبن من الدهون فى لبن البقر؟ ذلك لأن ارتفاع نسبة الدهون فى اللبن إذا كان مفيداً للعجل الوليد ، فإنه مضر جداً بالطفل ، فهو يعرض الطفل الذى يتغذى عليه لاضطرابات فى هضمه ، فضلاً عن أنه يسبب له فى مستقبل حياته مرض تصلب الشرايين . وهذه حقيقة توصل إليها الدكتور : فردريك روبين الذى حصل على جائزة نوبل للعلوم سنة ١٩٧٦م .

ولبن الأم معقم دائماً . أما لبن الرضاعة الصناعية فيحتاج إلى تعقيم قد لا يتوفر فى كثير من الأحوال . ويحتوى لبن الأم بجانب عناصر الغذاء على عناصر مقاومة لبعض الأمراض ، وأجسام مضادة لكثير من الجراثيم المرضية . كما يساعد سكر اللاكتوز فى لبن الأم على تكاثر الميكروبات المفيدة فى أمعاء الطفل . إذا لا يمكن الاستعاضة عن لبن الأم فى تغذية الطفل بلبن آخر أبداً .

وروى الإمام أحمد عن البراء بن عازب قال : لما مات إبراهيم ابن النبى قال النبى ﷺ : «إن ابنى مات فى الثدى وإن له مرضعاً فى الجنة» . يشير الحديث النبوى الشريف إلى أن لبن المرأة المرضع لا يستعاض عنه بأى غذاء آخر فى تغذية الطفل ، ولو كان من أنهار اللبن فى الجنة . والله تعالى يقول عن الجنة : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ (محمد : ١٥) فحتى اللبن فى أنهار الجنة ، ليس أفضل لغذاء الطفل من لبن أمه . ولكنه أفضل وألذ طعمًا وأحلى مذاقًا لأصحاب الجنة من أى لبن آخر فى الدنيا . واتفق علماء الأغذية على أنه لا يمكن الاستغناء عن لبن المرضع إلا لضرورة قصوى . ولقد أشارت الآية الكريمة إلى ذلك فى قوله تعالى : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ .

وليست الرضاعة لغذاء جسم الطفل ونموه كما ينمو النبات فحسب ، ولكن هناك عوامل نفسية كثيرة فى الرضاعة . فالطفل فى الرضاعة الطبيعية يشعر بالأمان النفسى ، والهدوء العصبى . وبذلك تعمل الرضاعة الطبيعية على تمام صحة الطفل بدنياً وعصبياً ونفسياً أيضاً . بعكس الرضاعة بألبان الحيوانات التى تفقده كل ذلك ، كما تفقده ما يسمى بالإشباع الفمى . وهذا يؤثر عليه فى مستقبل حياته ، فيكون فى شبابه أكثر ميلاً إلى تدخين التبغ ، بما لو كان فى طفولته قد تغذى على رضاعة طبيعية .

وكما أن الرضاعة من ثدى الأم مهمة جداً للطفل ، فهى مهمة أيضاً للأم المرضع :

أولاً : الدهون فى اللبن تستمد من جسم الأم ، وهو دهن تجمع فى جسمها أثناء فترة الحمل ، ويستنفد بعد الولادة فى تكوين اللبن . وبذلك تتخلص الأم المرضع من السمنة بعد الولادة ، وأثناء فترة الرضاعة . أما التى لا ترضع طفلها من لبنها فسوف تزداد سمنة فى كل حمل . ولا تستعيد وزنها الطبيعى بعد الولادة ، إلا إذا أرضعت طفلها من ثديها شهوراً عديدة .

ثانياً : أثبتت الدراسات أن نسبة الإصابة بسرطان الثدي أقل فى الأمهات المرضعات ، وأعلى فى الأمهات اللاتى لا يرضعن أولادهن .

ثالثاً : كما تسبب الرضاعة راحة نفسية للطفل ، فإنها تسبب راحة نفسية للأم أيضاً .
رابعاً : لا تؤثر الرضاعة على شكل الثدي وتجعله أكثر تدلياً ، كما تعتقد بعض الأمهات . ففي الرضاعة من ثدى
الأم فائدة للطفل وفائدة للأم أيضاً . ونجد ذلك فى قول الله عز وجل : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ .

إفراز لبن الأم من الثدي

يفرز الثديان سائلاً قلوياً ابتداءً من الشهر الثالث من الحمل ، وعقب الولادة بساعات أو أيام قليلة يفرز الثديان
سائلاً يميل لونه إلى الصفرة يسمى اللبأ أو السرسوب أو الكلوستر . وهو يختلف فى تركيبه عن تركيب
اللبن ، فهو يحتوى على نسبة أكبر من البروتينات معظمها من الجلوبيولين Globulin وقليل من اللاكتوز
والدهون ، إلا أنه يحتوى على جميع الفيتامينات . وسائل السرسوب ملين يساعد الطفل عقب الولادة على
التخلص من العفن الذى يملأ أمعائه . والعفن مادة سوداء لزجة تراكمت فى أمعاء الجنين منذ الشهر الخامس من
الحمل ، ويجب أن تخرج من أمعاء الطفل بعد أن يولد ، حتى تبدأ أمعاؤه عمليات هضم وجبات اللبن ، وإذا
تراكمت تلك المادة فى الأمعاء ولم تطرد من الأمعاء فإنها قد تسبب انسداداً فى أمعاء الطفل .

يحتوى السرسوب على مواد تنبه جهاز المناعة بالجسم . ويبدأ إفراز اللبن الحقيقى فى اليوم الثالث أو الرابع
بكميات صغيرة إلا أنها تكبر تدريجياً بعد ذلك . ويفرز الثديان بعد ذلك لتراً إلى لترين من اللبن كل يوم .

وقد عقدت أول ندوة للألبان فى إنجلترا فى عام ١٩٧٤ وتكلم فيها الدكتور/ أرنيلى الإسكتلندى عن نسبة رضاعة
الثدى من الأمهات فى بلاده فى عام ١٩٦٧ فقال إن ٦٩٪ من الأمهات فى بلاده امتنعن منذ الولادة عن إرضاع
أطفالهن من أثدائهن وأن ١٦,٥٪ من الأمهات فى بلاده واطبن منذ الولادة على إرضاع أطفالهن من أثدائهن لمدة
أربعة أسابيع . ثم هبطت النسبة إلى ٧٪ فى الشهر الثالث حتى انتهى الشهر الرابع بعد الولادة ولم يبق منهن إلا
٥٪ فضلن الاستمرار فى إرضاع أطفالهن من أثدائهن ، وأعطى أطباء من إنجلترا وويلز أرقاماً متشابهة . وناشد المؤتمر
أمهات العالم إرضاع أطفالهن على الأقل فى السنة الأولى ويا حبذا لو زادت مدة الرضاعة عن ذلك .

مقارنة بين مكونات لبن الأم ومكونات لبن البقر

تحدثنا من قبل عن الاختلافات فى التركيب الكيميائى و العضوى فى تركيب ألبان إناث الثدييات ، وكيف
أن كل لبن يتكون فى الضرع أو الثدي ، إنما يكون مُصنَّعاً بناء على جينات أو مورثات فى خلايا الضرع أو الثدي .
ولما كانت الجينات أو المورثات تختلف من مخلوق إلى مخلوق آخر ، فإن ألبان إناث الثدييات تختلف فيما بينها
فى التركيب الكيميائى اختلافها فى جيناتها أو مورثاتها . لذلك كان أنسب غذاء للطفل - وله نفس الجينات أو
مورثات أمه - هو من لبن أمه ، الذى تكون بناء على نفس الجينات أو المورثات .

اللبن المحورى الشبيه بالآدمى	لبن البقر	لبن الأم	الأملاح
٥	١٢	٤	الماغنسيوم
١٥	٥٨	١٥	الصوديوم
٣٣	٩٦	١٥	الفوسفور
٤٤	٣٣	١٢٥	الكالسيوم
٣٧	١٠٣	٤٣	الكلور
٥٦	١٣٨	٥٥	البوتاسيوم
٥٥	١٠٦	١٠١٥	الحديد
٥٥	٣٨	٥٦	اللاكتوز

المقادير بالمللى جرام فى كل ١٠٠ جرام لبن

لذلك إذا أرادت مصانع تجفيف ألبان البقر وتعليبها أن تجعل لبن البقر يقارب لبن الأم ، عليها أن تضيف الآتى : سكر اللاكتوز وفيتامين «د» ، وكالسيوم . وتقلل منه الآتى : الصوديوم ، والبوتاسيوم ، والكلور ، والفوسفور ، والمغنسيوم .

وهذا ما تحاوله تلك المصانع ، إلا أنه لا يمكن أن تصل إلى مستوى لبن الأم ، ولا إلى فائدته الغذائية للطفل . ولقد ذكرنا فى الأحاديث السابقة بعض الفوائد الأخرى فى الرضاعة الطبيعية ، مالا يتوفر فى الرضاعة الصناعية .

ولقد ذكرنا من قبل أن الرضاعة الطبيعية من الفطرة السليمة . وبالتالي فإن الرضاعة الصناعية لا تتمشى مع فطرة الخلق . لذلك فإنها لا تحقق كمال الصحة البدنية والنفسية لكل من الطفل والأم على سواء .

تقول الآية الكريمة : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ (البقرة : ٢٣٣) ، فهذه الرضاعة من الناحية الصحية لا بد أن تكون أكثر من سنة وإلى سنتين لا تزيد . وهذا ما قرره كل المؤتمرات العلمية للأطفال . وما من مؤتمر علمى دولى للأطفال ، إلا وتجربى فيه المناقشات عن غذاء الأطفال . ويكون من مقرراته أن الرضاعة من الأم واجبة . وأنه يجب على الأمهات أن يرضعن أولادهن من أثدائهن أكثر من سنة ، وأنه يجب تجنب الرضاعة الصناعية ما أمكن . وهذا ما قرره الآية الكريمة . وهذا أمر منطقى . فالقرآن الكريم هو الحق المطلق . فما وافقه فهو صحيح وما خالفه فهو غير صحيح .

ونزلت ثلاث آيات قرآنية فى الرضاع ومدته . هى بترتيب النزول فى سور لقمان ثم الأحقاف ثم البقرة . نزل فى سورة لقمان الحديث عن الحمل والفظام ومدتهما ، ثم نزلت سورة الأحقاف وذكرت مدة الحمل والرضاع والفظام ، وبعد ذلك نزلت سورة البقرة فيها تفصيل الرضاع علماً وتشريعاً ، فبعد الإجمال فى سورتي لقمان والأحقاف جاء التفصيل فى سورة البقرة . .

فى سورة لقمان (١٤) : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ أى فطامه فى غضون عامين . ثم نزلت سورة الأحقاف (١٥) قال الله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ . وتقرأ أيضاً : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ وهناك فرق بين الكُرْه والكَرْه :

الكَرْه : هو ما أكرهت نفسك عليه من المشقة وتحملته اختياراً . . مثل قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ (البقرة : ٢١٥) ، أى أكرهتم أنفسكم عليه وتحملتم مشقته اختياراً .

والكَرْه : هو ما أكرهك غيرك عليه وتحملته منه اضطراراً مثل قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ (الرعد : ١٥) ، أى يسجدون لله طوعاً واططراراً . فالكَرْه فعل المختار ، والكَرْه فعل المضطر . وعلى هذا يصح أن تقرأ آية سورة الأحقاف : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ على أساس الاضطرار والآية الكريمة تقرر أن مدة الحمل والرضاع ثلاثون شهراً .

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾

تحدثنا من قبل عن مدة الرضاع فقلنا إن ذلك ذكر فى ثلاث آيات قرآنية نزلت أولاً فى سورة لقمان فى قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ أى الفطام يكون فى عامين ، أى يتم فطام الطفل فى غضون عامين لا يزيد عنها ، ثم نزلت آية سورة الأحقاف (١٥) فى قول الله عز وجل :

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ نلاحظ أن آية الأحقاف زادت الأمر تفصيلاً ، فبينما ذكرت آية سورة لقمان مدة الفطام ذكرت آية سورة الأحقاف أن مدة الحمل والفطام معا ثلاثون شهراً ، ومن هذا نفهم أنه إذا قلت مدة الحمل زادت مدة الرضاع ، وإذا زادت مدة الحمل قلت مدة الرضاع ، ونفهم من الآية الكريمة أن أقل مدة للحمل والولادة ستة أشهر وقال ابن عباس رضى الله عنهما : (إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع واحد وعشرون شهراً ، وإذا وضعت المرأة لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً وإذا وضعت المرأة لستة أشهر كفاه من الرضاع عامان كاملان) .

وبعد ذلك نزلت آية سورة البقرة (٢٣٣) : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ . فنزلت الآية الكريمة بالقاعدة العامة وبالحكم الشرعى فى قضية الرضاع .

وقد يقال إن القرآن الكريم نزل قبل ظهور الرضاعة الصناعية لذلك لم يأت لها ذكر فى القرآن الكريم ، وهذا قول غير صحيح لأكثر من سبب أولا : قوله تعالى : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ حكم فى أسلوب تقريرى يرفض ضمنا أية رضاعة من غير الأم إلا اضطراراً ، وبذلك أشارت الآية ضمنا إلى رفض الرضاعة الصناعية وعدم شرعيتها إلا لضرورة قصوى ، ثانيا : القرآن الكريم لم ينزل للعصور القديمة فقط ، ولكنه نزل لكل عصر وزمان ومكان ، يجد الإنسان فى آيات القرآن العظيم والأحاديث النبوية الشريفة حلولاً لكل القضايا العصرية فى كل عصر وزمان ، وكأن سيدنا رسول الله ﷺ قائم فى كل عصر ومكان يتلو على الناس القرآن العظيم ويعلم الناس ويزكيهم ويهديهم إلى سواء السبيل .

وفى عصرنا الحالى اتجهت المجتمعات الغربية غير الإسلامية إلى تشجيع الرضاعة الطبيعية من جديد ، بعد أن ظهرت أخطار الرضاعة الصناعية فى كل من الطفل والأم ، ووضحت فوائد الرضاعة من الأم لكل منهما ، واتفق العلماء الآن على أن مدة الرضاعة للطفل نحو العامين ، وهكذا رجع الناس إلى ما قرره القرآن الكريم من حق .

اللبن

أخرج الإمام أحمد وأصحاب السنن عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : «ما أعلم شراباً يجزئ عن الطعام غير اللبن ، فمن شربه فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه ، ومن طعم طعاماً فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعماً خيراً منه» .

وفى رواية أخرى ، قال النبى ﷺ : «إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل اللهم أطعماً خيراً منه . وإذا سقى لبناً ، فليقل اللهم زدنا منه فإنه ليس شئ يجزئ عن الطعام والشراب إلا اللبن» .

أخرج البخارى فى حديث الإسراء عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «أوتيت ثلاثة أقداح : قدح فيه لبن ، وقدح فيه عسل ، وقدح فيه خمر ، فأخذت الذى فيه اللبن فشربت . فقيل لى : أصبت الفطرة أنت وأمتك» .

أخرج الإمام أحمد وأصحاب السنن عن حكيم بن معاوية أبى بهز عن أبيه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «فى الجنة بحر اللبن ، وبحر الماء ، وبحر العسل ، وبحر الخمر ، ثم تشقق الأنهار منها بعد» .

اللبن

- ١ - خواصه الطبيعية .
- ٢ - مكوناته .
- ٣ - الدهون فى اللبن .
- ٤ - سكر اللبن .
- ٥ - الفيتامينات والأملاح المعدنية فى اللبن .
- ٦ - الخمائر الموجودة باللبن .

الثدييات:

تفرز إناث الثدييات لبنا من غدد لبنية فيها ، لتغذى صغارها ، والغدد اللبنية توجد فى الضرع أو الثدي ، وطريقة صناعة اللبن فى جسم الثدييات واحدة ، إلا أن نسب المواد وتركيبها فى الألبان تختلف من حيوان إلى حيوان ثديى آخر .

ويتكون الضرع أو الثدي من فصوص كثيرة ، ويتكون كل فص من مجموعات من الخلايا تفرز اللبن فى قنوات صغيرة ، تتجمع فى قنوات أكبر ، ومن كل فص يصب اللبن فى قنوات أكبر تنتهى فى الحلمة ، ويتم تكون اللبن فى الضرع أو الثدي بمساعدة هرمونات كبيرة ، أهمها تلك الهرمونات التى تفرزها الغدة النخامية الموجودة فى قاع المخ .

الخواص الطبيعية للبن:

اللبن مستحلب أبيض اللون ، بسبب وجود فوسفات الكالسيوم والكيلين فيه ، أما إذا مال لونه إلى الاصفرار فى بعض ألبان الثدييات ، فإن ذلك يكون بسبب وجود مادتي الكاروتين والريبوفلافين فيه . ودرجة غليان اللبن أعلى قليلا من درجة غليان الماء ودرجة تجمده أقل قليلا من درجة تجمد الماء . ويحمل اللبن مكوناته إما غير ذائبة فى حالة تعلق ، وإما ذائبة فى حالة محلول .

ومن المواد غير الذائبة فى اللبن وفى حالة تعلق حبيبات الدهن وجزيئات الكيلين ، وهذه المواد يمكن فصلها من اللبن بواسطة الطرد المركزى السريع ، ومن المواد التى هى فى حالة محلول : السكر والأملاح المعدنية والبروتينات .

مكونات اللبن:

اللبن سائل معقد التركيب جداً ويحتوى على أكثر من مائة مادة ، من أهمها الماء والدهون والبروتينات والسكريات والأملاح المعدنية والفيتامينات والخمائر المختلفة . وبعد الولادة يبتدئ إدرار اللبن ، ويكون أولا على شكل سائل أصفر اللون سميكة القوام يسمى «السرسوب» chlostrum وقيمتها الغذائية عالية جداً نظراً لما به من نسبة عالية من البروتينات ، ونسبة قليلة من الدهون والسكريات ، فضلا عن مواد تقوى مناعة الجسم ، ويختلف تركيب اللبن باختلاف النوع ، وفصل السنة ، ومستوى الغذاء ونوعه وكميته ، والبيئة والوراثة ، وعوامل أخرى كثيرة . واختلاف تركيب اللبن تبعاً للبيئة ، نجده مثلاً فى الحيوانات التى تولد وهى مستكملة لعظامها مثل الغنم والماشية والأنعام ، يكون لبن أمهاتها التى ترضعها غنياً بسكر اللاكتوز وفقيراً بالكالسيوم ، بينما الفئران والأرانب التى تولد ولم تستكمل عظامها بعد ، يكون ألبان أمهاتها غنياً بالكالسيوم والبروتينات ، فقيراً بالدهون واللاكتوز .

ويختلف لبن الإنسان «الأم» كثيراً عن معظم ألبان الثدييات الأخرى . (١)

ويؤدى الاختلاف فى كمية البروتين الموجود بالألبان إلى اختلاف قيمتها الغذائية ، كما يؤدى اختلاف نسب الأحماض الدهنية إلى الاختلاف فى الخواص الطبيعية للألبان المختلفة ، ويؤدى الاختلاف فى كمية الخمائر إلى الاختلاف فى صفات الحفظ .

الماء فى اللبن:

يكون الماء ما يزيد على تسعين بالمائة من اللبن ، ومكونات اللبن الذائبة فى الماء كثيرة منها الفيتامينات

(١) د . على أحمد الشحات «اللبن وقيمتها الغذائية» الهيئة المصرية العامة للكتاب .

والخمائر وسكر اللاكتوز ، ومكونات معلقة فى الماء مثل حبيبات الدهن وجزيئات الكيزين ، والماء يدخل فى صناعات المنتجات اللبنية المختلفة ، فالجن الأبيض يحتوى على ٣٠ - ٤٠ ٪ ماء ، والماء عامل مساعد فى صناعة الجن ، لأن بعض المواد الضرورية لصناعة الجن موجودة فى صورة ذائبة أو معلقة فى الماء الموجودة باللبن ، مثل الكيزين والدهون والخمائر .

بروتينات اللبن «زلال اللبن»

البروتينات مواد نيتروجينية مكونة من الأحماض الأمينية ، ومن أهم وظائفها تزويد الجسم بالطاقة الحرارية ، وبناء الأنسجة والخلايا فى أعضاء الجسم المختلفة ، وتدخل البروتينات فى تركيب كل الخمائر الموجودة بالجهاز الهضمي ، وعمليات الامتصاص والاحتراق .

وبروتين اللبن من المصادر الغذائية المهمة للإنسان . وكمية البروتين الموجودة فى لتر من اللبن تعادل كمية البروتين الموجود فى خمس بيضات ، وفى نصف كيلو من اللحم الأحمر ، وفى ثلثي كيلو جرام من لحم السمك . ويرضع الطفل من ثدى أمه نحو لتر من اللبن يوميا وفيه من البروتينات التى تلزم نموه ، وبروتينات اللبن تحتوى على الأحماض الأمينية الآتية : الجليسين ، الجلوتاميك ، الليسين ، الليسيتين ، التربتوفين ، الميثيونين ، والإسبارتيك ، الهستيدين ، الفالين ، الليوسين ، الإيزوليوسين ، الألانين ، التيروسين وغيرها . فاللبن يحتوى على الأحماض

ويحتوى اللبن على الكربون والهيدروجين والأوكسجين والكبريت والفوسفور .

وأهم بروتينات اللبن : الألبومين ، والكيزين والجلوبيولين .

الألبومين : وهو يشبه زلال الدم إلى حد كبير ، ويمتاز زلال اللبن «البروتين» عن زلال البيض بوفرة الأحماض الأمينية الأساسية ، إلا أن زلال اللبن به نسب أعلى من زلال البيض فى أحماض الإسبارتيك والليوسين والليسين .

والألبومين يساعد على ترسيب الكيزين على شكل حبيبات صغيرة .

الكيزين : أهم بروتينات اللبن ، فهو يكون ٨٠ ٪ من المواد النيتروجينية فيه ، والكيزين يوجد فى لبن جميع الثدييات ، ولا يوجد فى أى مادة أخرى غير اللبن ، لذلك يسمى «البروتين الخاص باللبن» ، وهو بروتين مركب يحتوى على حامض الفوسفوريك ، لذلك فهو فوسفور بروتين . وتدخل المواد التالية فى تركيب الكيزين : الكربون ٩٦,٥٢ ٪ ، هيدروجين ٧,٠٥ ٪ ، نيتروجين ١٥,٨٥ ٪ ، فوسفور ٠,٨٥ ٪ ، كبريت ٠,٧٢ ٪ ، أوكسجين ٢٢,٢٧ ٪ .

الجلوبيولين : ويسمى لاكتوجلوبولين ، ويوجد فى جميع أنواع الألبان بنسبة ٢,٠ - ٣,٠ ٪ .

المكونات الصغرى المهمة فى اللبن

المكونات الكبرى فى اللبن هى : الماء والدهنيات والبروتينات واللاكتوز والأملاح المعدنية ، أما المكونات الصغرى فهى موجودة بنسب صغيرة ، إلا أنها مهمة فى تشكيل الخواص الطبيعية والكيمائية للبن ومنتجاته أيضا . ومن أهم المكونات الصغرى للبن ما يأتى :

١ - الفوسفوليبيدات : phospholipids وهى الدهون المحتوية على فوسفور ، وتعمل على حفظ اللبن فى حالة مستحلب وتمنعها من أن تطفو فوق سطح اللبن ، ووجود هذه المواد مهم فى حفظ الخواص الطبيعية وفى صناعة منتجات الألبان .

٢ - المواد الملونة : ومنها الريبوفلافين والكاروتين وغيرهما .

هضم اللبن:

اللبن أسهل الأغذية هضما ، ومتوسط هضم مكونات اللبن نحو ثمانية وتسعين بالمائة . وهذه أعلى نسبة من أى قيمة هضمية فى أنواع الغذاء الأخرى .

وبذلك يستطيع الجهاز الهضمى فى الإنسان هضم وامتصاص مكونات اللبن جميعا . أما الأملاح المعدنية فى اللبن فتمتص كلها بدون هضم فى الإثنى عشر ، وتناول اللبن مع الأغذية الأخرى يزيد من قابلية هضم اللبن .

القيمة البيولوجية لبروتينات اللبن:

القيمة البيولوجية لبروتينات اللبن هى مقدار ما يعوضه من النيتروجين الذى يستنفد من الجسم فى عمليات الهضم ، بمعنى أنه إذا أمكن لمائة جرام من أحد البروتينات أن يعوض مائة جرام من بروتين الجسم ، فإن القيمة البيولوجية لهذا البروتين تساوى مائة ، والقيمة البيولوجية لبروتينات اللبن مرتفعة جدا بالنسبة لبروتينات الأغذية الأخرى ، فالقيمة البيولوجية للحم = ٦٢ ، وللقمح = ٦٧ ، وللذرة = ٨٥ ، والبطاطس = ٦٧ ، والكبد = ٧٧ ، والكلوى = ٧٧ ، واللبن = ٨٥ .

دهون اللبن:

دهون اللبن من أهم مكوناته للأسباب الآتية :

١ - قيمته الغذائية المرتفعة : فتحتوى جليسيريدات دهن اللبن على معظم الأحماض الأساسية الضرورية ، وهذه لا يمكن تصنيعها فى الجسم ووجودها ضرورى للإنسان . وتوجد فى دهون اللبن مواد مصاحبة له مثل الفوسفورليبيدات والكاروتين وفيتامينات (أ ، د ، هـ ، ك) وكذلك مادة الكوليسترول وهو مادة ضرورية لصحة خلايا الجهاز العصبى فى الإنسان ، ويتحول الكوليسترول إلى فيتامين (د) إذا تعرض اللبن للأشعة فوق البنفسجية فى أشعة الشمس .

٢ - دهون اللبن هى السبب فى الطعم اللذيذ للبن ومنتجات الألبان مثل القشدة والزبد والجبن ويحتوى الزبد على ٧٥ - ٨٥٪ من دهن اللبن .

ويحتوى السمن على ٩٨٪ من دهن اللبن .

وتحتوى القشدة على ٢٥ - ٨٠٪ من دهن اللبن .

ويحتوى اللبن المجفف على ٣٠٪ من دهن اللبن .

ويحتوى الجبن الطرى على ٢٥٪ من دهن اللبن وكذلك باقى أنواع الجبن .

ويوجد الدهن فى اللبن فى حالة مستحلب ، على شكل كريات صغيرة جدا لا ترى إلا بميكروسكوب قوى ومتوسط قطر كل كرة دهنية نحو ثلاثة من الألف من الملى متر ، ووجود الدهن على هذه الصورة يسهل كثيرا من عملية الهضم والامتصاص ، ومن المعلوم أن الحبيبات الدهنية الصغيرة التى قطرها ٠,٥ من الميكرون تمر من جدار الأمعاء دون الحاجة إلى هضمها وتحويلها إلى أحماض دهنية وجليسيرين ، ومن هذا نفهم أن اللبن من أفضل الأطعمة غذاء وأسرعها وأسهلها هضما .

التركيب الكيمى لدهن اللبن:

دهن اللبن على شكل جليسيريدات Glycerides والجليسيريد عبارة عن جليسيرين ومعه حامض عضوى أو أكثر من حامض عضوى واحد ، ويحتوى دهن اللبن على عدد كبير من الأحماض الدهنية الخفيفة الوزن الجزئى ، كما أنه يحتوى على أكبر عدد من هذه الأحماض من أى دهن حيوانى آخر .

الأحماض الدهنية ونسبتها في لبن البقر .

حمض بيوتريك ٤,٦٪	حمض كابرويك ١,٧٪	حمض كابريليك ١,٣٪
حمض كابريك ١,٣٪	حمض لوريك ٥,٤٪	حمض مايريستيك ١٧,٧٪
حمض بالمتيك ١٦٪	حمض ستياريك ٣,٧٪	حمض ارليك ٤٨,٣٪

والأحماض الخمسة الأولى قابلة للذوبان في الماء ، وتعطى اللبن نكهته المعروفة والمحبة للناس ، والحمض الأول أهم هذه الأحماض لأنه إذا انفصل هذا الحمض حدث ترنخ اللبن أو لمنتجات اللبن ، أما الأحماض الخمسة الأخيرة فهي غير قابلة للذوبان في الماء وتبلغ نسبتها في اللبن نحو ٨٠٪ ، وتسبب قوام الزبد أو منتجات الألبان الأخرى ، وهذه الأحماض الخمسة أحماض طيارة ، ودهن اللبن من أغنى الدهون الحيوانية في تلك الأحماض .

القيمة الغذائية لدهن اللبن:

- ١ - تحتوى على معظم الأحماض الأساسية الضرورية والتي لا يمكن بناؤها في الجسم .
- ٢ - المواد المصاحبة لدهن اللبن لها قيمة غذائية كبرى لا توجد في دهون أخرى .

سكر اللبن «اللاكتوز»:

هذا السكر لا يوجد إلا في اللبن ، وثالث الطاقة التي تستمد من اللبن ترجع إلى اللاكتوز ودرجة حلاوة السكر اللاكتوز أقل كثيرا من سكر العنب فسكر اللبن ضعيف الحلاوة لا يزيد على ١٥٪ من حلاوة سكر القصب ، وله فوائد كثيرة منها :

- يعطى طاقة حيوية في الجسم وسرعة النمو .
- ويساعد عمل الميكروبات المفيدة في الأمعاء .
- ويساعد على زيادة امتصاص الكالسيوم والفوسفور في الأمعاء .
- ويعالج إمساك البطن ويقاوم البكتريا الضارة بالأمعاء .

فيتامينات اللبن:

يحتوى اللبن على جميع الفيتامينات إلا أن بعضها يوجد بنسبة ضئيلة جداً ، أما أنواع الغذاء الأخرى التي تحتوى على نسب مرتفعة من بعض الفيتامينات فإنها تكون غير محتوية على فيتامينات مهمة أخرى ، أما اللبن فهو يحتوى على جميع أنواع الفيتامينات ، لذلك يقول علماء الأغذية «اللبن هو الغذاء الكامل» وهنا نذكر الحديث النبوى الشريف قال رسول الله ﷺ : «إذا أكل أحدكم طعاما فليقل اللهم أطعمنا خيراً منه ، وإذا سقى لبناً ليقل اللهم زدنا منه فإنه ليس شئ يجزئ عن الطعام والشراب إلا اللبن» أى لا يغنى عن الطعام والشراب إلا اللبن ، هذا وتوجد الفيتامينات أ ، د ، هـ ، ك ذائبة في الدهن ، والفيتامينات ب ١ ، ب ٢ ، ج كولين ذائبة في الماء ، واللبن يعد مصدراً جيداً لكل هذه الفيتامينات .

* فيتامين A Vitamin A :

اللبن مصدر مهم لهذا الفيتامين الذى يخترن الزائد منه في الكبد ، وهو فيتامين مهم للنمو ، وإذا نقص حدث العشى الليلي ، وفيتامين (أ) مهم لصحة العظام والجلد وللمناعة ضد الأمراض .

* فيتامين D Vitamin D :

يساعد على ترسيب الكالسيوم والفوسفور في العظام ، وبذلك يساعد على نمو العظام ومنع مرض الكساح . وإذا عرض اللبن للأشعة فوق البنفسجية زادت كمية فيتامين د فيه عشرين ضعفاً .

✱ فيتامين هـ Vitamin E :

هو فيتامين مهم لصحة الغدد التناسلية ، ولذلك يسمى «الفيتامين المضاد للعقم» .

✱ فيتامين ك Vitamin K :

يساعد على تجلط الدم وتكوين مادة البروثرومبين prothrombin فى الدم .

✱ فيتامين ب١ Thiamine :

هو فيتامين مهم لتحسين الحالة الصحية ، ونقص هذا الفيتامين يسبب مرض البرى برى ، وما يصاحبه من هزال شديد وأعراض أخرى .

✱ فيتامين ب٢ Riboflavin :

وهو فيتامين يعالج مرض البلاجرا ، وبعض أمراض التهابات العين والفم واللسان .

✱ فيتامين ج Vitamin C :

يحتوى اللبن على كمية ضئيلة من هذا الفيتامين ، وهو يمنع من الإصابة بمرض الأسقربوط ، وعلى اللبن يتلف هذا الفيتامين ، لذلك لا بد للإنسان من تناول مواد أخرى غنية بهذا الفيتامين ، مثل الخضر والفاكهة .

✱ الكولين Choline :

هو العامل المانع لتراكم الدهون بالكبد ، ويوجد الكولين فى اللبن بكثرة ، وهو عامل مهم فى تمثيل الدهون فى خلايا الجسم .

الأملاح المعدنية فى اللبن:

اللبن مصدر مهم للأملاح المعدنية اللازمة لجسم الإنسان ، وهى مهمة للعظام والأسنان وتنظيم الضغط الأسموزى ، وتنشيط خمائر الجسم .

ومن أهم الأملاح المعدنية فى اللبن ، أملاح الكالسيوم والفوسفور والمغنسيوم ، ويوجد فى اللبن من المعادن الصوديوم والبوتاسيوم والكلور والكبريت ، إلا أن اللبن يحتوى على قدر ضئيل من الحديد ، كما يوجد فى اللبن آثار من المعادن الأخرى مثل المنجنيز والنحاس واليود والزنك والفلور ومعادن أخرى .

أنزيمات اللبن «خماير اللبن»:

الأنزيمات هى مواد تفرزها الخلايا تساعد على إتمام التفاعلات الكيميائية ، هذا بالإضافة إلى أن الأنزيمات تحلل المواد الغذائية المركبة إلى عناصر غذائية بسيطة يسهل امتصاصها ، فالأنزيمات تساعد فى عمليات الهضم والامتصاص .

وتوجد الأنزيمات بنسب صغيرة فى اللبن ، ومن أهمها الآتى :

١ - أنزيم الجالاكتيز : يحلل البروتينات إلى أحماض أمينية بسيطة سهلة الهضم والامتصاص .

٢ - أنزيم الليبيز : يحلل الدهون إلى أحماض دهنية بسيطة سهلة الهضم والامتصاص .

٣ - أنزيم اللاكتيز : يحلل سكر اللبن «اللاكتوز» إلى جلوكوز وجالاكتوز وهى سكريات إضافية يسهل امتصاصها .

٤ - أنزيم الأميليز : يحلل النشا .

٥ - أنزيم البيروكسيداز : عامل مؤكسد ، ويتلف بالغلى ، ويوجد باللبن أنزيمات أخرى كثيرة .

١٢ الأخوة في الرضاع

أخرج الإمام مسلم عن السيدة عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال : «يحرم من الرضاع ما يحرم من الولادة» وفي رواية أخرى «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب» وأخرج الإمام مسلم عن أم الفضل أن رسول الله ﷺ قال : «لا تحرم الرضعة والرضعتان أو المصاة أو المصتان» .

ولماذا يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب؟

فى هذا الحديث إعجاز علمى كبير . . فإن السر العلمى فى الحديث الشريف لم يكتشف العلماء منه شيئاً إلا حديثاً جديداً فى السنوات القليلة الماضية فقط . . فقد اكتشفوا أن الطعام يغير من صفات الخلق أثناء الطفولة الأولى ، ويغير من بعض الصفات الوراثية ، ويغير من طباع أيضاً . . وموضوع تأثير الطعام على طباع الإنسان وسلوكه ، موضوع كثرت الدراسات فيه فى عصرنا هذا . . وثبتت حقيقة تأثير الطعام على عوامل الوراثة وعلى طباع الإنسان وسلوكه .

ونعطى مثلاً مشاهدًا على ذلك فى عالم النحل . نجد أن تأثير الغذاء على نمو اليرقات تأثير كبير ، فاليرقات التى تتغذى على الماء الملكى تصير ملكات ، وهى إناث كاملة لها القدرة على الحمل بالبيض الملقح . أما اليرقات التى تتغذى على لبن النحل فتصير شغالات . وهى إناث عقيمة وليس لها القدرة على التناسل . . كما أن بعض اليرقات الأخرى تصير ذكوراً . .

فتغيير غذاء يرقات النحل يؤدى إلى تغيير الصفات الوراثية للنحل . . وإذا نجحنا فى اكتشاف السر العلمى كاملاً فى عالم النحل - وهو واقع ومشاهد ولا شك فيه - واكتشاف تأثير الغذاء على تغيير الصفات الوراثية فى اليرقات . . لأدركنا السر العلمى فى تغيير الصفات الوراثية للبن المرضع على الطفل الرضيع . . ولا بد أن يكون تأثير اللبن تأثيراً بالغاً فى التحول النفسى فى الطفل أيضاً ، فينمو الأطفال - الذين رضعوا مراراً ولمدة من الزمن من ثدى واحد - فى نمو بدنى متماثل ونمو عاطفى واحد ، وارتباط نفسى عميق ، بأم واحدة فيكونون جميعاً إخوة من الرضاع . ومن هذا يبدو لنا الإعجاز العلمى الكبير فى حديث رسول الله ﷺ : «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» .

وليس معنى هذا أن الطفل الرضيع إذا رضع عدة قطرات من اللبن من ثدى امرأة غير أمه يكون قد تم الرضاع ، فقد أخرج الإمام أبو داود أن رسول الله ﷺ قال : «لا رضاع إلا ما أنشز العظم وأنبت اللحم» - أنشز العظم أى قواه .

وهذا ينفع الرضاع الذى يحرم ما يحرم من النسب ، إذا كان إرضاعاً قليلاً ، غير مؤثر فى تكوين جسم الطفل الرضيع .

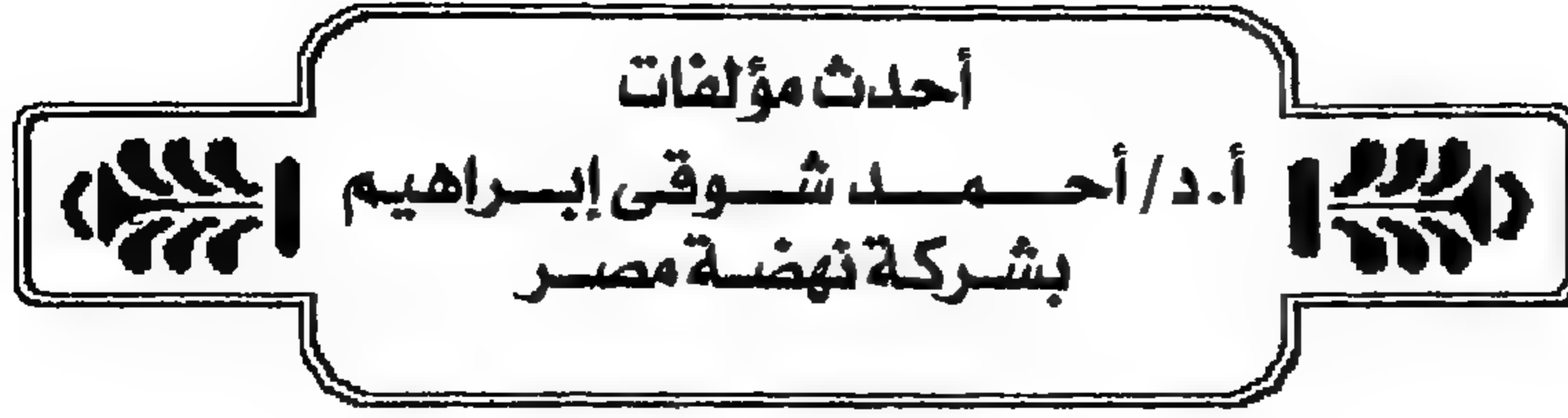
ويؤكد هذه الحقيقة ، ما أخرجه الإمام مسلم عن أم الفضل أن رسول الله ﷺ قال : «لا تحرم الرضعة والرضعتان ، أو المصاة والمصتان» .

وسئل سعيد بن المسيب عن الرضاعة فقال : ما كان بين الحولين فهو يحرم ، وما كان بعد الحولين فإنما هو طعام يأكله . وأخرج الإمام مالك فى الموطأ عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : لا رضاعة إلا ما كان فى الحولين .

المراجع

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي .
- ٣ - تفسير الإمام الطبري .
- ٤ - التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي .
- ٥ - روح المعاني للإمام الألوسي .
- ٦ - تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير .
- ٧ - كتاب دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة للدكتور موريس بوكاي .
- ٨ - كتاب الإسلام في عصر العلم للدكتور محمد الغمراوي .
- ٩ - كتاب الإسلام يتحدى لوحيد الدين خان .
- ١٠ - كتاب أسرار الكون «ألن هانليك» .
- ١١ - مقدمة ابن تيمية في التفسير .
- ١٢ - مقدمة تفسير ابن عطية «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» .
- ١٣ - كتاب «سنريهم آياتنا» للدكتور أحمد شوقي إبراهيم .
- ١٤ - كتاب أطوار الخلق في تاريخ الإنسان للدكتور أحمد شوقي إبراهيم .
- ١٥ - موسوعة الإعجاز العلمي في المعارف الطبية في ضوء القرآن والسنة للدكتور أحمد شوقي إبراهيم .
- ١٦ - في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب .
- ١٧ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي .
- ١٨ - اللبن وقيمته الغذائية للدكتور علي أحمد الشحات .

٨٢	٥ - إعراض الرسول ﷺ عن ابن أم مكتوم	٣	تقديم
٨٣	٦ - إذن الرسول ﷺ للتخلف عن القتال		الباب الأول: السنة النبوية المشرفة
٨٣	٧ - دعاء الرسول ﷺ في أحد	٧	١ - السنة النبوية المشرفة
	الباب الثالث: كيف بدأ الخلق؟	٩	٢ - السنة النبوية المشرفة تفسير للقرآن العظيم
٨٧	١ - كيف بدأ الخلق؟	١٠	٣ - مقدمة عن المنهج العلمي
٨٩	٢ - آدم والجنة	٢٣	٤ - الإعجاز البلاغى فى الحديث النبوى
٩٠	٣ - قصة آدم وحواء فى الجنة	٢٥	٥ - فصاحة رسول الله ﷺ
٩٤	٤ - لماذا لم يسجد إبليس لآدم؟	٢٩	٦ - الحمد لله
	الباب الرابع: من الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى فيما يخص المرأة	٣٢	٧ - معجزة الإسراء والمعراج
٩٩	١ - مكانة المرأة فى الإسلام	٤٩	٨ - نور النبى محمد ﷺ أول ما خلق الله
١٠٠	٢ - النساء ناقصات عقل ودين	٥١	٩ - وجود النبى محمد ﷺ
١٠٣	٣ - أصحاب الجنة	٥٦	١٠ - الرسول ﷺ سيد البشر
١٠٧	٤ - خفض البنات	٥٨	١١ - عظمة رسول الله ﷺ
١٠٩	٥ - الضلع الأعوج	٥٩	١٢ - محمد ﷺ رسول الله حقا
١١١	٦ - الحيض والمرأة الحائض	٦١	١٣ - اسم النبى ﷺ
١١٥	٧ - الأم الحاضنة والرحم المستأجر	٦٢	١٤ - الصلاة والسلام على النبى ﷺ
١٢٠	٨ - زواج الأقارب	٦٨	١٥ - السلام على النبى ﷺ
١٢٥	٩ - ولادة السيدة مريم عليها السلام	٦٩	١٦ - وما ينطق عن الهوى
١٣١	١٠ - الرضاعة		الباب الثانى: عصمة الرسول ﷺ
١٣٩	١١ - اللبن	٧٥	١ - حادث تأبير النخل
١٤٥	١٢ - الأخوة فى الرضاع	٧٧	٢ - حديث العدوى
١٤٦	المراجع	٨٠	٣ - حادث آبار بدر
		٨١	٤ - حادث أسرى بدر



- ١ . موسوعة الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى . الجزء الأول «النبى ﷺ» .
- ٢ . موسوعة الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى . الجزء الثانى «خلق الإنسان» .
- ٣ . موسوعة الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى . الجزء الثالث «الزمن» .
- ٤ . موسوعة الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى . الجزء الرابع «الطبيعة وما وراء الطبيعة» .
- ٥ . موسوعة الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى . الجزء الخامس «النبات» .
- ٦ . تسبيح الكون .
- ٧ . الإنسان وعالم الجن .
- ٨ . الأحداث الثلاثة العظمى فى الدعوة الإسلامية «البعثة - الإسراء والمعراج - الهجرة» .
- ٩ . النوم «الموت الأصغر» .
- ١٠ - الروح والنفس والعقل والقرين .

احصل على أى من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع www.enahda.com





أ.د. أحمد شوقي إبراهيم
زميل كلية الأطباء الملكية بلندن
رئيس المجمع العلمي لبحوث القرآن والسنة ح.م.ع
عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

موسوعة الإعجاز العلمي في الحديث النبوي

إن الحديث النبوي الشريف وحى من الله

تعالى لرسوله الكريم ﷺ، وهو تفسير للقرآن العظيم وامتداد له.. والقرآن والسنة النبوية معاً أساس التشريع الإسلامى، وقد وفق الله تعالى مؤلف هذا العمل بما له من تاريخ طويل فى مجال الإعجاز العلمى فى تقديم هذه الموسوعة التى تناول فى جزئها الأول بعض ما يتعلق بالسنة المشرفة من مواضيع مهمة إلى جانب إثبات عصمة الرسول ﷺ فى أمور، أخطأ فى فهمها العلماء، وظنوا أن الرسول ﷺ لم يكن معصوماً من الخطأ فيها، وكانوا فى ذلك خاطئين، هذا إلى جانب ما ورد من إعجاز فى خلق آدم وحواء، موضحاً الإعجاز العلمى فيما يخص المرأة فى الإسلام وفى أمور كثيرة ذكرها المؤلف بشيء من التفصيل.

الناشر

